الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
سلسلة الجوائز
٢٧

مختارات من أعمال:

بريجيتة كروناور

نار وريبة

ترجمة: دكتورة علا عادل

بريجيتّه كروناور

كاتبة ألمانية ولدت عام ١٩٤٠ فى مدينة إبسن بألمانيا.

تفرغت للكتابة منذ عام ١٩٧٤ وتعيش الآن فى "هامبورج" ككاتبة حرة.

من أشهر أعمالها.. ألاعيب النجمة.. المرج.. السيدة فى المخدات.. ريتا مونستر.. فى التعامل مع الطبيعة.

وفى عام ٢٠٠٤ صدرت روايتها التى ذاع صيتها ولفتت إليها الأنظار بقوة "اشتهاء الموسيقى والجبال"

حصلت على العديد من الجوائز مثل "جائزة فونتانا" لمدينة "برلين"، وجائزة "هاينريش بل" وجائزة "بريمر" الأدبية قبل أن تحصل على جائزة "چورج بوشنر الكبرى" عام ٢٠٠٥.

الجائزة: جائزة "چورج بوشنر الكبرى"..
أعرق وأشهر الجوائز الألمانية..

تأسست لتكريم اسم الكاتب والناقد الألمانى "چورج بوشنر" (١٨١٣ــ١٨٣٧) اعترافًا بفضله وتأثير أعماله ورؤيته الثورية على الحياة الفكرية الألمانية.

تمنحها الأكاديمية الألمانية بانتظام منذ عام ١٩٥١ للأعمال الأدبية المميزة.. وقد حققت طوال أكثر من نصف قرن من الزمان مصداقية كبيرة حتى صارت واحدة من أهم جوائز العالم.

نارُوريّة

كروناور ، بريجيته
نار وريبة : مختارات من أعمال بريجيته كروناور ؛ قدمت لها إليزابيث بيندر ؛ ترجمة : علا عادل عبدالجواد .ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
٢٦٠ ص ؛ ٢٢ سم .ـ (سلسلة جوائز)
تدمك ٦ ٠٤٩ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٤٦٥/ ٢٠٠٧

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 049 - 6

ديوى ٨٢٣

نار وريبة

مختارات من أعمال:

بريجيته كروناور

ترجمة: دكتورة علا عادل



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٧

- الكتاب: نار وريبة — Feuer und skepsis
- تأليف: بريچيته كروناور — Brigitte kronauer
- أصدرته وكتبت له المقدمة إليزابيث بيندر

Herausgegeben und mit einem rorwort von Elisabeth Binder.

- ترجمة: دكتورة علا عادل عبد الجواد.

- الطبعة الأولى ٢٠٠٧.
- طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على

جودته لجان متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم ويفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

مقدمة

على جبهة بلا حماية

هل ينبغى أن نفهم ما صاغته بريجيته كروناور ذات مرة فى واحدة من كتاباتها حول «طريق الكبر» على أنه قد يكون برنامجها الخاص فى الحياة، أو على الأرجح برنامج الأدب الحقيقى لديها؟ ولا سيما دون الوقوع تحت تأثير «الحماية المتعة للنماذج السابقة الصياغة»، أو «الاطمئنان إلى ما سبق حكيه» و«إمـلاءات الإدراك»، دون التأثر بسلطة الأشكال النمطية، أو الشابلونات و«تقليد العارف بكل شىء أو عزاء الجماعة»، بل على النقيض بأننا نخلق البساطة بقدر ما نخلق الصعوبة، دون أن ندرك الهمسات التى نعايشها؛ حيث تنقش الأمور الجميلة والمؤلمة لتتراكم فوق بعضها البعض؛ إنه تسجيل على جبهة بلا حماية.

على جبهة بلا حماية! يتطلب ذلك ولا شك جسارة وعنادًا شديدًا. ولكن إذا كان المطلوب هنا من كل شخص ما يعد من المتطلبات الضرورية للكتابة بالنسبة لكل مؤلف، ولا سيما على شاكلة وطبع هذه الكاتبة، فلن يتضح إذًا مدى عمق «العلاقة بين الحياة والأدب» لديها فحسب، بل أيضاً الاقتناع بأن «الأدب لا يتخذ جانب "الصفوة» أبداً، أم هل ينبغى صياغة الأمر بشكل آخر؟ هل نطلب قطعياً وبلا تردد من الحياة نفس ذلك الشىء المختار والمنتقى، أو بالأحرى المتمرد (يعرف المتمرد بمن لا ينفك أن يكون غير أيديولوجى بالسليقة) كما نطلب من الفن؟

ولكن بم تطالب الكاتبة بريجيته كروناور فن الأدب؟ خاصة، حيث يعنى الأدب أكثر من كونه موقفًا أو وجهة نظر فى الحياة، وحين يكون فى مواجهة الحياة بوصفه «المغاير الثابت» : عالم الفضيلة الجديد، القديم، أو ما تطلق هى أحياناً عليه وبكل جسارة وجرأة «الشعر» «العالم المقابل للشعر» ؟

لعل ذلك الشعر يبقى داخلياً محسوباً على الحياة، ولا سيما بوصفه صيغة فنية بشكل نشط وحيوى، ليراقب الحياة فقط من ذلك الوضع المقابل بدقة أكثر، لأن الكاتبة لم تنطلق أبداً من الميزة (التى عادت لتصبح محل نقاش مجدداً)، والتى مفادها أنه ليس هناك واقع مادى يكمن خلف اللغة ويكون على صلة بها، وأن كل شىء ما هو إلا نص تلو الآخر، كما أن

وعينا يمكن مقارنته بفهم الكاتب ريلكه المحبوس والذى لا مفر له (كما لو كانت هناك آلاف القضبان ولا وجود لعالم خلف آلاف القضبان). وقد قالت بريجيته كروناور فى حوار أجرته عام ١٩٩٢: «أعتقد أنه هناك خلف اللغة شىء ما يسعى إليه الأدب ويحاول أن يبلغه بمداومة استخدام تنويعات وحيل جديدة. وهى تلك العملية التى تخرج اللغة من خلالها، وعندما يتوقف الكاتب عن استهداف الحقيقة مثل القنص بالحجر أو الصيد بالشباك فسوف تتبخر الحياة، كذلك سيخبو حماس الأدب وحميته».

وسواء «شباك» أو «حجارة» أو حتى سهام - فى حين أن الكاتبة هى نوع من رماة سهام القوس، فإنه أثناء قنص الحقيقة والبحث عنها، يتمثل أحد مقومات هذا المجاز فى أن الجوهر والأشياء فى صيغتها وشكلها الحقيقى لا تتميز بالصمم والخمول، وأنها بمثابة جزئية متوافرة لكل ما تريد من الكلمات الجوفاء والمستحدثة، بل بمثابة حيوان برى خجول وحاذق كامن فى الأدغال إن أمكن، حتى وإن كانت أدغال الحياة الحديثة، وهناك صياد متيقظ وشديد العزم يطارده خارج مخبأه ويقلقه حتى يصيبه دون أن يقتله بالطبع، على عكس ذلك.

حيث تقول فى إحدى رواياتها الأولى وهى تتحدث عن سيدة عجوز كئيبة زال عنها جمالها: "لم يكن أحد ليرغب فى رؤيتها، بل وبالتأكيد أنها هى نفسها لم

تعد ترغب فى رؤية نفسها، أما الكاتبة فترغب فى ذلك، طوال حكاية بأكملها، وحتى تظهر هذه الشخصية الكئيبة سحر المغامرة لديها بشىء من الحيوية والعناد.

وسواء كانت صائدة أو راعية شأنها شأن أرتيميس، إلهة الغابة العجوز، فيما تفعله مع الحيوان البرى المؤتمنة عليه، حين تحول الآدميين أحياناً إلى حيوانات، ليصبح رجلا فضوليًا وقحًا على سبيل المثال أيل فى التو واللحظة، فهل لهذا السبب تشعر المؤلفة بريجيته كروناور كما تؤكد مراراً بالراحة فى الغابة فى "عزلة الغابة" القديمة؟ ولا سيما بسبب حاسة الصائدة أو الراعية، كذلك حيث إن الغابة كانت تمثل دائماً (وهو الأمر المأخوذ من النظم الاجتماعية) مكاناً للتحول، سواء فى القصص الخرافية أو الأساطير أو قصص الانسلاخ التى تزداد أهمية فى نصوصها.

إلا أنها من الناحية الأدبية تشعر بالراحة؛ حيث يحدث هذا التحول انطلاقاً من علاقة داخلية أو حماسية بالواقع (كما أن الاغتراب التام ليس مستبعداً هنا، وهو ما ينطبق بالمثل على وسيط الفن التشكيلى من لوحات الصور المقدسة القديمة حتى عصر الحداثة: لا تأمن جانب التجريدية! فالتغير لا يكون فى الشكل أو الهيئة مثل التحول أو الانسلاخ ولكنه تغيير فى «الجوهر والمادة» من الطبيعة إلى الأدب، وهكذا يبدو الأمر كما لو كان هناك وجود فعلى لهذه اللغة، التى كان يحلم بها اللورد شاندوس فى «خطاب»

هوفمانستال، أو لعلها مثل «كلمة أيشندورف السحرية» التى تجعل العالم يشرع فى الغناء إذا ما وقع أسيراً لها وأصابته، أم أنه ذلك «التوحد الرقيق» بين الكلمة والشىء، توحد ورقة النبات الهاوية مع صورتها المنعكسة فى الماء تلك التى تحدث عنها نابوكوف(*) ذات مرة قائلاً : ... «يخشى الإنسان من كسور الثانية، أن يفشل العمل الفنى، ألا يشتعل زيت التبخير، أن تخطئ الصورة المنعكسة وتضل سبيلها عن ورقة النبات لتسير وحدها فى الماء بعيداً، ولكن ذلك التوحد كان يحدث كل مرة، وبشكل سحرى مثل كلمة الشاعر التى تلتقى بذكراها الخاصة أو بذكرى أحد الشعراء فى منتصف الطريق».

ولكن هل تطلب ورقة النبات، بل هل يطلب العالم هذا التوحد؟ أم عله لا يتحمل لا مبالاته، إلا من يخطب وده ويطلبه؟ إنه سؤال لن يتمكن أحد من أن يحسمه، ولكن المؤكد هو أن أدب بريجيته كروناور يستقى طاقته المؤثرة التى لا تخبو ولاتخفت من الاقتناع بأن العلم يطلب التوحد، كما أنه من المؤكد كذلك أن ذلك الأدب يندرج ضمن أكبر المعجبين فيما يختص بالعالم: فهو نارى ومرتاب فى الوقت ذاته، وتدور كافة نصوصها فى الواقع (كذلك من حيث الموضوع وعلى مدار الرواية بأكملها) حول تلك اللحظة الشديدة الإباحية والتى تطالب بالأشياء كما تطالب

(*) فلاديمير نابوكوف: ١٨٩٩-١٩٧٧ أديب امريكى من أصل روسى، من أشهر أعماله رواية لوليتا (المترجمة)

بخلاصها النهائى، إنه شغف العالم غير المكترث بما هو آت فى رغبة الوحى ومتعته عند لقاء الحبيب (ليزول هناك) أو لقاء الفنان (ليصبح مسلوب الإرادة إلى الأبد).

متعة الوحى؟ لعل هناك شيئاً آخر قد يندرج ضمن ذلك غير وحى طبيعتها السرية، وهو ما يطلق عليه لدى هذه الكاتبة التى تحذو هنا حذو جوته «ليس هناك شىء بالداخل، ليس هناك شىء بالخارج، لأن ما بالداخل هو فى الخارج» استحضار شخصها الفريد من نوعه والذى لا يخطؤه أحد وتقول فى أحد أعمالها: «... لأن الجياد تقذف أذيالها فى اللون الرمادى الخفيف والأخضر مع اللون الذهبى المغطى، لا يمكن أن ينجح أحد فى أن يجعله يذبل أبداً، إطلاقاً».

هل يمكن أن يختفى الشىء الميتافيزيقى الكائن فى ذلك «اللون الذهبى المغطى جيداً»، فى حبها المستعر لظواهر العالم، بل فى الاحتياج إلى كسر نماذج الرؤية المعهودة وكل ما هو مريح وسابق التجهيز، ضجر الحياة اليومية، وكسر كل ما هو بمثابة علبة أو بالأحري قوقعة أيديولوجية وإدراك ما هو «على جبهة بلا حماية» وصياغته، أو يكمن ذلك الشىء الميتافيزيقى فى اهتمامها الشديد بعالم الطبيعة والألوان «الرمادى والأخضر»؟ لعلها هى «شهية الإله» "apetito de Dios" (يورج كاريرا أندرادى) التى تحدثت

عنها فى مقال ذات مرة، واعتبرتها «دافعًا لنقطة الفرار» ! أم هو اقتناع المتصوف إكهارد (*) الذى كانت تردده بطلة روايتها الأخيرة «الرغبة فى الموسيقى والجبال» أو من كانت تسرد الأحداث على لسانها، وهى السيدة فيش، كانت تردده وهى تلهث حيث كانت بصدد الإسراع للقاء محبوبها عند كورنيش بحر أوست إنده Ostende وكانت تقول:

«يريد العالم، يريد العالم، يريد العالم أن يعودنا على الله؟»

تضم مجموعة النصوص هذه قصصاً ومقتطفات من روايات، وحكايات ومقالات، ومحاضرات، ومختارات من بعضها، إلا أن النصوص ليست مرتبة بحسب الجنس الأدبى أو مرتبة ترتيباً زمنياً، إلا أن النصوص الأولى للكاتبة فقط وحتى صدور المجموعة القصصية «لليلة المميزة» جمعناها فى فصل واحد، لأنها تصور بدايات الكتابات ذات البرنامج الصارم لتلك المؤلفة ونضوجها، وبخلاف ذلك فإن هذا المجلد مقسم بحسب المجالات المهمة من حيث الموضوع أو الجانب الشعرى، وهذه الموضوعات أو المجالات تفضى إلى بعضها البعض، وتتلاحق وتتداخل فى بعضها البعض، فيما عدا ذلك يمتد شىء أشبه بقوس الحياة العام بدءاً بذكريات الطفولة المأخوذة عن رواية ريتامونستر ووصولاً إلى «ملاحظات على الطريق

(*) شخصية فى أساطير البطولة الألمانية القديمة تمثل الحامي والناصح والواعظ (المترجمة).

صوب الكبير». وحيث إننا نعرف مدى حب الكاتبة للأوبرا، فلعلنا ندرك هذا الإبراز الموسيقى للعمل بأكمله باستخدام الألفاظ «مدخل»، و«مشهد من فصلين»، و «خاتمة» بوصفها نوعًا من الإشارة أو الرمز فى هذا الاتجاه.

إلا أن النقيصة الممكنة لمثل هذا الترتيب التحليلى تتمثل فى أن القارئ يخال نفسه منقاداً بشدة، فضلاً عن إمكانية نشأة الانطباع بأن جزءًا مقتطعاً من رواية يتبع فقرة لمقال تناسبه من حيث الموضوع أو يسبقها قد يكون هو التطبيق العملى للفكرة النظرية، وقد يقابله الإغراء بمشاهدة الضروب المختلفة وقد تجمعت تحت شعار واحد، وهو ما يعنى كذلك مشاهدة كيفية اتخاذ رأى ما أو قناعة، أو امتزاج أو نفور شكل الكلمات فى أنماط النصوص المختلفة، وكيف يتحول هذا كله فى وسط الأدب الفعلى، أى فى الحكاية والرواية إلى لحم ودم؟

ونحن نأمل بوجه عام أن تنجح هذه العينة فى نقل شىء من الحماسة الشعرية سواء من الإنسانية المحفزة على الثقة لهذا العمل الذى ينعش القارئ ويشجعه فى غدوته وروحته حتى وإن كان يهزه ويرجه ويخرجه من كل يقين وأمان ممكن بشىء من الحيلة والمجون والتلذذ بل وسخرية ومرح، ليشجعه على إدراك الحياة، وما هو خاص وماهو غريب، وعلى إدراك الطبيعة بقدر من الأهمية وبطريقة يغلب عليها العناد أى : على جبهة بلا حماية!

«أتمنى فضلاً عن ذلك أن تتخذ قصصى حرفياً صورة جيدة، والأفضل إن كان ذلك يمكن بلوغه أن تصبح مثل ورقة الشجر، التى يختفى تنظيمها المتناهى الصغر بتحفظ لا يضاهى وبشكل يخلو تماماً من الملل فى مظهرها البيضاوى الشكل أو المتعرج المدبب، بحسب فصول السنة أو الطقس لتتأرجح ولكنها ثابتة».

(من خاتمة:فى المرج Die Wiese، 1993)

المدخل

أنت؛

فلتتخذنى هنا على سبيل المثال، اتخذنى مثالاً، ولتضع نفسك مكانى! ليست هى الوجوه على الإطلاق التى سوف تدفعك إلى اليأس فى اللحظات التالية ولتعترف لنفسك فحسب، بل لا تعترف بهذا لنفسك الآن، بحق السماء، فكيف ترغب إذًا فى النجاة؟ ولاسيما أن الوجوه ملتفتة إليك حتى الآن وهى متوترة، يكسوها الغموض فى تلك اللحظات الأولى والتى لا تتكرر لذلك الفضول القائم حقًا، ولكن أنت تعرف ذلك منذ زمن بعيد وأكثر بكثير من تلك الأعين التى تكاد تكون مألوفة والموجهة إليك بإجماع. على الرغم من أنك هنا لست آمنًا، فالعيون لاتزال مألوفة ومستأنسة؟

لا تزال ؟

الأهم هو ما تشعر به وما تتعرف عليه مجدداً وما يصبح أكثر ألفة مع مرور كل ثانية؛ المناخ أو الجو المحيط! لا يمكن أن يخطأه أحد مثل الرائحة، لا، أنت لست مخطئًا للأسف ولكنك تتمنى حتى الآن أن يكون هذا هو الحال، منذ برهة كان الترقب يسود الجو، ذلك الجو المألوف الذى لا يبعث على الارتياب، إلا أن كل شىء كان مناسبًا لك فى اللحظة الأولى فقط، والآن تقرر كل شىء بما لا يوافق هواك، وكنت تخشاه دائماً، وقد حدث هذه المرة تحديداً، تشرع فى التصبب عرقاً فى صقيع يتزايد بسرعة، لا قبل لك به. لا تخدع نفسك _ بل افعل ذلك وصدق بالله عليك إنك تملك فرصاً للفوز بعد طالما كان ذلك ممكناً بأية حال، هذا الشىء. هذا السحر أو التأثير هو العدو العتيد الماكر الذى يمكن أن يتخيله أحد كيف يمكن الإيقاع به؟ فهو لا يواجه ولكنه موجود فى كل مكان، إنه نفح.

وبعد، فأنا أنظر إليك سواء كنت تتكر ذلك أم لا، كيف تعاود التعرف علىَّ الآن فلا تفعل ذلك. أنت هنا، كما لو كنت لم تفهم ما أتحدث عنه!

إنك تواجه بالرفض، دعنا نبتعد عن المراوغة لقد سبق السيف العزل لم تنجح فى الاختبار، حتى قبل أن تنبس ببنت شفة، شىء ما بك يثير حنق الرفض العام أهى تقاطيع وجهك، أم ملابسك، والآن. أهو صوتك؟ هناك آخرون ممن يعجبهم ذلك، ولكن لا يعجب الناس

هنا لا فى كثير ولا فى قليل، وأنت لا ترغب فى إدراك ذلك على الإطلاق، ولكن الأمر سينتهى قطعاً بعد جملتك الأولى، وكل ما يلى ما هو إلا تأكيد على ذلك، لن تفيد المماطلة فلن تعبر تلك الهوة التى تفصلك عن المستمعين فقد تشممت بأنفك الحساس الوضيع أنه ليس هناك ما يربط بين عواطفك أو عقلك وبين تبجحك من ناحية وأنه لا يوجد ثمة توافق بين عباراتك وحياتهم.

يفرض ذلك نفسه عليك ويمثل عبئاً على عاتقك كما أنه ذنب لا يغتفر.

إلا أنه لا يتبقى أمامك سوى أن تحاربوا! فافعل ما تشاء فلتسير على رأسك ولتحرك الإطارات مرة للأمام ومرة للخلف، ولتتخذ وضع الشقلباظ عبر التفاهم بالتخاطر، مما يعنى أن كل شىء ضدك يسير بسهولة، لا أحد يرغب فى تدميرك ولكنه سيدمرك على الأقل مساء اليوم، المطلوب هو التخلص منك فقط ولكن هناك اتفاقات لا تسمح لك بالانسحاب أو بأن ينفد صبرك، ماذا لو قوضت الخيام على الفور بسبب فقدان الأمل؟ لماذا لا تفعلون ذلك؟ فأنت تعرف ولا شك ما الذى سيلى ذلك، فقبل أن يبلغ الأمر مدى تثبيط همتك بشكل كامل ومستمر بل دائم التأثير وقبل أن يرحل أعداؤك على مراحل بعد اتمامهم لانقضاضهم بلا هوادة وتخطيطهم لافقادك الروح المعنوية، قبل أن يصل الأمر إلى ذلك سيطرأ عليك

فى النهاية تشتت لا يمكن الاستدلال عليه مباشرة فى شكل سعال سافر يبدأ باستيحاء ثم يتحول إلى نوع من سعال الاعتراض.

ألا تسمعه ؟

نعم. الآن تماماً، هذا القلق ونفاد الصبر والشعور بعدم الرضا الذى يجد متنفساً إلى حد ما فى ذلك التذمر الحثيث والجلبة.

لعلك قد تستخدم الآن حيلة، يمكنك الإفلات بها من هذا الموقف لبرهة حيث تركز مع كل التفاتة على تلك المرأة، التى تبدو مثل القرد الفيتنامى المكسو بالملابس عندما يلتبس عليك الأمر حتى وإن لم تربِ لحية وإن كانت تضع قبعة سوداء ورداء رمادى اللون وترتدى جوارب حمراء وحذاء أسود، وتتخيل هذه السيدة وهى تقفز فى الغابات وتنتقل من شجرة لأخرى لتقطف الثمرات الصغيرة، بينما أنت مشدوه فاغر فاهك وهو الأمر الذى يمنحك نوعًا من عدم الاكتراث، الذى يصبغ عليك متعة صامتة ولكن لفترة وجيزة، كما لا يصدق أحد هذه اللامبالاة؛ لأنك أنت القرد فى حين يجلس أحدهم إلى جانب السيدة بينما تحدق داخل بلعومه الذى يصدر شخيراً، لا أحد يلومه، بل لعل هناك من يحسده نعم، بكل تأكيد.

أترغب فى وعظ هؤلاء المتثائبين ذوى الابتسامات المتعضة، الجالسين فى تحجر، المستائين من التبجح الذى تمثله أنت. أنت ولا أحد سواك، هؤلاء الذين لا

يحركون شفاههم الحديدية بالابتسام على أى من نكاتك؟ فلتحاول ذلك فحسب! لقد جربت ذلك مرات لا تحصى.. أليس كذلك؟ مستخدمًا نبرات رائعة للصوت ما بين إعلاء وخفض، همس يكسوه الخوف حتى الصراخ، مع وقفات مفاجئة وسكون قوى التأثير؟ ولكن دون تأثير! وهم يتحملون ذلك أحياناً وقد نفد صبرهم ويتشوقون فى تلك الأثناء إلى النهاية كما هو الحال بالنسبة إليك تماماً.

لقد أعياك التعب.. عم تتحدث حقيقة ؟ فالكلمات تصدر وحدها من فمك والآلة تدور بشكل روتينى، دون أن تدرى عما يدور الأمر، ولكنها تتملق بقواها الأخيرة مُحطمك المتبرم، جامد الحس، الذى يضحك بشماتة؛ لأن الهدم قد يكون بمثابة انهيار لآداب السلوك ولكن ليس إلا انهيارك وهدمك كذلك.

أما أسوأ ما فى الأمر، فيتمثل فى أنك تبدأ فى التلاشى خلف أصوات الصرير المتتابعة والأصوات المؤدية للواجب، التى تصدرها حيث تصببت عرقاً فى البداية ثم تجمدت والآن لم يعد لك وجود على الإطلاق هل الأمر صعب للغاية، أن تتحدث ويُضرب بحديثك عرض الحائط؟ نعم.. أنت لا تشيح ببصرك، نعم.. أنت هناك، لقد عهدت ذلك بما يكفى فى جسدك: دون.... أطلق عليه ما شئت، بحق الإله، دون صدى، دون مردود أو تغذية ارتجاعية تتوقف الدعابة.. الحب، ينتهى الشخص، لقد قضى عليه

بالمعنى الدقيق أو تم محوه، وأعنى بهذا شخصك، أنت ياسكوت فى القطب الجنوبى قبل الموت وتنفيذ حكم الإعدام بفترة وجيزة. إنه شعور مقيت أليس كذلك؟ ويزيد عليه كذلك الصرير المستمر، والسخيف الذى تصدره. صوت الأزيز الذى يشبه أزيز عجلة النسيج، ذلك الصوت، الذى يظل يهمهم فى نفسه دون عزاء أو ينبح بلا روح ليضع للأمر نهاية، وأنت تخشى تلك اللحظة.

نعم.. هنا بالتحديد تتذكر الطريق الصغير!

لا.. أنا أتذكره ولست أنت، وأنا آمل ألا تعرف مخرجى الصغير، أنت يا من تستمتع حتى الآن ولكنك تعرفت مجدداً على كل شىء وقلبك يخفق خوفاً ولكن خلسة، أنت يا من تتركنى أنا من كنت لأرغب فى الاقتراب منك من أول صف إلى آخر صف، تتركنى أكد وأكدح، بينما أنت تتكاسل، أنت ياملاحقى المحترم بعدم المساس، أنا أعنى أنك سوف تتعقبنى حتى فى أحلامى دون أن أمسك أو تمسنى، فى حين كنت أنا أنوى أن أتعقبك أنت، أتعقبك حتى أحلامكم، حتى ملهاك وأفضل ما فيك.

تقع أجمل المدن ـ وهذا ما يجمع بينها ـ فى نتوءات الأذرع الملكية الكسولة للأنهار وتيارات الماء، على سبيل المثال براج.. باريس.. فلورنسا.. ومدينة دريسدن القديمة وخلافه. أكيد، ولكن الدرب الذى يدور حوله الأمر هنا يتعرج بطريقة أكثر تعبيراً، ليس

صوب المدى الذى بلغه الضباب، بل صوب الظلمة، إلى داخل تربة الغابة المتوهجة، ثم ينحنى خارجاً من طبيعة الحشائش الأليفة فى طريق مدبب، ليدخل فجأة إلى عتمة الغابة وتندس بركة الإمكانات هذه التى غابت عنها السلاحف الصغيرة والعفاريت منذ زمن بعيد، وكانت فى البداية يمكن الإحساس بها ولكننى يملؤنى القلق من أن تظهر فى شكل لهب براق فى الطحالب، ألسنة فى لهاث رطوبة الغابة. هأنذا أشعر بها بينما أقرأ عليك ذلك المكتوب فى الورقة بصوت مسترسل، وأحاول أن أشتت تفكيرك بحضور صوتى وغنائه. أنا إذاً على الطريق، أوشك أن أدخل نهائياً إلى تلك التعرجات فى الطريق الذى تأخذنى معها وتحتوينى وتستنشقنى.

هل تذكم أنفك رائحة نبات النار وقد تملك منك الملل منذ قديم الزمان، نباتات الطفولة الطيبة، والقديمة وإن كانت شريرة؟ هل ترى نبات القراص ذا الشفايف والطواشى الذى هو أجمل من نبات النار ولكنه عند مقارنته به لأول وهلة تحسبه أكثر تراخيًا، بأزهاره التى تتخذ شكل رأس الطير البيضاء، القرمزية، والصفراء، والخفيفة، والتى إذا اقتربت بأذنك قد تسمع تغريدها؟ هناك يمكنك أن تكتشف القرد الفيتنامى المكسو وهو يتأرجح بين الأغصان؟ ها هو ذا أخيرًا يشعر بالراحة وكأنه فى بيته.

فلتستنشق الهواء بعمق. أهى رائحة شجر الصنوبر؟ أم شجر الشربين، أيضاً؟ حقًا! تلك

الرائحة موجودة؟ إن الخشب لا غنى عنه بالطبع، ولكن لن يمكن أبداً أن تحدس هذا الخليط!

والآن حيث مشيت أول خطوة فوق ذلك الطريق الصغير الذى يتعرج كما لو كان بريئاً، الذى جذبك بحركة بسيطة من حركات الثعابين ونجح فى إغوائك، فلا عودة لك، لذا لا تقاوم، فهو سوف ينقلك حيثما يريد، إلى جمال ظلمة وحشة الغابة وإلى شعورها المقبض. الغريب من أسماء الفطر، فى بدائع الجذور، والممرات الصخرية، والجعارين السيارة، وفأر الغيط، وصغائر البرص داخل مملكة الظل الزلقة على أية حال. جذوع شجر وقمم أشجار، ونبات السرخس يلتف حول الأعماق ذهبية الخضرة، ومنحدرات خادعة، وطنين حواف المناطق الخالية من الشجر، نقاط ضوء هاربة، وظلال متحسسة لا يمكن التنبؤ بها مسبقاً -بمنتهى المكر والشماتة - ليس هناك إمكانية اختلاس نظرات مطولة عبر هذه الغابات، ولكن فلتعترف بذلك، كم هى جميلة كل تلك النكات التى تتعلق بالعوائق النباتية ومعوقات الرؤية ذات الخصلات العابثة، كل هذا إلى جانب الوحل والطين الذى تتعفن فيه بهدوء وهى متوجة هذه هى الجثث الصغيرة، التى لا حصر لها لحياة الغابة القاتمة، التى لا صوت لها تقريباً، جزيئات الأموات، التى بدأت تسترد عافيتها مجدداً فى صورة أحياء طازجة، وإلى أى مدى! وكم تختنق كل شكوى فى عملية التحول دون

أن تختنق أو تتسلل إلى الخارج وهنا تدركون معنى أن تكونوا وحيدين.

لا تخاف! أنت لست وحدك فهناك من يراقبك دون أن تراه، ويبتعد عنك، ولكن كل ذلك سوف يتغير كثيراً فهو يراقبك بكل اهتمام، حيث يحدث ذلك التفاهم عبر التخاطر بمنتهى السهولة، هل تصل إلى مسامعك أصوات النحنحة والخشخشة هذه؟ لابد وأن الطريق تراجع خلسة، تدحرج ولملم أجزاءه بسرعة، ربما بضحكة تكاد تكون غير مسموعة، شأنه شأن الوقت ـ أنت تخلط الأمور هنا بعضها ببعض، أين عساه إذا المساء بطوله قد ذهب؟

كيف ترغب فى العودة إلى هناك، حيث أنت الآن؟ يمكننى أن أثرثر معك بسرعة عن ذلك الرجل المريض بداء القلب، الذى همس أحدهم إليه بأنه يجب أن يموت بمجرد أن تبلغ نبتة الحرش المكسيكية السامقة فى رغبة عارمة فى الحياة، والتى تزدهر لاحقاً باللون الأصفر فى شكل لحية صغيرة، تبلغ بأعضائها المتسلقة المستطيل الخامس من السياج المضروب حول حائط بيته بأول نقرة، فأخذ يراقب الأمور بشكل لا يصدقه عقل، كل صباح، كل بضع ساعات ثم كل ساعة، وكل نصف ساعة، وهو أكثر اقتناعاً، أمر يبعث على الضحك! لا شىء آخر يدور برأسه حتى أنه اقتنى بكل سذاجة ما يشبه السلم ليتسلق عليه ويزيل الحائط البرى بسرعة، على وجه الخصوص، وهو ما تبعه كسر فى الرقبة والساقين!

يمكنك أن تفكر فيما حدث وترى أنه من عدم الكياسة أن آتى إليك الآن بمثل هذه القصة؟ «نعم معك حق أستودعك الله، وأتمنى لك الخير».

(فى: حيل الفنانة اللامعة- Die Tricks der Diva 2004)

(١)

مقاطع طفولة

كل ما أريد قوله بعد؛ هو أن الطفولة استقرت الآن فقط لدى فى الحاضر، الآن فقط صفحة تلو الأخرى، ها أنا أرى أحرف أوائل الأسطر الملونة المزخرفة، طبيعة تعرى ملامحى الواحد تلو الآخر. وهكذا يداهمنى صبا مفاجئ، وبينما الناس تحيا ما هو قادم، ينقلب الوقت بشكل أو بآخر لندفن الأحداث لأمد طويل فى سرداب، ويصبح الحائط الفاصل أكثر رقة بدلاً من أن يزداد بعدًا.

(من رواية جسر الشيطان - Teufelsbrücke 2000)

ريتا مونستر

ما أن فتحت عينى حتى وجدت فوقى سقفاً وحائطًا يبعد عنى مسافة قصيرة، خلف حافة السرير

الخشبى، على يسارى تمكنت من لمس ورق الحائط بكف يدى وبكعبى قدمىَّ حتى أننى شعرت بالسور البارد خلف ورق الحائط الرقيق. وعلى يمينى ومن خلفى كان هناك الجزء الرئيسى من الغرفة، حيث فراش والدىَّ، ولكننى لم ألحظ أبداً الأثاث والأركان وتفاصيل الغرفة فى الصباح، حيث إنها لم تندرج ضمن أمور هذه الساعة المبكرة، التى لم تتجاوز الزاوية الملحوظة دائماً، والتى كانت تتكون بالنسبة لى من السقف ذى الطلاء الفاتح اللون وكلا الحائطين ذلك الذى بجانبى والآخر الكائن أمامى، وقد تجمع هناك ضوء رمادى خافت، وسكن هناك ضباب خافت فى ذلك الوقت، وبدا الأمر كما لو كانت الغرفة بأكملها قد انسابت صوب تشتتها وأنا معها أو أنه فى اللحظة التالية، وعلى العكس، كما لو هب تراب خفيف وسقط إلى أسفل وغمرنى أنا والغرفة، ولكننى لم أفكر فى والدىَّ، بينما اصطدمت أقدامهما بالجزء المخصص لوضع الرأس على فراشى، كما أننى لم أسمعهما قط، فقد كانا غارقين بعيداً تماماً، إلا أن الحاضر الوحيد كان الأمر الموجه لى بأن أتصرف بهدوء، ليس فى شكل جملة، ولكن كشىء رمادى باهت قد تشربته تلك الزاوية الكائنة فوقى، حيث إن الكلمات كانت قد تحولت منذ زمن بعيد إلى ستار يتنفس بصوت خفيض، شاهدته وأخذ يعتصرنى فوق المرتبة برقة وعفوية، كان اعتلائى للغرفة وصعودى إلى العش الذى رقدت رأسى أسفل فى مواجهته،

وكذلك هبوط أمطار الرماد الخفيفة على جسدى ووجهى وعلى وسادتى، كان كل ذلك مثل الأمواج المتلاحقة دون أشكال ثابتة ولكن فجأة أصبح كل شىء ساكناً، وبدأت بشرتى تحتك بالبيئة الضيقة المحيطة بى، وهو ما أعطانى الإشارة بأن أمد ذراعيى فى الهواء الخاوى فوقى دون إصدار أية أصوات، أمد هاتين الذراعين الشبيهتين بحيتين طويلتين منتصبتين، وتركتهما تنتظران أمرًا آخر وهما مستقيمتان وممددتان حتى أطراف الأصابع وقد ضغطت على الكوع، والآن لم يعد لتلك الزاوية قيمة، فقد بقيت فى مكانها وقد دُكت إلى الخلف، تولت ذراعاى ويداى أمر الغرفة وملأوها بعد أن دبت فيهم فجأة المرونة واللين، ففردتهم قدر المستطاع، وأخذت أصابعى تدور من فوقى مظلمة تارة ومضيئة تارة أخرى، وأحياناً ببطء ثم تسرع وتتخذ أشكال رءوس تومئ، وطيور السنونو المسرعة أو شكل الألسن ذات السنون، أو شكل أعناق تصارع بعضها البعض وتحتك برقة ببعضها، أو سحب تلتف حول بعضها، وأضواء برق تصطدم وهى تحط على الأرض شأنها شأن الطيور الجارحة، أو أنها تكون مثل النيران المتطايرة، التى تتصاعد إلى أعلى فى شكل حلزونى لتتجمع، أو نافورات تتسلق فى الهواء بقطراتها الفردية بشىء من التردد، كانت يداى مربوطتين بالمفاصل ولكن بشكل رخو، كما لو كان يمكن قذفهما إلى أعلى بدفعة واحدة، وقد أدركت عند لحظة معينة أن والدىَّ كانا

يشاهداننى بعد أن أيقظتهما بصمت، فظلا يراقبان ذراعىَّ وهما يسرعان جيئة وذهاباً من فوق أخمص قدمى وحتى موضع رأسى، وقد أحسست بهما حتى دون أن أضطر لأن أرفع رأسى، والآن أضحت الغرفة موجودة وأصبح الأمر يتعلق بغرض ما بالنسبة لهما، كرست أنا نفسى له بكل حرارة مع يقينى بانتباههما لى وبأننى سرعان ما أتدحرج خارج السرير لأرى وجهيهما الباسمين إلى جانب بعضهما البعض فى الخلف على الوسادة.

أحياناً.. ولا سيما فى تلك السن، كانت تحدث أمور غريبة، إذ كانت أمى تقف أمام الموقد لتطهو لى مرق البرغل، الذى كانت رائحته تزكم أنفى حين تصلنى إلى الدكة الصغيرة الملونة الكائنة خلف طاولة المطبخ، فكانت رائحته مثل الدفء ذاته بل الترف، لابد وأن الخير كان له تلك الرائحة، وكل شىء كان مرتبطًا ببعضه، فالقدر مرتبط بالمرق ذى الأبخرة المتصاعدة، وأمى التى انكبت على القدر لتقلب فيه بالملعقة بكل همة، صوت غليان المرق وكلمات أمى وهى تصف لى كيف تغير اللبن فى القدر المطلى بالميناء وكيف ازداد كثافة، وكيف أخذ يقذف بفقاقيع بعيدًا قدر المستطاع حتى أحصل أنا على هذا الطبق أمامى وبه مرق البرغل والكاكاو والسكر.

وكانت أمى تكدس لى البرغل فى شكل جبل بالطبق وقد نثرت عليه الكثير من بودرة الكاكاو

الداكنة - ليس مسموحًا بالسعال الآن - ثم كانت تضغط أمام عينى مباشرة قمة هذا الجبل لتصبح واديًا منخفضًا وتملؤها بقطع صغيرة من الزبد. كان هذا هو أجمل شىء يحدث قبل الطعام، وسرعان ما كانت تجرى من تلك البركة الذهبية جداول لتهبط المنحدرات، حتى يتغلغل بعضها إلى أسفل، فى حين تسرب البعض الآخر ليخلف صبغة شبه سوداء تراها فى شكل خط رفيع مبلل داخل الحصى.. يالها من رائحة طيبة تبعث على السعادة تلك التى تتصاعد من الشيكولاتة الذائبة التى يكسوها الزبد الساخن، كان هناك شىء خامل بداخلها، تشبع مسبوق، شىء ثابت وثقيل، تنظر إلىَّ أمى نظرة تشجيع، حين تشعر بصغر حجمى خلف تلك العصيدة الكبيرة والسميكة التى ازدادت انتفاخاً من خلال تلك الرائحة الطيبة، ثم أومأت أمى مرة أخرى بود وبشىء من نفاد الصبر حتى أننى بدأت بأكل أسفل الطبق حيث تبنى دمعة من زبدة الشيكولاتة السوداء كتلة ما، ثم أخذت أنخز بطرف الملعقة بعض الشىء وقسمت وجبتى المفضلة إلى أكوام صغيرة حتى يرى من يراقبنى كم كنت أتناول منها بشهية وعرفان حيث إننى فى الواقع كنت شديدة الوهن أمام القوة العارمة للبرغل الذى لم يمنحنى شيئًا من قوته، بل أطبق على وحاصرنى وضيق على بين حافة الطبق والحائط، لم تغضب أمى أبداً، فقد كانت تعرف أننى لن أتمكن من التهام تلك الكمية عن آخرها لذا كانت تتركنى أجلس خلفها فى

هدوء حتى أفلت الملعقة من يدى إذ يبدو أنها حدست بأن كم البـــرغل الذى لا يكاد يكون نقص منه شىء يمثل اتهاماً بالنسبة لى. فأزاحته ببساطة من فوق المائدة ولكن ذلك لم يساعد كثيراً فقد أصبح المطبخ من حولى هو الدنيا، فلم يكن بإمكانى التفكير فى أبعد من ذلك. أصبح بنى اللون وضخماً حتى تكدس كل شىء بثقله الفظيع إلى أسفل دون أن يتـوقف. ورأيت من خلال النافذة شجرة حياة كبيرة الحجم فى حـين كانت أمى تجلس على أحـد الكراسى لتـرفى الملابس كما لو كانت قد نسيتنى، وإذا بشىء يدفعنى ويضغط على كتفى، لم أتمكن من مقاومته حيث إننى لم يكن ينبغى أن أطيل جلستى فى مكان واحد، بل أن أجلس فى أكثر أركان المطبخ ظلمة، وأنا متكورة داخل نفسى، لم تلحظ شجرة الحياة أو أمى أن كل شىء قد تحـول ولكن مـاذا؟ لم يكن هناك من يواسينى فقد انزلقت فى النهاية من فوق الأريكة الخشبية لألتصق بالستارة وحدى، ولففت رأسى بداخلها وأخذت أبكى فى قماش الكتان الخشن الملمس.

لم يكن هناك ما يمكن عمله أمام ذلك الغمـوض والثقل، إلا أننى خطر ببالى أمر متأخر بعض الشىء، ولا سيما أننى يجب أن أقول جملة، ولكننى كان ينبغى أن أدرك شيئاً، واندهشت حين عبرت عنه فبدأت بالكلام لأمنح نفسى والعـالم كله دون أن يطلب منى أحد معلومة فقلت: «أنا حزينة!» أومأت أمى، أعتقد أنها لم تكن تشعر بالتعاطف معى بل إنها كانت تميل

إلى موافقتى الرأى، لعلها كانت إيماءة مديح لأننى اكتشفت ذلك، ثم تابعت أمى رفى الثياب، وتركتنى فى هدوئى وسكينتى. ارتفع كل شىء من على الأرض مجدداً وظللت أنا متوارية داخل قماش الستارة حتى خفتت حدة الحزن لدرجة أننى لم أعد أتذكره.

وذات مرة كنا نجلس على بحيرة بجوار المنزل، عند مرسى قارب، أنا وابن عمى «مارتن» وبعض أطفال من الجيران، وكنا عندما نمرر أصابعنا فوق خشب الدرابزين، كان يتشقق بسهولة فننفض سلخات الخشب المتساقطة من على جلدنا، وكنا نلقى الحجارة فى الماء، بينما يتجمع الصبية الكبار فى خطوط سير مسطحة حتى يتمكنوا من القفز، وأنا شخصياً كنت أعمل على الإيقاع بها رأسياً إلى أسفل حتى أستمع إلى صوت ارتطامها بالماء ولكى أرى طرطشة الماء المتصاعدة حولنا فى كل مكان، وقد وضعت الحجارة بعد أن صنفتها بحسب الحجم حتى تحدث أصوات فرقعة تتصاعد تدريجياً، وكنا نستند بقدر المستطاع وبقدر ما نجرؤ إلى سطح الماء تاركين أحد منا للدعم وراء ظهورنا يتمكن أحدنا من الاحتفاظ بالقمصان والفساتين إذا ما انطوى الأمر على خطر، أو أننا كنا نستند بالكوع إلى الركبة ونحن مصطفون إلى جانب بعضنا البعض لنتربص بالسمك القراص، الذى كان ينطلق أحياناً فى أسراب مرتفعا عن قاع البحيرة، وعندئذ كنا نسحب بسرعة أقدامنا الحافية خارج الماء حتى لا يلامسوننا. كانت الشمس ساطعة ونحن

نجلس هناك وما أن يظهر أطفال غرباء وهم يستقلون قارباً، كنا نشرع فى الصراخ والوعيد والتهديد.

وكان بعضنا يحمل عصا يلوح بها فى الهواء، وكنا نصب عليهم سيلا من ألفاظ السباب التى كانت تخطر بأذهاننا فى لحظتها، كما كنا نحفظ كل ما يوجهه لنا الصبية والفتيات من إهانات حتى نستخدمها فى مناسبة أخرى. وعندما كانت جعبتنا تخلو من الأفكار كنا نهوى إلى الخلف فوق المقاعد الخشبية الساخنة محاولين التحديق فى ضوء الشمس الصارخ لأطول مدة ممكنة ونحن مطبقون أهدابنا دون أن ندير وجوهنا، وكنت أستمع إلى صوت تلاطم المياه مع الدعامات الخشبية أسفل المكان الذى أجلس فيه فى هدوء شديد، ليبدو الأمر كما لو كان مرسى القارب سوف ينطلق عائماً بنا، ليتأرجح وهو يحملنا ونحن يغالبنا النعاس. يجب أن تكون الأمواج الرقيقة أسفل اللوح الخشبى مباشرة الآن؛ حيث كانت تهدهدنى صعوداً وهبوطاً خارج البحيرة التى يلفها الضباب، ورغم أننى أبقيت أهدابى مغلقة تماماً إلا أننى كنت أرى قاع البحيرة المنير، كنت أرى الأحجار المتلألأة والأعشاب التى تشابكت وأخذت تتلوى كما لو كانت داخل رياح شديدة الحرص، أما المياه نفسها فقد كانت صافية وشفافة من تحتى واكتست بالزرقة الخالصة عن بعد، فسبحنا دون أن نتحرك وقوسنا أجسامنا مثل الهضاب الصغيرة ثم قعرناها مثل الوديان فى الضوء، فى الهواء وفى المياه والزرقة، فى

الدفء ورائحة الخشب العطرة وكانت أجمل الأشياء تتمثل فى مشابك الشمس، أو فتحات شبكة الشمس العاصفة فى الماء والمضيئة، تلك الفتحات المتقلبة والمستمرة، وهى مائلة ومعتدلة، ضيقة وواسعة، مقوسة ومقعرة، وهى بمثابة الوجه الآخر والمنبسط للشمس القاسية والراسخة أعلى والتى لا يمكن النظر إليها بسهولة، استلقينا إلى جانب بعضنا البعض مثل ألواح الخشب، أشبه بقارب طويل وكل منا لوح سميك فى هذا القارب، وأخذنا نسبح بلا تعب بأجسامنا الدافئة عبر شبكة الشمس المفرودة بشىء من الاسترخاء والمترنحة صعوداً وهبوطاً. وذات مرة فتحت عينىَّ فى النهاية من تلقاء نفسى، حيث كان أحدهم يوخزنى دائماً ورغم أننى لم أتمكن من التعرف على أى شىء حيث أعمت أشعة الشمس المفاجئة عينىَّ، ولكنى أحسست أننى كنت آخر من تبقى هناك.

كل من كانوا على يسارى وعلى يمينى تركوا أماكنهم، أصبح كل شىء حولى خاوياً بطول الممشى فقد اختفوا دون أن يتركوا أثرًا، كما لو أنهم تعرضوا للسحر فجأة، فقد كانوا لتوهم إلى جانبى وإذا بشىء قد ابتلعهم وفصلهم عنى، أم أنهم تسللوا هاربين أو جروا بعيداً. لم ألحظ أى شىء وكنت مستلقيةً فى عالم آخر دون حراك، عالم ضخم وفارغ.. خائن، وشديد الكبر بالنسبة لى البحيرة والسماء. .. ياله من تغير شديد أشبه بطرقعة سوط أو إطلاق صفير كان

يجب أن تكون حريصاً للغاية وتحسب حساب هذه الأمور من الآن فصاعداً فالعالم يمكنه أن يعبث ويغير اتجاهه مثل العاصفة لا يمكن أن تعرف متى تغير اتجاهها فى لمح البصر.

عندما سافرت لأول مرة مع أمى إلى الخالة «شارلوته»، أعارنى ابن عمى مارتن كتاباً لأتصفحه أثناء الرحلة. وكان الكتاب يضم أكثر الروايات المحببة إليه واسمها «جينوفيفا» وكان كثيرًا ما يحكى لى عنها، ورغم أننى كنت آنذاك لا أعرف القراءة بعد إلا أن الصور كانت جميلة، ولا سيما تلك التى ترى فيها تلك الأميرة فى الحديقة الفخمة وهى سعيدة ثم بعد أن يتسبب الفقر فى نحافتها حتى تعود إلى زهوتها وفخامة قصرها مرة أخرى فى النهاية. ولم أكتف بالنظر إلى مشاهد الغابة أثناء رحلة القطار فحسب، بل طوال فترة إقامتى هناك. وكنت فى كل مرة أتجول بعينىّ فى بطء شديد عند حواف الصورة وأتجنب وسطها؛ لأننى كنت أرغب فى الاحتفاظ بهذا المنظر حتى النهاية. وكنت أبدأ بالزاوية اليسرى أسفل الصورة حيث مجموعة نباتات لها أوراق خماسية الأصابع قد سمقت إلى أعلى الزهرة الخيمية الطويلة، وسحلية قد مدت رأسها لتتمكن من النظر حتى تبلغ الأطراف، وكنت أجلس آنذاك فى المطبخ على كرسى عال فى حين أخذت كلتا السيدتين تتجاذبان أطراف الحديث وأنا أضغط بكفى على أذنىَّ حتى لا يزعجنى أحد، وأحياناً كنت أضطر لرفع

الكتاب عالياً لأنهما يرغبان فى مسح الطاولة أو وضع أدوات الطعام عليها أو يحتاجان المكان لتنظيف الخضراوات ولم أنجح أبداً فى تخطى رؤية قدم "جينوفيفا" العارية والتى مدتها بعيداً حتى كادت تلامس السحلية المتبجحة، كما كنت أرغب دائماً ولكنى كنت أبلغ بنظرى كاحل قدمها، أو حتى ذيل تنورتها، وكان هناك حيوان آخر يلامس كعبها بأذنه الطويلة، وهو الأرنب، الذى كان يسقط عليه ظل بينما كان يقف عنده أرنب آخر فى ضوء الشمس الساطعة وقد انتصب مقلداً الإنسان، وعندما كانت الحرارة تزداد فى المطبخ بسبب الطهو والتحمير كانت السيدتان تدفعان الباب المؤدى إلى الحديقة ليدخل الهواء البارد فيصطدم بركبتى بشكل مزعج حتى أننى كنت أنكفئ على الكتاب بشدة حتى لا ينتزع منى، حيث كان هناك بين الأحجار، جدول ماء يجرى مروراً بأعشاب ملتوية بعد أن خرج من شق مظلم، أما فى أقصى الزاوية اليمنى فقد برزت من التربة بعض جذور النباتات السميكة والناتئة والمبعثرة، وكانت تلك تتبع شجرة بلوط قسمتها حافة الصورة إلى نصفين، وقد خرج منها فرع عشوائى تزينه أوراقه المعروفة ليعتلى الطريق وإلى جانب الشجرة كان هناك طريق مظلم يؤدى إلى أعماق الغابة، أما على الفرع الأول من الشجرة فقد جلس سنجاب يمسك بثمرة بين حوافره ورغم أن الصورة كلها كانت باللونين الأسود والأبيض إلا أنها كانت تتلون بمجرد أن أطالعها، فكنت أرى هنا

اللونين الأخضر الصارخ والبنى وهما يضيئان الأرض وأرى كذلك لمعة ذيل السنجاب بل إننى كنت أسمع صوت زوجين من العصافير وأشم رائحتهما بل صادفتهما واقفين على فرع شجرة.. تحديداً على منتصف الصورة، الذى كنت أحتفظ به للنهاية، وعندما كنت أعوق السيدتين عن أعمالهما للغاية، فقد كانتا ترفعان الكرسى عالياً بكل بساطة وتضعانه فى مكان آخر، حتى أننى كنت أضطر إلى إبقاء الكتاب عالياً أو أضعه فوق ركبتى، وكانتا تمسكاننى بأياد مبتلة وتعرضان علىَّ من حين لآخر قضمة مما تصنعانه لأجربها من باب اللطف، تلك التى كنت أرفضها بإصرار فى كل مرة. وكانت هناك غزالة ذات سيقان رشيقة تقترب بحذر لتخطو وسط بقعة جرداء غير مستوية من الغابة، أسفل أفرع شجرة التنوب فى أقصى ركن أعلى يسار الصورة حيث تتأرجح شتى أنواع الطيور، وكان الجزء الخلفى من الغزالة يختفى وراء جذع شجرة التنوب فى حين كانت أزهار الغابة الصغيرة تنمو برقة حول حوافرها وعندما كنت أبلغ ببصرى هذه النقطة، كنت أتمكن من متابعة عينيها اللتين تلتفتان صوب "جينوفيفا" التى وقفت ترفع بذارع واحدة طفلها العارى، وتضعه على صدرها وتستند بالذراع الأخرى إلى منحدر حفرة مناسبة لها تماماً، وهى تجلس بين شجرة بلوط وشجرة تنوب أما ساقها الثانية فكانت مختفية تحت تنورتها، التى يمكن أن تكون بنطالا قصته واسعة، كانت تجلس وقد بدت

على وجهها ملامح الحزن والقلق، ولكنها كانت تستعذب الوحدة للغاية وهى بين النباتات والحيوانات وقد انفصلت عن العالم بأكمله، كان شعرها يغطى الجزء العلوى من جسدها ليصل حتى ركبتى الرضيع، دفعت الخالة "شارلوته" الكرسى الذى أجلس عليه بفرشاة البلاط، حتى إن الكتاب انطبق ليغلق وأبقيت أنا ساقىَّ عاليتين فقد كانتا تنظفان وتمسحان فى هذا المكان ثم جلست على كرسى آخر حتى أتمكن من مشاهدة "جينوفيفا" وهى غارقة فى حزنها وأفكر معها فى قدرها وكيف آل بها الأمر إلى هذا الحظ العاثر وتلك التعاسة، وأفكر كذلك فى كيفية إنقاذها لنفسها، ولكن سرعان ما طالتنى الخالة بعطر ماء الغسيل وبالفرشاة وفوطة المسح والمريلة ومسحوق الغسيل ولم أكن أنظر إليها؛ حيث كنت أحدق دون أن ألتفت لأحد فى سكينة الغابة الخضراء بما تحويه من تربة ذات بقع مزروعة وتلك السيدة الجميلة المكروبة الجالسة فى منتصف الصورة، فى حين ظلت الخالة من ناحية وأمى من ناحية أخرى تعدان مكان البلاط وتمطرانه بالماء وهما تتنهدان وتسرعان، كان البلاط بأكمله مبتلا تماماً، وكان الماء يمتد بين الحجرات، وكانت كلتا السيدتين تتحركان بسرعة شديدة حتى أن الرياح كانت تنشأ حيثما تتحركان وكل واحدة منهما ترتدى مريلة، أما أنا فقد انكمشت فوق كرسى عال وأبقيت أمامى صورة الغابة الساكنة المحيطة بجينوفيفا وقد انطلقت منها أصوات الطيور المغردة وانبعثت منها روائح عطرة.

أحياناً كانوا يعطوننى ملزمة من ورق مقوى وقد طبع فى منتصفها فتاة وبعض الفساتين والسراويل والبلوفرات والبلوزات والقبعات والحقائب والمظلات، وإذا ما قصصت كل هذا يصبح عندك خزانة ملابس كبيرة لما يطلق عليه الدمية، التى تبدل ملابسها، وكنت أمتلك كذلك ثلاث دمى حقيقية وكنت أضعها على الوسادة أمامى لأنظر إليها طويلاً ولكنى نادراً ما كنت ألهو بها فقد كانت حقيقية للغاية بالنسبة لى حتى ألبسها ملابسها أو أحسها وأمشط لها شعرها أو أثقل كاهلها بهذا كله، أما الدمية المسطحة التى نبدل لها ملابسها فلم يكن لها إرادة أو حقوق ما لم أكن بارعة للغاية فى استخدام المقص ولكننى بمجرد الانتهاء من إعداد العرائس والفساتين كنت أنشغل ساعات طويلة بها، فكنت ألعب بها حتى أضنيها، حيث إنها صنعت لكى تعلق من قطع الملابس المحيطة بها حتى يقضى عليها بزوجين من العصا الذى لا ينثنى على الأكتاف فى حين أن أشد ما كان يعجبنى لم يكن يتمثل فى التنوع الجذاب للتنورات والقمصان وما إلى ذلك بل فى أن التغير كان يتم بسرعة شديدة، وكانت نتيجته ممتازة باستمرار حتى تلك الفيونكة التى توحى بأنها طبيعية للغاية وقد اعتلتها ثنية ناتجة عن حركة الريح وكنت بقبضة واحدة أبدل ذلك الجسم المسطح إلى عروس صغيرة وسمينة ولم يكن علىَّ سوى أن أقلب حمالات الأكتاف لتتحول العروسة إلى لاعبة تنس أو إلى تلميذة نشيطة دائمة الابتسام للجميع

بشكل مناسب تماماً فى كل مــرة، لم يكن هناك زر واحد ناقص أو سوستة تركت مفتوحة عن غير قصد، أو ياقة متزحزحة عن مكانها وفى كل مرة وبلا جهد كان ينشأ غلاف جديد لتلك الشخصية المصنوعة من الورق، التى كنت أضعها فى غرفة العرائس متكئة على الأرائك أو على الطاولة أو مستندة إلى الحائط كما كان كل شىء يتبدل معها: القصرية، وركن الجلوس الأحمر اللون، وموقد العرائس إلا أننى كنت أفضل النظر إلى الصور الفوتوغرافية للوحات القديمة التى تصور «مريم العذراء» وهى تركع فى سكون داخل حجرات مرتبة أمام محراب أو وهى تجلس على كرسى فخم مرتدية معطفًا جميلاً ومعها طفلها، كم كانت جميلة بين أثاث تلك الحجرات المرتبة التى لا تشوبها شائبة، حيث كان كل شىء يستقر فى موضعه تماماً، كما لو كانت حياتها بأكملها تقتصر على الجلوس برقة هكذا ويفوح من شعرها العطر وقد ارتدت ثياباً غالية، وكما تحيط بها الزهور الجميلة فى الأصص وتمتد مزهريات الليلك والأكاسيا على الأرض، تلك الزهور النضرة التى لا تذبل، يوماً بعد يوم، وفى الخلفية غطاء السرير المشغول والثقيل وقد وضعت عليه وسادتان ذهبيتان لامعتان يعتليهما رف مزود بالأطباق والكتب والزجاجات التى تراكمت بخفة، كما كانت هناك شمعة لليل وقد بدا عليها أنها مستخدمة بالفعل وهى داخل حامل بسيط. تلك الأشياء هى التى كنت أنظر إليها بشىء من التدقيق

لأنها كانت تعطى انطباعاً بأنها تكاد تكون حقيقية، وقد أمسكت بها «مريم» ووضعتها هناك ثم أنزلتها وهى تشب على أطراف أصابعها وتشرئب بعنقها وهى بالطبع لم تكن لتقوم بأعمال المسح وإزالة الأتربة ولكن لعلها كانت ستسقى الأزهار وتفتح كتاباً وتلمع طبقاً معدنياً بعض الشيء وتمسح الشعر المموج، وكثيرًا ما كنت أتخيلها دمية صغيرة مقدسة فى مسكنها، كما كانت كافة أفعالها مقدسة، سواء كانت ترشف من فنجان أو تنثر الحب للطير، أو ترضع الطفل من صدرها، أو تقلب صفحة من كتاب الصلوات، أو تستلقى فى الفراش المهيب كان كل شيء تفعله جميلاً، أياً كان وكنت أجعلها تسير بخفيها الخضر فوق الأرض اللامعة، فقط بضع خطوات ثم تلقى نظرة على الشارع من النافذة، كما كنت أدعها تدير ساعة رملية بيديها الرقيقتين ثم كان كل شيء يتجمد فى مكانه مرة أخرى.

مريم فوق العرش وحولها هالة من النور، وكرانيش غطاء السرير، والنباتات المستديرة من دلوها، وعصفور ملون يقف على عتبة الباب لحظة خالدة، لا يعكر صفوها شيء، تزداد صفاء باستمرار، كم كنت أتمنى لنفسى حياة مثل تلك، كم كنت أتمنى أن أعيش فى هذه الغرفة دائمة السكينة والتى يسودها الكمال ولو للحظة وجيزة، وأنا أنعم بقوام جميل وشعر مموج طويل وأرتدى فستانًا مخمليًا. وكنت أقضى نصف اليوم أحياناً ودون أن يلحظ أحد وأنا أحاكى مريم

حتى فى بيتنا ذى العيوب والنواقص وأنا أسير خطوات ضيقة ومحسوبة بل إننى كنت آخذ طبقاً من خزانة المطبخ ثم أضعه مكانه مرة أخرى مثل مريم وكنت أنثر بضع حبات الملح على حافة النافذة بحركة رقيقة، كنت ألملم تنورتى وأفتح كتاباً به ثنايا فى حافته أو بقع أو حتى كتاب طبخ لا يهم، فقد كنت أضعه قليلاً أمام وجهى برشاقة ولكن بعناء، حيث كنت أحب ذلك مادمت أستطيع تحمله ثم كنت أحتسى بعض الماء من كأس، فى رشفات قليلة وأستلقى مساءً شبه منتصبة وبشىء من التكلف فى الفراش، وقد فردت ساقىَّ حتى الأصابع ووضعت يدى اليمنى تحت وجهى مثل القديسة «أرسولا» فى لوحة أخرى.

فى الردهة كانت من تغادر الفصل أثناء الحصة لتقوم بدور المرسال مثلاً لإبلاغ رسالة ما أو تستعير طباشيرًا ملونًا، كان يمكنها أن تبدل المعاطف المعلقة فى الخزانة حتى يتعين على أصحابها أن يبحثوا عنها فوق الشماعات عند بداية الفسحة؛ حيث كانت المعاطف تعلق هناك وليس عليك سوى أن تمد يديك وتبدلها دون أن تعرف أو حتى تهتم بأن تعرف من الذى سيطوله الأمر ولو مررت بهم كان الأمر يبدو كما لو كان اقتراحًا بالرقاد فى الهواء. وما أن تعلمت القراءة حتى داومت على استعارة الكتب بانتظام من مكتبة المدرسة، كتب سميكة مطبوعة بحروف كبيرة وبها رسومات لحيوانات لم يكن مسموح باستعارتها واعادتها سوى وهى مغلقة وكان يصعب علىَّ دائماً

إعادة كتاب أحببته؛ لأنه يحوى سناجب أو عمالقة وأميرات القلاع، كما لو كان لا يخصنى وكنا قد تدربنا فى حصة على كيفية فتح الكتب وتصفحها، ووضع علامات القراءة داخلها، وما يجب أن نتفادى حدوثه، وقد كتبنا كل هذا فى قائمة على السبورة، ونقلناه فى كراساتنا وبحثنا فى البيت عن خمسة أفعال جديدة تستحق العقاب لليوم التالى إلا أن الكتاب عندما يصبح أمامى فى وقت ما بعد الظهيرة وقد وضعته على طاولة المطبخ بين كوعى المستندين عليه، كان يتضح لى أننى أستطيع أن أفعل به ما يحلو لى طالما أننى لا أترك فيه آثاراً واضحة، فقد كنت دائماً أتعامل مع الكتب جيداً، لأن والدىّ كانا يحثاننى على ذلك أيضاً، ثم كنت أدفع الكتاب فجأة وبشىء من المصادفة ولكن بعد أن ألحظ الصفحة المفتوحة، ليقع الكتاب على الأرض محدثاً ضجة، وهو أمر مفروغ منه، ثم أرفع الكتاب وأقلب صفحاته بحرص كما تعلمت وتدربت، وكنا أحياناً ما نمر فى أثناء لعبنا ولهونا عند وقت السحر أو غروب الشمس على نوافذ منخفضة ومفتوحة. ونرى خلفها فتحات الغرف المظلمة، وهى ليست مغلقة بحائط أو لوح زجاجى أو ستائر، بل مفتوحة بلا رادع أمام أعيننا مما يمثل إغراء بالتسلل إليها وإلقاء حجر صغير أو ورقة مطوية فى تلك العتمة المكشوفة بالغرفة ثم الاختفاء خلف أقرب زاوية، وكانت أجراس الأبواب تشكل أكبر تحد أمامنا ونحن عائدون فى مجموعات صغيرة من

المدرسة حيث كانت تلك الأزرار الصغيرة تبرز فى صف منتظم تحت بعضها البعض خارج الحائط، من ذا الذى يقاوم إغراء الضغط عليها كلها بيد منبسطة فى آن واحد؟ وحتى ولو لم يحدث شئ بعد ذلك فقد كان ذلك وحده كفيلاً بإغوائى، ولكن الأمر كان مثيرًا بحيث إنه لا ينعم أى من السكان بفرصة فى أن يضاهينا فى سرعة الحركة، أو أن ينجح فى اكتشاف طرف معاطفنا، فقد كنا نفلت دون عقاب بعد أن نتسبب بحركة واحدة فى إزعاج البيت بأكمله، ولاسيما بيت ملئ بالبالغين، الذين تدب الحياة فى طوابقهم بسبب أزرار سوداء صغيرة متاحة للجميع لكى يلمسوها، وهى على مرمى العين وفى متناول اليد، لم يرنى أحد فقد كان ذلك ممنوعاً، بل لم يتمكن أحد من الإيقاع بى، أو بنا ونحن نفعل ذلك، لذا كان يجب أن يحدث. فالفرصة السانحة هى التى كانت تتطلب ذلك. ولكن الله كان يرى ذلك، فالله يرى دائماً كل شئ وبرغم ذلك كان الأمر حتميًا، فإنه عندما لم يكن أحد يرى ذلك كان يتمكن من مشاهدتنا جيداً، كما لو كنا بفعلتنا هذه نصبح على مرمى بصره، وكنت أشعر به، كيف يرى كل شئ، كنت أعرف ذلك. كما كان هناك صندوق بريد فى موضع ما دون رقابة؛ حيث كان يتدلى هناك بفتحتيه اللتين ينبغى ألا يدس فيهما شئ سوى الخطابات، وبالطبع لم يزج الناس فيها سوى الخطابات والكروت. وكان يتعين علىَّ ذات مرة أن أنفذ ما فكرت فيه كثيراً فيما

يخص الفتحتين اللتين كان يستطيع أى شخص أن يفتحهم ويطويهم، ولا سيما تحت السماء التى سبق ونظرت صوبها قبل ذلك بفترة وجيزة فقد ضغطت بعض ردفات الجليد اللزجة وزججت بها داخل صندوق البريد، لم أرغب فى الإضرار بأحد، وكان من الممكن أيضاً ولو مرة واحدة أن ألقى بتلك القذارة داخل الفتحة، التى لم تمانع بدورها. مرة أخرى كان الله يراقبنى وهو الأمر الذى لم يمنعنى، بل إننى فكرت تلك اللحظة فى مراقبته لى ولكننى لم أتراجع أو التفت ورائى فقد كان خفياً أو غير مرئى وهو ما اعتبرته أنا فى تلك اللحظات نوعًا من مكامن الضعف ولكنه عندما كان يغض البصر كنت أشعر بذلك على الفور، حيث كانت المعاطف والكتب وأجراس الأبواب وصناديق البريد وأننا نتعلق هناك ونقف مهملين دون مطالبات أو محرمات أو إغراءات، فلم يكن هناك شىء مثير بينى وبين الأشياء.

كانت ظهيرة أحد الأيام شديدة السكون وكنت أجلس فى المطبخ، لا يهم فى أى فصل من فصول السنة، فقد كنت أستطيع أن أنفذ ببصرى لأرى داخل الحديقة من مكانى، ولكن الصمت والسكون كانا يسودان فى الداخل والخارج على حد سواء، كل شىء كان فى حاله، لا هو بثقيل ولا بخفيف، وقد انطفأ كل البريق وانكشطت كل أشكال اللمعة من الأثاث ومن الأشجار والبلاط بل ومن الأعشاب الكثيفة، كانت رائحة الكرنب الأبيض والكمون تعم المكان وهو الطعام

الذى كنا قد تناولناه لتونا، كانت أمى تنام إلى جانبى لذا لم أتمكن من مواجهة السكون ببعض الأصوات فاضطرت للجلوس والنظر إلى حجر الغسيل الأسود، وإلى الستارة التى كنت ألف نفسى فيها أحياناً فيما مضى، والآن ورغم أننى ما زالت صغيرة إلا أننى كبرت على ذلك، كما أننى لم أكن حزينة وكذلك لم أكن أكثر سعادة. وأخذت أشم أبخرة الكرنب الأبيض التى انتشرت ببطء داخل المطبخ الساكن والرطب والمقبض، ساكن ومقبض شأنه شأن الحديقة الكائنة خلف زجاج النافذة، بل شأن العالم من حولى، حول المطبخ والبيت وحول المدينة بأكملها، لذا لم يكن من المجدى أن أستيقظ، كان يتعين علىَّ أن أتحمل ذلك الوضع، فأحضرت علبة صفيح صغيرة من درج الطاولة، وأخذت أعد العملات الصغيرة داخلها، ثم شرعت فى التخيل لفترة وجيزة كيف يمكننى بعد ساعة قيلولة الظهيرة مقابل هذا المال شراء مائة جرام من علب الكريمة، وإذا حالفنى الحظ سأحصل على الكثير من حشو المشمس الأصفر وقليل من عجين النعناع الأبيض، ولكن كل ذلك سيأتى فيما بعد ولن يفيدنى الآن بشىء، فأزحت المال بعيداً وأعدته مكانه، وأخذت أتجول ببصرى فى المطبخ وأنا مستاءة، أستمع إلى صوت المنبه وهو يدق لن أتمكن من نداء أمى إلا بعد مرور عشرين دقيقة، فتذكرت كتابًا كنت قد دسسته فى حقيبة المدرسة ففتحته، بل إننى تركته يقفز وحده إلى موضع فيه صورة لبومة وقرأت فيه:

"أجنحة طويلة مدببة تنم دائماً عن طائر فائق السرعة، وهو ما نقرؤه عن طيور السنونو أو طائر الشراع وصياديها، أى الصقور ما الذى تغير فى هذه اللحظة؟ فأعدت قراءة الجملة التى لم أفهمها على الفور «طائر فائق السرعة» ، وفكرت، «طائر السنونو» الذى رأيته فجأة عالياً فى الهواء، مثل أمسيات الصيف، «صياد»، «صقر» لمعت كلمة «صقر» وبرزت من الكتاب، وأخذت تلتمع فى مواجهتى مباشرة ببريق حاد وشديد، مضيئة للغاية، وحادة لم أكن قد رأيت صقراً فى حياتى قط، ولكنه الآن مر فى محاولة للقنص عبر السماء لينقض بسرعة على طيور السنونو، التى ظلت تعلو وتنخفض فى الطيران وتسرع فى الطيران للأمام وهى تتوجه صوب الصقر، الذى ظل يرافقهم ذلك الصياد الذى ينتمى إليهم والمخصص لهم، والذى هم مقدرون له، وهو ملكهم، كما أن طيور السنونو هى ملك الصقر.

وفكرت كذلك فى الكلمات : «شجاعة» ... «جرأة»، .. «سريع مثل السهم» ورددتها بصوت عالٍ داخل المطبخ المقبض المملوء برائحة الكرنب الأبيض، فى ذلك اليوم الأصم خلف زجاج النافذة، كانت هناك أصوات صلصلة فى الهواء، يالها من تقوية ثم جلست منتصبة على الطاولة وقد استيقظ الموقد المتجهم والستائر والأرضية الصلبة والكاوتشوك ذو الشقوق الذى تقوست أسفله الألواح الخشبية، فانسلت الكلمات والطيور فائقة السرعة واندفعت عبر الغرفة

ثم خرجت بسهولة من الزجاج لتعود أدراجها وقد اتخذت شكل العقدة، أو ألسنة لهب طويلة ورفيعة، فراحت ولمستنا نحن، الكرسى الأريكة.. وحجر الغسيل الأسود والعشب الكثيف وأنا.

(من رواية ريتا مونستر، Rita Münster ـ 1993)

(٢)

من التعامل مع «الأدب» المتوحش

الترقى ـ نصوص مبكرة

التقرير لصالح العشب الأخضر

تمنيت فى البداية أن أكون قد

رأيت العشب أولاً ولم أعرف اسمه

ولم أعرف تقسيم الوجه إلى أعين

وأنف وفم، ولا الكلمات:

ساخن، بارد، أملس، خشن،

نعم لقد كنت متأكدة من أن مساعدتهم

كانت بحسن نية، ولكننى اصطدمت بالعلم

الذى اخترعه الناس الذين سبقونا، حتى

أنه نشأ لأننى تعرفت عليه.

التهمت نفسى تماماً ولم أتمكن من صنع واحدة

جديدة

ولكن الآن، وحينما أرى الثغرات أحياناً،

تلك التى تنبعث منها ظلمة موحشة،

فإننى أرتعد خوفاً

وأشعر بالعرفان حيالهم.

(فى: ثورة المحاكاة Die Revolution der Nachahmung- 1975)

تبين أن الاعتقاد بأن الواقع يستقر ويترسخ فى رءوسنا ببراءة وفى شكل شذرات، ليس إلا وهمًا فرءوسنا لا تتحمله هكذا على الإطلاق حيث إن العقل مدرب على خلق وضوح لنفسه بسرعة شديدة على قدر الإمكان، حتى وإن كانت مجرد أخطاء جلية وعامة، استطاعت أن تتكاثر بشدة فى الظل دون أن يلحظ أحد. وذلك من خلال طرد سلاسل الأحداث المتكاملة والمقنعة من الأدب، إن تفكيرنا تحول آلياً إلى استخدام النماذج وأنماط مجرى الأحداث وإلى نوع غير محكوم من فن قراءة العلامات، بل إلى الإخراج المسرحى ومنطق الأدب «المتوحش» الذى يسوق واقعًا سابق التجهيز بسرعة البرق.. واقع لا نرغب فى تحمله ولا نقوى على تحمله فى حالته الأصلية، لكنه هكذا يمر بشكل تُخشى عواقبه، يجب إذًا على الأدب أن يتعامل مع تركيبة هذه الحقيقة.

(فى: ثورة المحاكاة ـ Die Revolution der Nachahmung- 1975)

يوم لم يمر هباء فى النهاية

بادئ ذى بدء، فى الصباح الباكر شاهدت شيئاً ملوناً يجرى عبر مسطح أخضر، كان يتوقف ساكناً أحياناً لتتضح الألوان منفصلة عن بعضها البعض، أصفر.. أحمر.. أزرق، ثم تختلط ببعضها، ويمكنك بالكاد أن تتعرف عليها لتصبح بعد فترة أكثر وضوحاً، حتى تتكون مساحات فردية من الألوان، التى لا تعاود الاختلاط، إنها كرة تتدحرج عبر المرعى بخفة، كرة ماء خفيفة للغاية حتى أن الريح تقلبها، أم أنها دائرة تقبع على الحشائش ويراقبها أحد الأشخاص، الذى يحرك رأسه الآن بسرعة هنا وهناك.

اقتربت نقطة حمراء سميكة من البالونة، وما أن دنت منها ووصلت إليها دون أن يحول بينهما شىء إذا بالبالونة تقفز بعيداً، فتتدحرج خلفها النقطة.. الدائرة.. الجسم، ولكن ببطء أكثر من النقطة الأولى، أو الدائرة، أو الجسم لتصل إليها فقط؛ لأن تلك البالونة الفارة غيرت من سرعتها وبقيت فى مكانها

فى النهاية، فقلت فى نفسى إنه طفل، طفل دفع الكرة بعيداً والتقطها ثانيةً، أم بالونة حمراء تتبع بدفع الرياح طفلاً يرتدى بنطالا ملونًا حتى يقع، تركت الكرة المرعى وارتفعت عالياً بعض الشىء، ثم لم تعد عالية، ثم ازدادت علواً، ثم انخفضت وازدادت انخفاضاً، لم تعد فى مكانها بل حطت مجدداً، على الحشائش. قفزت الكرة عالياً وسقطت مرة أخرى، أم هو شخص رفع رأسه وأخفضها بنشاط وحيوية تجاه الكرة. رأيت الكرة وهى تتزايد وتتكاثر. كانت الكرات الصغيرة ترقد ملتصقة ببعضها البعض وتتدحرج قليلاً، فقلت إنها كرات كثيرة تلك التى ألقيت الآن فى المرعى، فقد دفعتها الرياح برفق أو شخص يرتدى ملابس خضراء اللون، أم أن ورقة الشجر التى لا تتبع رؤية واضحة تمزق الكرة الكبيرة بسرعة وبشكل غير منتظم، حيث إن الورقة ترتج بشدة.

التفت إلى شىء آخر

كان الهواء يعم المكان، وكنت أستطيع أن أرى من خلاله، ولكننى لم أشعر به على الإطلاق إلا أننى أيقنت أنه كان يملأ الفراغات بين الأشياء، وكان يتكيف معها بمرونة حتى لا يعوق أحداً وبدرجة لا تجعل أحد يلحظه، ولم يكن يفتضح أمره إلا عندما أدير يدى بسرعة أمام وجهى، فكان يتفاعل ببطء ولا يرافق يدى بسرعة كافية، حيث كان بإمكانى خداعه وكشفه عندما يحاول تعويض ما فاته، كنت أشعر به قريبًا من بشرتى وأسمع صوت فحيحه.

والآن وما أن هدأت يداى لتستقرا على ركبتى، حتى سادت أصوات أكثر قوة من فوقى، دققت النظر فرأيت سربًا من الطيور ذات الأجنحة البراقة الرائعة الجمال وهى تطير فى الهواء، وكان الهواء يتخذ موقعه فيما بينها، أخذت الطيور تتحرك بسرعة فى دوائر ثم صنعت أنشوطات وأقواسًا وتابعت الرفرفة بأجنحتها، كما رفرف الهواء بدوره، لعله استلهم منهم الحماس أو أنه أخذهم ليقذف بهم عالياً وينفخ فيهم ليشتتهم، أم أن الطيور ظلت ساكنة، وكان الهواء هو الذى هزهم وقلبهم، فقد رأيت الهواء يرتعد ويومض فيما بينهم، كان يرتعد حيث ظلت الطيور ساكنة وصامتة، أخذ الهواء يرتعد ويتخذ شكل الدائرة كالمجنون، ثم تأتى الطيور التى أخذت تدور مجدداً وانطلقت حيثما أرادت وهى تسابق الهواء، الذى لعله ابتعد لأننى لم أعد أشعر به، ولم أكن أسمع سوى صوت الطيور ورأيت الزوبعة التى تصدرها ضربات أجنحتهم وليس زوبعة الهواء؟ والآن أصبحت قلقة وتوجهت وجهة أخرى، مبشرة بما هو أكثر.

حيث وقع اختيارى على جزء من صخرة كانت قابعة عالياً وهى مسطحة ومنخفضة بدرجة كافية حتى أن قصبة ساقى ابتلت حتى منتصفها فأبقيتها ساكنة، ولكن أصابع قدمىَّ أخذت ترتعد وتومض فى القاع، وما أن هممت بلمسهما حتى اختفت تماماً وتلون الماء مع تحللها، لا لقد نقل الماء أشلاء قدمىَّ ومعها الآن ذراعى الذى ذهب يتحسسهما، كما جرف

الماء جزيئات جلدى السائلة بعيداً، وحملها صوب وجهة خاطئة، لم أتمكن من اعتراضه هناك أسفل القاع، لم أعد أنا تلك، أخذت نباتات الماء تتدافع ضد بعضها البعض، وكذلك أقدامى المختفية فى قطع محلقة، بل إن الذراع الثانية كذلك، والتى أرخيتها بمكر على الساق، تلامست مع أجزاء صغيرة، ولكننى لم أشعر بها هناك، حيث كنت أراها .

إلا أننى إذا ما سحبت ساقىَّ من الماء فسوف أستجمع كل شىء مجدداً ودون عناء، وقد كان- فقد جلست ساقاى على الفور بمجرد أن فعلت ذلك ..على الفور، كما لو أن شيئاً لم يحدث، فقد عادت إلى المكان الصحيح، ثم انحنيت راكعة على قطعة صخرية فوق الماء المهجور، واكتشفت أنه لم يكن هادئًا أو خاويًا بأى حال من الأحوال فقد كان يدفع جسماً مترابطاً بشكل واضح ويسحبه، جسم لم يتمكن من تمزيقه وعندما لم يفلح فى ذلك اجتهد أكثر وبضراوة لكى ينفخ هذا الجسم ويزج به إلى مستويات مختلفة، حتى هوى من السطح العلوى منبسطاً على القاع ثم صعد مجدداً، وبدا كما لو كان متماسكاً فى عدة مواضع فى الوقت ذاته، كان هذا هو وجهى وكتفاى والجزء العلوى من جسدى وهو منبسط أمامى، فضلاً عن أن هذا كله لم يبق فى الماء فحسب، بل فوق الماء وبطريقة متميزة تمكنت من الرحيل، وبينما كنت أفعل ذلك فإذا بفكرة تخطر ببالى، وهى أننى لم ألحظ على الإطلاق إذا ما كان الماء لا يزال ينشغل بى، فكرت وأنا محبطة

بأن شيئاً لم يكن يسير بالشكل الصحيح مرة أخرى، لعلنى ينبغى أن أختلط بالناس، حيث إن هناك دائماً سبباً لأحداث مرتبة.

فى الشارع كانت هناك أناس ترتدى ملابس خضراء اللون وتسير بخطى سريعة وقد اصطدمت بمن يتصبب عرقاً، واعتصرنى بعضهم فى واجهات المحال كما أعاقتنى الظهور والصدور الكبيرة والملتحمة بى من سلوك طريق ما طواعية، ثم استندت إلى مدخل أحد البيوت كى أتمكن من مراقبة الشارع من موقع ثابت، فى البداية كان كل شىء قريبًا ومتحركًا وملموسًا بل ومفتوحًا للمشاركة، مشاركة فيها إجبار لا محالة، حتى انتقلت فجأة فى حين ظلت كافة الأصوات عالقة فى أذنى كما لو كانت حقيقية، انتقلت إلى مكان آخر، لا، لقد كان هذا أقرب إلى شىء ثنائى الأبعاد أو إلى ساحة، بل انتقلت إلى زمن كان يسير ببطء ويبعث على الامتعاض، كانت ملامح الناس الواقفين والعابرين تطيل وقت لزج، والآن وقد استلزم هؤلاء كمية مضاعفة ثلاثة أضعاف، أى وقت مخفف وليس مركزًا كى يتمكنوا من فعل أمور مورست آلاف المرات، كانوا يعيشون بعيداً ولكن الحدود الموصلة إليهم ظلت غير مرئية، وددت أن أسترجعهم مرة أخرى، وهو ما نجحت فيه للحظة واحدة ثم عاد كل شىء كسابق عهده، فقد أحاط بى الناس والشارع مثل الماء الفاتر، بشكل مألوف وقريب، لم أتمكن من دخول مقر إقامتهم الغريب وبمجرد أن غافلتهم بعض

الشئ وشرعت فى النظر إليهم عن قرب، بات الفرق فى الوجود المضغوط الثانى أمراً مستحيلاً، ولم أتمكن من استعادتهم سوى على حساب هذه الحالة أم أن الدخول إلى حياتهم الحالمة، والمثالية والمصورة إلى حد ما ومنفصلة عن الواقع بل والسهلة، قد حدث بشكل إجمالى حتى بدى لى الأمر طبيعيًا مرة أخرى ولم أر أى فارق نظراً لأننى كنت عندهم.

والآن كـان لابد من المراهنة، كل شئ أو لاشئ على الإطلاق، كـان المكان الذى توجهت إليه بسرعة لأن اليوم كان على وشك الانتهاء، مناسباً للحالتين، إذا نظرت من ذلك الارتفاع إلى أسفل فسوف تكتشف أجزاء من الطريق رمادية وبنية اللون تصل عالياً حتى تبلغنى، بقيت كلها عالقة فى انخفاضات خضراء، وأعلى الأدغال بدأ الطريق التالى مرة أخرى وقد اعتبرت هذا أمراً مستبعداً وأكملت لذلك ما رأيته بالفعل، كل هذه التعريجات والمنحنيات، أكملته بما بدا لى منطقياً، أى أننى ربطت الفقرات المفككة بالخبرة والعقل لتكون وحدة واحدة.

ظهرت سيارة صفراء صغيرة فى أقصى نقطة أسفل المكان ثم اختفت فجأة مع الطريق، ثم أخذت تسير على خبرتى وعقلى، تسير بهدوء شديد صوب وجهتها. كان يجب أن تظهر على الفور مرة أخرى وكنت أعرف الموضوع الذى ستظهر فيه وراقبتها الآن! كانت السيارة هناك، وبدأت تسير مرة أخرى وهى

مرئية لى دون أى تدخل منى، كانت تسير بعيداً وهى مضيئة تحت تلك الشمس، التى كانت على وشك المغيب، ثم انطفأت فى اللحظة التالية، توجهت عيناى صوب بداية الجزء التالى من الطريق وهنا جعلتها بمأمن عبر الطريق المقفر ووضعتها على النقطة الصحيحة مجدداً، فعادت تلتمع باللون الأصفر بشكل جميل وكانت وحدها تماماً إلا أنه لم يمر وقت طويل حتى أصبحت أنا مستعدة لقطع المسافة، فبدأت بالعد ثم تنبأت بالمستقبل، لقد أوصلت السيارة عبر حالة عدم الرؤية وكنت أعرف قبلها أين يصبح الطريق طريقاً والسيارة سيارة مرة أخرى، لتسير دون مساعدة منى، ولكننى أنا من يعرف الطريق ويتنبأ به ومن يجبرها على السير غالباً بل يوجهها فى النهاية إلى الوصول للهدف: حيث أقف أنا.

فجر هذا بداخلى شعورًا بالرضا التام، فقد أتممت أمراً بشكل واضح لأننى فى كل مرة كنت أبدأ فيها بشىء كان هو الذى يطالب بحقه فى النهاية.

(١٩٦٩)

(فى : الليلة المميزة: حكايات ١٩٨١)

الواقع وحيل القص:

سمعت أول القصص من أمى، فقد كانت تلك هى أجمل وسائلنا للتفاهم وأهمها ولم تكن تلك القصص بالضرورة أساطير لتسلب أمى بها لبى، بل كانت فى الغالب أحداثًا من فترة صباها أو من الحاضر الذى يجمعنا، حيث لم أكن أدرك حجم المغامرة من الطراز الأول التى خضناها إلا عندما تلخصها لى الحاكية الأم، هى ليست بالأمور المهمة ولكن كان لها هذا الوقع، إذ كانت تدور حول انفجار ماسورة مياه أو بيضة انكسرت أو حائط أحد الأطلال وقد قوض أو حتى قماش لزى ما وقد أسىء حياكته بدلاً من أن يصبح رداء.

عندما كانت تحكى كان كل شىء تقوله يتكون من مقدمة للتشويق ثم تصاعد للأحداث لتخلص إلى نقاط النهاية، فقد كان هناك دائماً الطيب والشرير.. الصديق والعدو، تشويق لا ينتهى ثم خلاص يشعرك بالارتياح والصفاء، وبالطبع كنت أفكر فى البداية أن

الأمر يتعلق بعدم قدرتى على إدراك تلك الحواديت والأحداث وحدى فى الواقع، بل كنت أعى فقط بعض الأحداث الفردية والنظرات والمشاعر، أمور تجذبنى وأخرى تكدرنى، حتى اتضح لى أنها هى أمى التى كانت تصف الوقائع وتبدؤها بشكل يثير الانتباه وتنهيها بطريقة تترك أثرًا بالغًا، ولا سيما حيثما ترى ذلك مناسباً، وكانت تفعل ذلك فى الغالب أيضاً بشكل يخرج لى عظة خفية من الأمر كله، وباختصار كان ما فهمته هو ذلك التناقض بين ما هو حقيقى وبين إعادة تشكيل الأحداث الواقعة بتلك القطع الفنية التى يملكها القصاص، كنت أنصت دائماً متعطشة إلى تلك الحكايات، إلا أن النموذج الدرامى المميز بالحيل التى تبعث على الإثارة انفصل عنها فى الوقت ذاته فبدأت الاستماع بأذنين ـ كلتاهما تستمع بشغف ـ إحداهما ساذجة والأخرى محترفة بحذر، ما الذى كانت تحكيه أمى، وكيف كانت تفعل ذلك؟

يجب التأكيد على أن تلك السيدة التى دأبت على الاستماع إليها منذ نعومة أظافرى وما زلت أفعل ذلك عند كل زيارة وأستمتع به - وهى قصاصة بارعة من حيث المادة الشفهية، لم يكن لها أية علاقة مهنية متخصصة بالأدب بأى شكل من الأشكال.

كانت أدواتها تتمثل فى الموروثات الشعبية بوجه عام والتى كان كثير من الناس يتقنونها بحرفية، وهو نوع من الأدب الوحشى، أى وسيلة سحر تستخدم

ببساطة ومأخوذة من مخزون فن الحكى الذى هو فى الأساس نابع بدوره من مصادر أمومة مثل تلك.

فى هذا الوقت المبكر ترسخ حبى الملتهب للحكايات، فكانت سلطتها علىَّ كبيرة لدرجة أنها بدأت تتحكم فى إدراكى الخاص وتعيد تشكيله وتعالجه، وعلى الجانب الآخر توالت علىَّ محظورات الحداثة، لا للحيلة، ولا للأحداث المرتبة فقد انسقت وراءها، الحداثة والطليعية، ولا سيما على مشارف نهاية فترة المدرسة، وتوجهت صوبها باسطة شراعى بوصفها الأفق الجديد والخلاب فقط ، هو القديم الذى اندثر حتى وإن كان كلاهما لم يتوافق معاً بأية حال.. أعتقد ذلك.

وبوصفى كاتبة تحت التدريب فقد احتجت لوقت طويل حتى جاءت أول خطوة فعلية لى للخروج من هذه الورطة فقد أردت أن أتوجه نحو الحكايات، نحو البداية ونقطة الذروة ثم النهاية دون خيانة لتجربة الحداثة وليس بشكل فيه حنين إلى الماضى ولا بشكل لا تاريخ له، وكان هناك أدب ما بعد الحرب المشحون برموز الدهشة والقدرية والذنب، بما فيه من الرواية الحديثة Nouveau Roman والشعر الملموس أو المجسم Konkrete Poesie. تلك الأنماط التى تبعث على التحرر ولكنها سرعان ما أصبحت عقيمة، كانت الناس تكتب بشكل وثائقى وتطالب بإلغاء الأدب الذى يعد طريقًا ملتويًا وغير مباشر لا علاقة له بالزمن،

كلها لم تكن حلولاً بالنسبة لى أو بالأحرى ليست حلولاً طويلة المدى، سوف أقرأ عليكم بعض أمثلة لحكايات سلسلة من كتابى الأول، الذى صدر عام ١٩٧٤: مجرى الأمور الذى لا يمكن تفاديه، أستخدم فيها نموذج أدب بسيط، وأجعلها شفافة لكونها مسلسلة وذلك من خلال التكرار، رسم بيانى عن الواقع.

انطلاقاً من ملاحظة كيفية اقتراب الأطفال من جمجمة أحد الحيوانات ثم فرارهم منها ليعتريهم مزيج من الفزع والتحمس، تتذكر الشخصية الراوية فى جمل بسيطة - فقد كتبت سابقاً نصوصاً أكثر تعقيداً بدرجة كبيرة - تتذكر أحداثًا من طفولتها التى أخذت تتضح أمامها الآن فى لمح البصر وفقاً لنفس نموذج التقزز والرغبة.

فى الرابعة من عمرى ظللت مريضة لعدة أسابيع.. أستمع إلى صياح الأطفال فى الخارج وهم يلعبون حتى يتملكنى الخوف من أن يفوتنى شىء، أستمع إلى ضجيج أوقات العصارى الساخنة فى فصل الصيف داخل الحدائق وفى الشوارع، ليس فى وسعى إلا الانتباه إلى تلك الأصوات فى انتظار أن ينظر أحد عبر زجاج النافذة داخل الغرفة، أو أننى أحملق فى شقوق الحائط، هناك فنجان كبير مزين بالزهور مملوء باللبن الحليب فوق مائدة إلى جانب رأسى، يمكننى إذا انتصبت بعض الشىء فى رقادى أن أرى

المسطح الأبيض المستـديـر دون أن ألمس الفنجـان، وعندما أحرك الفنجان جيئة وذهاباً تتحرك كذلك الطبقة العليا بداخله، ولكنى لم أنجح أبداً فى النظر أسفل اللوح المتأرجح، حتى عندما دسست إصبعى داخل الفنجان أو احتسيت رشفة منه، لم أتمكن من ذلك، انخفضت الشريحة بعض الشىء إلا أنها ظلت تحجب رؤية ما تحتها، أعتقد أنه لا يمكن أن نعرف إذا ما كان هناك حيوان قابع فى قاع الفنجان أم لا، وسرعان ما أعيده مكانه مرة أخرى وأرغب فى أية رشفة من فنجان اللبن، الذى يحجب الرؤية، ولكننى أشرب منه شيئاً بعد قليل وأخشى أن أكون قد اقتربت أكثر من الحيوان، بل لعله يمكنه كذلك أن يلتصق بشفتىَّ ويمتصهما. ينتابنى الفزع من المنظر المفاجئ، ولكنى أحتسى رشفات صغيرة طوال فترة بعد الظهيرة برغم أننى لست ظمآنة، أستمر فى الشرب متوقعة ظهور أذن مدببة أو أشياء زلقة تشبه يرقات الضفادع، حتى أصل فى النهاية إلى ما قبل قاع الفنجان بقليل، ثم أفرغ الفنجان تماماً، كنت أتخيل هذا مجدداً كل مرة فى وقت ما بعد الظهيرة طوال مرضى بسبب مذاق اللبن الفاتر وأنا أقلبه فى مجرى حلقى وأستشعره بلسانى.

وأنا فى السابعة من عمرى وجدت حيواناً ميتاً يشبه الفأر ولكنه أكبر منه بعض الشىء، وكان فى الأنقاض التى تواجه بيتنا، فى أثناء زحفى اليومى بحثاً عن قطع معدنية أو بقايا أقمشة أو أجزاء من

بلاط ملون على الفور يتجمع حشد من الأطفال ليتيقنوا من أن هذا مجرد فأر سمين، ويدعى البعض أنه سام للغاية لأنه ميت، فأبدأ أنا وعلى الفور فى التقزز، ثم أنظر إلى الحيوان الرمادى اللون السمين بذيله القوى والطويل ويخطر ببالى أننى لعلى أكون قد لامست شعره، كان الفأر مُلقى بين الخردة والقمامة وعلى مقربة منى أرى شفرة حلاقة، وأشعر بغصة فى حلقى بينما نحن نراقب الفأر ونقلبه هنا وهناك بعصا قصيرة، وأعتقد أننى سوف أتقيأ ثم أقول إننا يتعين علينا قطع ذيل الفأر بشفرة الحلاقة، فيقلب الأطفال شفاههم السفلى تقززًا، أما أنا فأتناول الأدوات وأقبع أمام الفأر ثم أضغط جسده على الأرض بحجر ثم أقطع باليد الأخرى منبت ذيل الفأر، يزداد الشعور بالغثيان فى معدتى ولكننى أعرف أنه يتعين علىَّ فعل ذلك، بل إننى سوف أتم عملى حتى دون وجود مشاهدين، أحك لفترة بشفرة الحلاقة على الذيل، حتى يتحرك جسمه هناك وهناك لينقطع فى النهاية، وإذا بالفأر السمين يقبع هناك بأسنانه العارية فى حين نرى هنا الذيل النابت القابل للطىء عندئذ ألقى بشفرة الحلاقة وأغتسل فى البيت بعناية، ثم أنظف أسنانى وأنكر حدوث الأمر، إلا أننى أراه مرة أخرى وبالتفصيل عندما أغمض عينىَّ.

ذات يوم وأنا فى التاسعة من عمرى كنت أجلس على سلم بيتنا وإذا برجل يرتدى حلة على شكل شوك السمك يتوجه نحوى ويطلب منى أن أدله على الطريق

المؤدى إلى مكتب رئاسة الشرطة، وهنا أتذكر على الفور أنه لا يصح أن أفعل ذلك أبداً وأشرح له كيفية الذهاب إلى هناك فهو قريب للغاية، خلف اثنين من المربعات السكنية بعد المرور بسلسلة طويلة من المنازل المهدمة، إلا أنه يرجونى مرة أخرى أن أرافقه، لم أكن أرى حتى ذلك الوقت سوى سيقان بنطاله التى تتخذ شكل شوك الأسماك، ثم رفعت بصرى عالياً لأنظر إليه وما زلت أفكر فى أننى لا ينبغى أن أذهب مع رجال غرباء، ولكنه يرتدى قبعة تكاد تخفى وجهه، ثم أفكر فى أننى يمكن أن أرافقه قليلاً؛ لأننى سوف أعود راكضة على الفور عندما أريد ذلك، عندها أنهض لنسير معاً بمحاذاة شارعنا وأنا آكل البونبونى الذى أعطانى إياه، أنظر أسفل لأرى حجارة الرصيف الكبيرة والمستطيلة، وأفكر عند كل حجر جديد إذا ما كان علىّ أن أذهب الآن أو أن ألتفت ببساطة وأهرب، ثم أنظر عالياً إليه وإلى قبعته التى تكاد تخفى وجهه وأرغب فى السير معه بعض الشىء، أسير فى الشارع الذى كنت أعبره دائماً بلا نهاية، فإذا بى خفيفة وأكاد أحلق طائرةً، وعندما أستدير فى النهاية أندهش؛ لأن الشارع قد انتهى بالفعل وأننا ندخل الآن فى شارع آخر، ولا سيما فى ذلك الشارع الذى به بيوت متهدمة كثيرة وأخرى تحت الإنشاء، أريد الآن حقاً أن أعود أدراجى ولكننى لا أستطيع أن أنفصل عن هذا الرجل الذى يسير بجوارى بقبعته التى تظلل وجهه حتى عندما يشرع فى أن يشاهد أحد تلك البيوت من

الداخل لعل بها شيئا يهمه، أظل ملازمة له وأتعجب من أننى لا أفر منه، وأتعجب من كونى أنزل سلم قبو ما مع هذا الرجل البالغ رغم وجهه الغامض، يمر رجل آخر عالياً وينظر إلينا وعندها يصعد الرجل السلم مرة أخرى ويذهب مسرعاً وينادى الآخر علىَّ ويأمرنى بالعودة إلى البيت، ولكننى لا أركض عائدة، بل أبقى واقفة لبرهة ثم أسير ببطء إذ أشعر بعض الشىء بهذا الشىء، وأتردد فى البوح به وأسوِّف حتى يصبح أكثر خطورة.

هل انكشفت تلك «الأنا» المختبرة للذكريات بنظام المقاطع الذى طورته من خلال عودة قطبيه، نفور أحد أو نزعته وميله إلى وقائع موضوعية لطفولته؟ قبل سنة واحدة كتب بيل فورد(*) فى جريدة «نيويوركر» تعليقاً عن إغراء سرد الحكايات وأعلن أنه يمكن ملاحظة اهتمام جديد «بالقصة» فى كتب العلماء، والمؤرخين، وأطباء الأعصاب، وعلماء الاجتماع، وخاصة فى كتب رجال القانون فى الولايات المتحدة، فبعد أن أزاحتها الحداثة لمدة طويلة جانباً وصبت جام لعناتها عليها وقذفت بها إلى هوات الثقافة الرقيعة والهزلية، حدث زحف مرة أخرى من زاوية اللاخيال فى اتجاه «الحكاية» مع توجه متزايد إليها، وأيا كانت طريقة الحكم على ذلك فإن المهم هو

(*) بيل فورد هو كاتب وصحفى أمريكى، وهو محرر سابق بجريدة نيويوركر، ومؤسس جريدة جرناتا (المترجمة).

النتيجة التى مفادها أن: «الحكايات تعنى المتعة، ولكنها فى الوقت ذاته تقينا الفوضى». فالحكايات مسألة حاسمة للطريقة والأسلوب الذى نعطى به لحياتنا معنى وقيمة بداية.. وسط.. ونهاية مساراتنا العابرة الشخصية والمجمعة ولا يُطرح هنا التساؤل عما إذا كانت الحكايات تصور الواقع وعما إذا كان هناك فى الواقع نقاط توقف مقنعة لتوافر هياكل الحكاية وبناياتها، ولكن المهم هو أن الحكايات تفيد وتعمل عمل السعادة والوطن والمخدر والدواء المُعد من مواد الواقع.

كان هذا من شأنه أن يقنعنى ويوضح لى الأمور بوصفه اكتشافًا بعد بحث فى السبعينيات، لأننى كتبته آنذاك فى توافق مدهش تقريباً بنفس الكلمات فى مقدمة على لسان غلاف أحد كتبى: «إن هذه الأمور التى نعايشها ليست حكايات، فالواقع مغاير دون شك! وما يحكيه الناس فى الحافلة له بداية ونهاية، وله ذروة أحداث ونقاط، أما ما نفعله نحن بشكل آلى عندما يقع حادث لنا أو يصيبنا شىء فهو إظهار التفاصيل على أنها أعراض . إنه صنع حكاية، فما ينشأ عندئذ هو ليس الحقيقة دون شك! ولكن ذلك الترتيب والإعداد وفقاً للمنطقية والترابط وتوالى الحقائق هو الواقع، بلا شك» !

يحمى نموذج الحكاية ذكرياتنا ويأويها، ولا يهم ما إذا كان الشخص الحاكى كما سألنا آنفاً قد عثر على

ما يسمى حقيقة تصطبغ بأفكار فرويد، أما جدوى ذلك بالنسبة له فهو تأمين لحظات الطفولة داخل الأوعية التواصلية «للمقاطع» المنفصلة التى تتم عما هو متكلف واصطناعى وغير طبيعى فى الإجراءات.

ولا يعبأ الواقع بتصنيفاتنا ولكننا نحن لسنا أكفاء بعد لإدراك شكلها الذى بلا هيكل أو بالأحرى بلا شكل. فبدون إجراء التحويل إلى أدب الذى يعتزمه كل منا فى رأيى من خلال تقليد راسخ ودون أدنى ارتباط بالثقافة وحب القراءة، فإننا على الأرجح سنصاب بالجنون ولن نصبح تعساء للغاية فحسب، لعلنا لن نتمتع على الإطلاق بوعى مسيرة الحياة التى تتخذ فيما بين الولادة والموت - وهما نقطتان محددتان غاية فى التأثير من الناحية الحيوية البيولوجية - تتخذ شكلها من خلال وضع شبه فنى للمحاور ومن خلال تحديد محطات مهمة ومنظورات وموتيفات.

نقرأ فى رواية برينتانو(*) على لسان «جودفى» Godwi البطل الذى تتخذ الرواية اسمه، أن والده قد حفر أهم أعماله الجيدة والنكراء التى صنعها فى حياته على حجر من مرمر وهو يتساءل: هل يمكن لأحد أن يفكر فيما هو أروع من أن ينقش حياته كاملة على الحجارة ليجمعها فى غرفة، ثم يصف «جودفى» كيف كان يشاهد والده وهو مازال طفلاً يدخل تلك

(*) Clemens von Brentano 1778 - 1842 شاعر ألمانى من عصر الرومانسية ومن أهم رواياته Godwi (المترجمة).

الغرفة مصطحباً فناناً غريبًا عن البيت ويخرج هو وحده، بعد أن قتله ولا تبدو «الروعة» هنا فيما هو مادى وهو فى العادة لا يتمتع بالجمال، بقدر ما تكمن فيما نفعله نحن بمعايشاتنا اليومية وبمجمل حياتنا إذ نجُمدها كى نصنع لأنفسنا صورة، أى نجمدها فى مشاهد "نمطية"، وهو ما نفعله بشكل آلى وروتينى لدرجة أن ذلك النوع من ترويض الواقع وتهذيبه وتهيأته _ وكلها أمور نمارسها مع أشجار الفواكه المتسلقة _ لا يلفت أنظارنا على الإطلاق، صحيح أننا لا نقتل أحدًا بذلك ولكن ما لم يذكره بوفورد -السابق الاستشهاد به عن الوجه الآخر للعمله- هو الإمكانات العديدة الأخرى للعالم متعدد الأشكال ذى الألف وجه، ولا سيما عالم الأنا الخاصة، وأذكركم مرة أخرى بتحديدات معايشات الطفولة التى سبق وقرأتها، فما أن نضعها فى قالب الحكى مرة حتى نحملها إلى ذاكرتنا لتمنحنا السكينة والهدوء، لحسن الحظ وللأسف.

(من: هل الأدب أمر لا يمكن تفاديه؟ Ist Literatur unvermeidlich? فى وضوح الأشياء Die Sichtbarkeit der Dinge عن بريجيته كروناور [إصدار هاينز شافروث - شتوتجارت، كليت - كوتا - ١٩٩٨).

المفتش:

على الفور، ودون أن نضطر إلى اتخاذ قرار حرفى، امتدت أيدينا إلى جيوب معاطفنا مرتعدةً بمجرد سماعنا لكلمة «تفتيش على التذاكر» فى حين توقفت الحركة هناك فى الهواء لدى بعض الناس، مرة أخرى دون تدخل منا، لقد أطعنا أسرع مما كنا قادرين على التفكير، حيث تبعت الأصابع ملامح ركاب الترام السريع المفاجئة، ولا سيما هؤلاء ممن لم تكن الناحية التى يوجهون أنظارهم إليها هى وجهة السير مثلما كان حالى، بل الركاب الذين تمكنوا من مشاهدة إشارة جديدة تناقض سابقتها، وذلك قبلما أشاهدها أنا والآخرون الذين كانوا يجلسون أمامى بينما أداروا لى ظهورهم.

التفت برأسى صوب المراقب، الذى كان يستند إلى الباب دون حراك، وهو شاب نحيل يرتدى معطفًا طويلا وطاقية مشغولة بإبرة التريكو على رأسه، كم كان وجهه مقسمًا باستدارة متوازنة، وعرفت على

الفور لابد أنه الذى كان ينادى، فقد فكرت لأول وهلة «أنه كان يبتسم بشماتة، كالذى شعر بأنه استطاع أن يلفت الأنظار كلها إليه» ! ثم تبين لى أنه لم يكن ينظر إلى أحد، كان يبتسم كما لو كان غير مدرك للأثر الذى خلفته مناورته على الإطلاق سواء منتصراً أو متخوفاء وكان يبتسم على الدوام بفمه الذى لا يكاد أحد يلحظ ميله صوب آخر لوح زجاجى بعربة الترام متخطياً بابتسامته كل تموجات الشعر والقبعات أمامه، فإذا بى أقول فى نفسى بشكل عفوى أكثر من عامد وعلى الفور «حالم ويقظ، ودود وعدوانى فى الوقت ذاته»! شىء جميل، ولكن وماذا بعد حقاً ؟ كيف يمكنه أن يظل واقفًا هناك بعد أن أثار جنون كل الناس وكيف يعتقد أنه يمكنه أن يتنصل من هذا الموقف بلا مبالاة، ويرسم تلك التعابير على وجهه ليكاد يبدى نفوراً، كما لو كان يعرف ما الذى يفكر فيه الناس وهم جالسون فى مقاعدهم، ويتكهن به مسبقًا حتى أنه لا يحتاج لأن ينظر إليهم. «وهم سوف ينقسمون وفقاً لمشاعرهم إلى معسكرين» إلا أنهم لم يظهروا ذلك بوضوح، بل ظلوا صامتين لم يفشوا أسرار بعضهم البعض. ولكن لا شك أنه كان هناك فى تلك اللحظة مستحسنون ومستهجنون وكان من المستحيل أن تنظر إلى عينيه.

عند المحطة التالية وهى محطة شيزن شانسه، انحنى الرجل فجأة خارج الباب بعد أن مر به بعض الأفراد وهم يصعدون إلى الترام أو يهبطون منه، ثم

أطلق صافرة عالية مستخدمًا صافرة رنانة قبل أن يطلق موظف رصيف المحطة إشارة القيام، وعندها أخذت رءوس كثيرة تسرع هنا وهناك مقطبة الجبين. بدأت الآن تظهر بوضوح، فهى وجوه تكسوها الريبة، ولكن سرعان ما عادت لتلتحم فى بعضها وتستعيد وضعها السابق. فتساءلت عما إذا كان هذا الصفير خطرًا، حيث إننى ارتعبت ثم رأيت أيضاً أن الرجل كان يحمل حقيبة للمشتريات فى يده اليمنى المرتخية إلى أسفل، وكان يستند إلى الخلف عندما تحرك الترام وكان يبتسم ثانية وهو غير عابئ، وشفتاه ترتجفان قليلاً، كما لاحظت رجلاً يجلس فى مواجهتى وقد انحنى على الحافة الأمامية للمقعد، وكان أحول العينين ويتنفس بصعوبة، يحمل معه هو الآخر حقيبة للمشتريات. إلا أن حقيبته كانت مكتظة عن آخرها، وكان يمسك بها بيديه الملطختين المتورمتين ويضعها فوق ركبتيه، وكانت تبدو على وجهه أيضاً علامات وخطوط غريبة للزمن، ظل هذا يحدق فى الرجل الواقف عند الباب بينما انزلقت ثنايا وتجاعيد لا نهائية بالقرب من عينيه المتورمتين.

مد المراقب المزيف يده إلى حقيبته ليخرج منها جهاز راديو وأداره بأعلى صوت حتى اشرأبت الأعناق فى كل مكان، وفى حين كان مذيع الأخبار يصيح عالياً بشكل غير مفهوم، ساد على الجانب الآخر صمت الانتباه الكامل والمطلق، والسرى، لم يفتح أحد فمه إلا الرجل الأحول ليناى بغلظة داخل ديوان عربة الترام

مخاطباً الركاب الآخرين، الذين لم ينظروا إلى الخلف كما هو متفق عليه :هذا شيوعى حقيقى - أليس كذلك ؟ إنه شيوعى أخرج من هنا أيها الشيوعى أو أغلق فمك!.

بدل الرجل الواقف عند الباب انطباعات وجهه عندما كان يصفر عند محطة شارع هولستن، ولكنه لم يتخذ شكلاً يمكن التعرف عليه، وكان هناك شخص يرتدى معطفاً داكن اللون قماشه فاخر يجلس إلى جانبى، وكانت هناك حقيبة كبيرة من حقائب الدبلوماسيين فى حجره، كنت أراقبه من جانب أسفل رموشى المنكسة ورأيت شعره الأشقر الفاتح وقد التصق ببعضه حتى أن رأسه كانت تبدو مرتبة وشبه صلعاء، بل عارية وبلا ظل، وهو رجل فى منتصف الثلاثينيات يلمع من داخله لون وردى وكان يضغط على شفتيه حتى تظهر خطوط مموجة وجادة، بدأ الراكب المنفعل فى الضغط على نفسه بشدة ليظل جالساً على مقعده، عندما لم يخفض الرجل ذو الطاقية صوت جهاز الراديو، بل على العكس، وفى محطة ألتونا وقبل قيام القطار أخذ الرجل يتأرجح بالجزء العلوى من جسده خارج العربة ويصفر عالياً مرة أخرى، فى حين أخذ الآخر يهز كتفه وقد احمر وجهه غيظاً وصاح: "إنه مجنون، أليس كذلك؟ مجنون! اخرس اخرس ! إنه يخضع للفقرة ٥١، ثم أضاف شيئاً يتعلق بفاصل وأرقام من بعده والآن تمكن من أن يتشكك الجميع فى أمره بسبب كل هذه المعارف

التفصيلية، كان يقف متأرجحاً بين سيقان الركاب يبعد حوالى ستة أمتار عن غريمه، الذى لم يبدل نظرته المائلة صوب النوافذ الأخيرة بالعربة.

وفكرت فى نفسى: «علام يتقاتل الناس فى تلك اللحظة؟ لوى الرجل الجالس بجانبى شفتيه بحذر وكاد يتمكن من أن يعكس صورته فى حقيبة أوراقه، تزايد عدد الأشخاص الذين أداروا أعناقهم برفق، وبدا كما لو أن الجميع قد حبسوا أنفاسهم، ليكتموا شيئاً ما من الخروج بكثير من الجهد إما الغيظ أو الضحكات، بينما استمر الرجل الأحول فى الصياح وزادت حدة صوته وهو أقرب إلى الانتحاب وقد جن جنونه وعلت صرخاته. ثم وضع حقيبة على الأرض كان يمسك بها بإحكام طوال الوقت، ولكنها انكفأت على الفور، لم يعر الرجل انتباهاً ومد يديه الثقيلتين للأمام وقال وهو يلهث : شيوعى.. مجنون! للمرة الأخيرة أقولها: اغرب عن وجهى!» فجأة أو بالأحرى.. وأخيراً، يعطى الآخر إشارة بملامحه كما لو كان سيلتفت ببطء، وظل ينظر أثناء ذلك بلا انقطاع وزوايا فمه ترتعش قليلاً متخطياً كل الرءوس أمامه، تبدو عليه ملامح الود والعداء، فى الوقت ذاته، ولكن ليس أحدهما منفردًا.

أدرك الجميع ردة فعله هذه ، أو بالأحرى رضوخه بما فيهم الشخص ذو الصوت الجهير، الذى كان يصيح فيه، والذى أخذت أنفاسه تتلاحق، ولكنه ظل صامتاً بعد ذلك. لم يستغرق الأمر سوى ثوان معدودة

حتى ترجّلَّ صاحب الصفارة من العربة. فقد قفز عند الركن التالى وسرعان ما اختفى في حقل النعوش، ما الذى كنت أتوقعه؟ نعم، هناك حيث سمعنا من الخارج صوت صفير عال بدرجة شديدة، أو بحماس جارف نعم: لا يمكن أن تخطأه.. آه.. كم كان تأثيره جيداً ! وأخيراً، الآن شيئاً جلياً تحدى.. بكل بساطة تحدى ! هذا هو ما فكرت فيه بشيء من الرضا ثم فردت ساقىَّ فى الردهة حتى أؤكد صدق شعورى.

أما الناس فقد أخذت تحرك أعناقها فجأة بيسر بعد أن استعادت مرونتها، لتديرها هنا وهناك وقد تواصلوا بابتسامات نعم، وهم يضحكون على هذا الموقف أيضاً وهمس بها الرجل الأحول إلىَّ وهو منُهك، ثم مسح بظهر يده ندفة لعاب من على ذقنه وفمه فى حين أومأ الرجل الجالس إلى جانبى فى رقة ومكر.

فكرت وأنا أغادر الترام أن «جميع الجالسين هنا فى هذه العربة سوف يكون لديهم اليوم ما يحكونه فى البيت على مائدة العشاء أو قبل النوم، ولا سيما حكاية أبطالها شخصان».

(فى : من التعامل مع الطبيعة 1977 Vom Umgang mi der Natur،

أعيد طبعه فى : الليلة المميزة، حكايات، ١٩٨١).

جهد ناجح من أجل الآنسة بلوك:

تتوقف الحافلة، تنفتح الأبواب ثم تغلق، تنطلق الحافلة.. تتوقف، تنفتح الأبواب ثم تغلق هذا هو ما أخذت أراقبه دون اهتمام، ثم نظرت دون تفكير إلى الرأس البارزة لرجل عجوز من المقعد الذى أمامى كان شعره الرمادى مصففًا بعناية من عند الجبهة حتى أسفل الرأس، وكان مسترسلاً من بين أذنيه أسفل الرأس المنتصبة حتى ياقة قميصه كما لو كان مسطحًا مغلقا، أخذت أراقبه كما كنت أراقب مراحل رحلة الحافلة، ولم أركز على أى شىء آخر ولا حتى على ذلك إلا أننى نظرت ذات مرة بشىء من الإمعان، ولاسيما عندما نهض الرجل بشكل عفوى وحتمى - فعل منعكس- ليس إلا، استدار فى مواجهتى تماماً، وكان مشغولاً بمتاع، وأخذ يتأرجح بشكل طفيف وقد أزعجه استخدام السائق للمكابح بعنف، ثم انتصب فى وقفته.

وأدركت فى تلك اللحظة أنه امرأة وأصابنى الهلع، فلم يكن مجرد امرأة بل الآنسة بلوك، التى أخذت

تسير صوب الباب بحذاء غليظ وجوارب سميكة، ليس بنطالاً، فلم يكن ذلك ليغير فى الأمر كثيراً، كانت تسير بخطى الرجال وهى ترتدى معطفها المشمع الطويل، وعندئذ فقط رأيتها من الأمام، ذلك الوجه الممتقع الأصفر اللون، ذو التقاطيع الرجالية، مقبض الأسارير، ومطبق الشفاه، إنه غياب كل ملامح الزهو والتبرج، تلك العقلانية البادية على وجهها، البخل الشديد فى الحركات، ذلك الغياب الواقعى الواعى، ذلك التحول هو ما أزعجنى عندما هبطت الآنسة بلوك، على الرغم من أنها لم تعد سيدة، هبطت من الحافلة وهى ما زالت، وعلى ما يبدو أنها ستظل إلى الأبد، رجل تكسوه ملامح المرارة، وقد أصبح شيئًا واحدًا أكيد تعاستها! فقد أيقنت على الفور أنه لا أحد يتغير هكذا إلا عندما يفقد الأمل. نعم، قلت فى نفسى، فهى لا تبدو مُهملة، بل أسوأ من ذلك كثيراً، فقد ارتضت الأمر وهى تعيش ما تبقى لها حيث تتحمل حياة الوحدة تلك فى جلد وصبر وهى ترتدى ملابس عملية، تتحملها بلا اكتراث وفى نظام صارم، طوال ستة أعوام كنت أراها على عكس تلك الحالة، عندما كانت تقطن الطابق الأول فى منزلنا، وكانت معلمات دور الحضانة الناضجات البدينات يزرنها فى كل أوقات النهار ويحتفلن معها فى يوم عيد الأم ويهدين إليها باقات الزهور بشكل رمزى، كنت أراها عند عودتها من الجبال فى نهاية إجازة الصيف وقد أشرق وجهها وبدت عليها الصحة، كانت السمرة تكسو

كل بشرتها، كما كانت تترك بلوزتها مفتوحة حتى شق نهديها ليتمكن الجميع من رؤية جلدها البرونزى حتى على الصدر المقوس، عندما تقف مائلة بعض الشىء، دون أن تغطى ساقيها بالجوارب بالطبع، وكانت رائحتها تنبعث من كل الثنايا، تلك المرأة الجامحة شديدة القوة بشكل منفر، ولكنها يقظة ولها حضور فى كافة أرجاء البيت، عندما تظهر فجأة بسيقان وأيدى جميلة، تبدو عليها السمرة بعد أن دللها كل من الشمس والهواء، كانت تستلقى بردفيها الممتلئتين فى الشرفة وهى ترتدى المايوه البكينى، حيث كنت أراقبها من نافذتى، وهى منفرجة الساقين بخفة حتى تتخلل الشمس إلى أردافها، إذ كانت تترك الشمس فى الوقت المتبقى لتخلف أثرها من الإجازة على جسدها العفى، ذلك الجسد الشهوانى أو المتلاعب بالشهوة، الذى يتحلى بصفات الأرض، كانت تستعرضه بشكل مكشوف وبلا حياء، حيث كانت تتمطى هناك بتكاسل، لأشعر أنا بالصدمة بعض الشىء عندما أقارنها مع نفسها عندما تذهب إلى الفصل فى الشتاء لتصنع نجومًا من القش مع تلاميذها وتضع لهم الاختبارات.. نعم، ألم تحكى ذات يوم عن حب كبير دمرته الحرب لتعيش هى وفية له؟ كما كانت تضحك لتبرز أسنانها القوية الناصعة البياض مقارنة بوجهها المكتسى بالسمرة، وتلمع عيناها بالزرقة وقد حددها حاجباها فجأة، كما كانت مفعمة بالرغبة فى الحياة وتفوح منها رائحة عطرة، وكانت ترتدى بلوزة بيضاء مادامت

اكتست بشرتها بالسمرة، وقد قالت ذات مرة : «أستطيع أن أعرض جسدى فى كل مكان، بل أعرضه عارياً طالما لم أبلغ الخمسين بعد».

انتهى كل هذا ولم يعد أحد يرغب فى رؤيتها، والآن هى نفسها لم تعد ترغب فى رؤية نفسها.. بالتأكيد، فقد انتصر ذلك الحق الذى عبرت عنه ذات مرة قديماً، أو على الأقل ذلك الاحتقار لكل الزخارف الأنثوية، وأدوات الزينة والأزياء، لقد فرض كل ذلك نفسه فى النهاية مع التقدم فى العمر، وكنت متأكدة من أنها الآن كانت تتجول صيفاً عبر الجبال وتتسلقها بسبب صحتها فحسب، وانطلاقاً من وعى بالتزام الممارسة ولكن دون أدنى أمل فى الإثارة، كما أنها كانت تنتظر حتى يزول ذلك كله تماماً يومًا ما وهى عازمة قلباً وقالباً على أن تؤدى ذلك كله وتتحمله حتى وإن انحصر الأمر فى الهدف ذاته، دون أن تعبأ إذا ما طالت المدة.

وأخذت أتخيل أمام عينىَّ حياتها الآن بينما أبواب الحافلة تتفتح وتعاود غلق أنفسها، وكيف أعياها منظر الفتيات اللاتى ينضجن ثم يحصلن على الزوج والأطفال العام تلو الآخر وأتخيلها وهى عائدة إلى شقتها وقد تجمدت من برودة الجو، وتلطخت جواربها من وحل الطريق، لتعود إلى شقتها الساكنة التى لا يتبدل فيها شىء، تتخذ طريقًا مليئًا بالحكايات دون أن يعيرها أحد انتباهاً.. نعم، وأفكر كيف أصبحت

غير ملحوظة أو بالأحرى غير مرئية بين الرجال والنساء فى لا مبالاتها تلك، حيث أخذ الناس يصطدمون بها بين الزحام كما لو كانت مجرد شىء، وأفكر كيف أنها كل صباح بعد أن تستيقظ، كانت تستلقى على ظهرها دون حراك وقد تغطت حتى ذقنها لتواصل الحملقة فى زوايا الغرفة الرمادية الكئيبة، حيث لا تصدر أية أصوات من أى شىء، وترى اليوم وهو يمر أمام عينيها، ها هى تخفى جسدها من رأسها حتى أخمص قدميها، ذلك الجسد الذى لم يتخذ أى شكل، ها هى وقد ذابت أسفل الغطاء، وهناك ذلك اليوم الذى يتعين عليها أن تعيشه وقد تقاسمته قواعد والتزامات وجدية ولكنه فى تلك اللحظة يواجهها وهو غريب بل مزعج.

وأتذكر فجأة كيف أننى أستلقى أحياناً هكذا وأنا أراقب أركان الغرفة المليئة بالهواء الرتيب الثقيل، وكيف أننى لا أرغب فى ترك الفراش الذى أقبع فيه بلا جسد، بل وبلا التزام أو وزن أو قوام، وبلا معيار، ولكنى أتخذ شكل حبيبات قد توزعت بقدر متساو أو سائل موزع على الملاءة، وكيف أننى أبذل جهداً كى أنتصب واقفة لأتخذ قواماً وجنساً، وأرغب بشدة فى الانسحاب، أو على الأقل تأجيل ذلك. وأتذكر كذلك كيف أفكر فيما سيكون قد تغير عندما أتقدم فى العمر عشر سنوات أو أصبح فى الثلاثين من عمرى ثم أشرع فى النظر إلى الغرفة بتلك العينين، وأنا مستلقية أراقب الأشياء وقد ملأنى الخوف من الموت،

ولكننى لا أبالى بالحياة وأكاد لا أشعر بأننى حية فأبدأ فى سرد بيانات تخص شخصيتى، أقولها كما لو كانت الحروف الأبجدية ولم يعد لها أدنى علاقة بى، أعرف أننى من حيث الجنس أنثى، إلا أننى فى تلك اللحظة لا أشعر بأى شىء حيال هذه الكلمة حيث أفقت ذات مرة وإذا بكلمة أنثى تعنى أن يصبح لى نهدان، وأن أضع أدوات الزينة على عينىَّ، وأن أتحدث بصوت رقيق، وأن يرانى الجميع امرأة، على الفور ودون تأخير، وهو ما يعنى أن أصبح امرأة دون الحاجة إلى الاحتيال، امرأة لها بشرة ناعمة وجسد مثير بطريقة معينة ترى النساء هناك والرجال على الجانب الآخر فى الوقت ذاته، ودائماً يصدق ذلك دون استثناءات، رجل أو امرأة يبدو الأمر لى فى تلك اللحظة غير ممكن، ولا سيما أن أعيش هذا اليوم الجديد من الآن فصاعداً وفقاً للاختلاف القديم، حيث لا يمكننى الاحتفاظ بكل ملامح جنسى وغريزتى وأحاسيسى، فسوف يصعب علىَّ اتباع كل القواعد جيداً، ما زلت أسبح أسفل الوسائد، ولكن ليس أطول من ذلك، حيث أنتصب وأصبح امرأة، وهل لى خيار آخر ؟

نعم.. أراها فجأة فى فراشها وقد أحاط بها الهواء الثقيل، تبذل جهداً كل صباح وباستمرار ومع تزايد الثقل، كى تتلقى الإشارة مجدداً، التى لا يطالب بها أحد، ذلك العناء الذى لا يحظى بمديح الآخرين، ويزداد المجهود الذى يتطلبه التفكير فى كافة

التفاصيل، والضحك بالطريقة السليمة فى اللحظة المناسبة، ويصبح الالتزام الذى يجب أن يتبعه الجسد هو أنه لا يستطيع فى النهاية أن يأتى بأية حركة بدافع خاص أو من أجل حاجة ما، ولكن يتعلم كل شىء مجدداً فى كل صباح، فالجسد يمانع أو ينغلق على نفسه حيث إنه يرغب فى تلك الحالة من الحيادية المسالمة، فى تلك الحقيقة الكامنة، أسفل الفراش العلوى، والتى تصبح يومية من الآن فصاعداً. فالجسد لا يرغب فى الرياء والتصنّع.

ظل الجسد يمانع حتى استسلمت هى فى النهاية، ليصبح ما كان يبدو لها مستحيلاً حتى ذلك الوقت قد أصبح شيئًا ثالثاً، فجأة ذلك الشكل الثابت والآمن، الذى كان الجسد يتحكم فيه ويتلاعب به كما كان الحال مع الشكل الأول الذى طابقه، ولا سيما الحيادية.

كم كانت الآنسة بلوك تتحرك فى ذلك القالب دون هفوة وبشكل متكامل، لتنتقل من المقعد إلى باب الحافلة وهى تتأرجح بين الأمتعة، إلا أنها متنكرة فى جنسها السرى، أو بالأحرى محمية ومصانة داخله ومنغلقة دون أن تنتهك، هذا الإقرار عندما تبقى غير ملحوظة بين الناس ولا يتحدث إليها أحد بوصفها رجلاً أو امرأة، وأن تظل رخوة أسفل الغطاء، غائبة عن الجميع ومع نفسها ليست سوى مجرد شىء بالنسبة للآخرين، دون أدنى رغبة فى الاستيقاظ،

مجرد مخلوق عجيب وتعبس على أقصى تقدير، إنه ظفر منطقى لنزعتى العابرة، ونزعتها المتنامية ! وإذا بالغشاوة تنقشع عن عينى لأرى كم هى قانعة وحية، بل وسعيدة داخل هذا القالب.

(فى : من التعامل مع الطبيعة، ١٩٧٧ أعيد طبعها فى : الليلة المميزة، حكايات، ١٩٨١)

خلف السور

كم كانت رائحة العطر الجميلة تنبعث! كم كانت رائحة أوراق الغار الطازج والمطحون تفوح من أصابعى الخمسة! كنا نجلس أسفل شجرة حول طاولة معدنية مهتزة وقد لامس الهدوء والسكينة مشاعرنا.. يا له من توافق جيد، صحبة جميلة لشرب القهوة وتناول الطعام! يجب أن يكون هذا مرتبطاً بذلك الوقت من السنة، حيث كل شىء ما زال أخضر اللون وغير مشذب بعد، ولم نستدر أو نشح بوجوهنا إلا عندما أخذ كلب الصيد الأسود يتشممنا، حيث كان قد فتك لتوه ومجدداً بقطة، ولكننا أعدنا تنظيم الحصى فى ذلك الوضع بصبر شديد ودون أن نوجه إليه أدنى لوم، حتى ابتعد عنا مسرعاً لننظر نحن صوب السماء بمحاذاة شجرة أوراق الغار، ونضع نظارات الشمس، كلنا دون استثناء، أغلقنا جميعاً أعيننا خلف زجاج النظارات الداكن وأخذنا نستنشق الهواء، كما سمحنا لأفواهنا أن تظل مفتوحة بعض الشىء لأننا تكاسلنا

عن إغلاقها وبدا الأمر كما لو أننا قد جرفنا بحر آمن إلى الخارج، نحن تلك الأوعية البلاستيكية المنتفخة ذات الأشكال المتشابهة التى أتت تتأرجح من بعيد. بل إننا شعرنا كذلك بأننا منتفخون من فرط الارتياح ومكتنزو الوجوه فى غبطتنا هذه بل شعرنا بالخفة.

ولكن سرعان ما اهتز هذا كله حيث اندفعنا من راحتنا العليلة لنعتدل فى وضعنا ونفرد أظهرنا ونتتصب فى جلستنا ويزم كل منا شفتيه على الفور كما لو مسه شىء مزعج أو مثلما يشد شخص يشتاط غضباً ذقنه، كانت هذه هى الفزعة الأولى، ولم تكن بمثابة مفاجأة. هل يمكن أن تكون مفاجأة سعيدة؟ هل هناك من يحاكى شيئًا على سبيل الدعابة؟ هل هو صراخ الفزع المنتظر عند نجاح إحدى ألعاب الأطفال؟

لا.. كان الأمر جاداً ولوهلة كان يمكن أن نعتقد أنه صراخ أحد الحيوانات، حتى أننا جميعاً رفعنا نظاراتنا حتى نتمكن من أن نستمع بشكل أفضل. ثم مددنا أعناقنا للأمام كما لو كنا نتشمم خبراً، كما أزاح أحدنا شعره من أمام أذنه خلف رأسه، أخذنا ننظر إلى بعضنا البعض على التوالى وبسرعة بحثاً عن هزة رأس من شأنها أن تهدئنا أو تنم عن معرفة شىء أو تزيل الشكوك، ولكن كل منا كان يلتمسها لدى الآخر.

انطلق الصراخ، لا لم يكن صياح حيوان ما، انطلق ذلك الصراخ فى المرة الثالثة بشدة وكان ينم عن يأس،

فقفزنا سريعاً، وأخذنا نخطو هنا وهناك حتى نحدد الاتجاه، وحتى لا نظل جالسين فى مواجهة مثل ذلك الألم الحاد، الذى يحاول أحد أن يخرجه من أعماق أحشائه ويستبكيه، كما لو كان سيتسبب فى تمزقه أو أنه يرغب فى تفجير كل شىء بصراخه الذى لم يتوقف.

عرفنا فجأة مصدر الصراخ المتكرر ـ وقد أغلق أحدنا فمه الذى لم يكن يصدر عنه أى صوت ولكن الآذان ظلت مصغية - : لقد جاءت الصرخات من الشارع، خلف سور حديقة عال للغاية، كان الصمت الرهيب يسود المكان بين كل مجموعة صرخات والأخرى، كما لو أنها امتصت كافة الأصوات الأخرى، بل إننى لم أعد أتذكر ما الذى كنا نسمعه قبل انطلاق الصرخة الأولى، حيث إن كل شىء لم يعد له أثر، كنت أنحنى خوفاً وأكاد أشارك فى الصراخ أيضاً، وشعرت بأننى لا حول لى ولا قوة أمام هذا النداء، الذى يبدأ وينتهى بتوقف محدد لينبعث مجدداً دون أن يسكن أو يهدأ، حيث يستجمع القوى فى لحظات الراحة، يستجمع طاقة جسدية ويأسًا جديدًا ليصبح من شأنه أن يدمر كل شىء من حوله.

ولكننا أدركنا فى النهاية أنه يتعين علينا أن نفعل شيئاً! كان يجب أن نفكر بعض الشىء ونراقب ما حولنا كى نتمكن من مد يد المساعدة، ولكى نستوعب رسالة الخوف هذه، أسرع اثنان منا عبر حارات

الشارع خارج النجيل النامى برياً، وكانت خطواتهما مترنحة وثقيلة رغم السرعة، فقفزا رافعين سيقانهما أعلى السور حيث وقفا عاجزين، إذ كان من المستحيل تسلق هذا السور بسرعة، أما نحن، أى الآخرين، فقد جرينا على الأرض ذات العشب جيئة وذهاباً ونحن ندير أذرعنا مسرعين، حيث لم يكن الأمر يتحمل فقدان أية ثانية حتى لا ينبعث الصراخ مجدداً ويشكل عذاباً شديدًا.

ولكن لم يكن بإمكاننا إيقافه، وعندئذ أطلق أحدنا احتمالاً وقال: قد تكون سيدة خطف أحد حقيبتها، مادمت أستطيع أن أصدق ذلك بشكل عابر، فقد استغرق ذلك وقته ومر فيما بين إطلاق صرختين، وعندها كنت أرغب فى الضحك من فرط الشر، لا لم أجد هذا التفسير مريحاً، انقلب كل شىء فى لحظة إلى غضب وخبث دون أدنى شعور بالرثاء على ذلك الشخص الذى تعرض للضرر، كنت مضطرة للاستماع إلى ذلك الصراخ الذى كان يتعلق بأمر مغاير تماماً، والذى انطلق فى ذلك العالم من شخص ليس لديه أدنى فكرة أو شعور بسبب لا شىء. ولاحظت أننى أقترب سيراً من السور من شدة الغضب والحنق بسبب ضعف هذا التفسير لا، ولكن لم أتخطاه بعد.

وأدركت آنذاك مجدداً أن الأمر لن ينتهى هكذا. حيث لم تظهر أى ملامح للنهاية، فقد بدا على ذلك الخوف الذى قمعته فى البداية وأصبح لا يمكن إخفاؤه، إنه أذى شديد ذلك الذى لم أعد أرغب فى

تحمله دون أن أعرف طريق حجر أنزوى فيه وأحتمى من هذا الصراخ المنظم حسابيًا، والذى اندلع مرة أخرى مثل سلسلة من التكسير، هل يمكن أن يكون أى شىء آخر غير صراخ شخص يكافح من أجل حياته، صراخ شخص على شفا الموت أخذ يستجمع قواه الأخيرة من أعماقه، ذلك الشخص الذى أرغمنا دون حرج على ذلك العون وتلك المساعدة، المتمثلة فى الإنصات إلى صراخ موته فى كل تنويعاته وكل التغيرات المتوقعة حتى النهاية ؟

سار أحدنا ذلك الطريق الطويل حتى نهاية الشارع، فى حين تسلق آخر أعلى شجرة ونظر إلى ما بعد السور ليرى سيدة قصيرة وبدينة شعرها أسود وقد أحاطها بعض الناس كما كان هناك رجل يرتدى معطف الأطباء يعتنى به، لم يصرخ أحد بعد ذلك بل أخذ الناس يلحون على السيدة فى شىء، إنها هى إذاً! قال ذلك الذى حظى برؤية واضحة: "أنا متأكد من أنها تلقت لتوها خبر وفاة أحدهم من المستشفى وجاء رد فعلها تحت هذا الانطباع." عادت أصوات الشارع لتتعالى، أم أنها كانت هكذا قبل ذلك ! أقفل الستار الآن وانتهى الأمر. لم يعد هناك من يحتاج للإنقاذ بالنسبة لنا، كنا جميعاً نضغط بأكفنا على بطوننا خلسة ولم نسمع حتى أصواتنا نحن، حيث كان صوت الإعلان الذى تخطى السور ما زال يدوى فى الحديقة، وجلسنا نحن بوجوه شاحبة فوق الكراسى الهشة، القابلة للكسر.

وهنا خطرت لى فكرة ـ ما الذى كان بوسعى ؟ لا شىء ! ظلت هذه الفكرة تروح وتجىء فى رأسى ـ حيث كان من الممكن أن ندرك تلك الصرخات على أنها صيحات عصفور مغرد أسود اللون صغير وقوى وأن يتخذ موقف الغريب غير المدرك مثل شجرة ورق الغار الهادئة، وأن تلك الصرخات كان يمكن أن تنبعث من تلك المسافة مثل وقع تغريد الطيور من خلف السور.. يا لها من خاطرة ! لم أتفوه بكلمة عنها ظللت أحمى نفسى وفضلت الشعور بارتجاف أوصالى مع الآخرين.

(١٩٧٨ ـ ١٩٨٠)

(فى ليلة مميزة ـ حكايات ، ١٩٨١)

تـردد مبـدئى

من ذا الذى يبرهن لى أن ذلك الأفق
لا يحصر العالم فجأة هناك من الجانب الآخر
من ناحية اليسار ويغلقه إلى الأبد
حيث إن الكل سوف يجادل فى أن العالم ينتهى
عند ذلك الأفق فحسب، وأننى أقذف
فوق نصل رأس عندما أقنع نفسى،
كما أن الكل يجادل فى أن العالم يتحول
خلسة وفى الخفاء، محتمياً
بهذا الأفق، يتحول إلى عالم آخر
ولكن من ذا الذى يبرهن لى العكس؟
فإذا ما حاولت التأكد يكون هو قد تحول
منذ زمن طويل، إلى العالم القديم، ولا سيما
خلسة وفى الخفاء ومحتمياً خلف الأفق

(فى: ثورة المحاكاة، ١٩٧٧)

وهم المفاهيم والطرق المفتوحة

حذار! حذار! سوف ينقلب الموضوع إلى جدية

أعلن دفتر الملاحظات الذى حصل عليه على سبيل الدعاية من مصرفه المحلى عن اكتمال القمر فى إحدى الليالى الأخيرة أثناء فترة إقامته. فكان كثيرا ما يفاجأ بحلول القمر البدر، وكان يرى فى ذلك كل مرة نوعًا من حسن الطالع، وليس أمر يحدث بانتظام، وقد شاهد تلك الدائرة المفرغة الصغيرة فى دفتر الملاحظات وتوقع منذ تلك اللحظة اكتمال القمر البدر كما لو كان تتويجًا لكل الأقمار التى يمكن تخيلها سواء ثنائية الأخماس أو سباعية الأثمان، وكان قد خرج إلى الخلاء بعد طعام العشاء وبعد أن تناول كأسًا كبيرة من العرق لتسهيل الهضم فى مطعم البيتزا المجاور، وفى أثناء ذلك استمع إلى شكوى مالك المطعم من استثماراته العالية، بينما بدا المكان من الداخل وقد موله مصنعو الكحول والسجائر، فقد غطت سماء الليل كل من الفندق ومطعم البيتزا ومحل

السلع الغذائية الراقية وقبعت فوقه هو بدوره، إذ جثم ذلك الفضاء فوق تلك البقعة الخضراء العطرة والمزدحمة بالسكان، وفوق تلال الغابة، وقد تلاقت هنا الأضداد.. الأعلى والأسفل، وتبين أنهما واحد حتى يخيل إليك أنك يمكن أن تقلبهما، السماء والأرض، فى تلك الساعة العارية والباردة، ولم يخلق ذلك أى فارق حيث لم يتعين عليك سوى أن تظل واقفاً تنظر عاليًا لفترة وجيزة حتى يحدث ذلك من تلقاء نفسه، كانت قدماه مثبتتين على الشارع المؤدى إلى الشاطئ، بينما علقت رأسه إلى أسفل وهو يحملق صوب السماء الصافية، لم يظهر القمر من وراء الجبل حتى منتصف الليل، ولم يظهر منه سوى ضوئه بوجه عام، فى حين تصاعدت أصوات كورال صراخ من الأدغال السوداء، غناها نشوة الجنادب، وكلما أنصت لمدة أطول كلما اقترب القمر أسرع وأصبح أكثر وضوحاً خلف قمة الجبل، هبط ماتياس روت حتى الشاطئ، حتى بلغ تلك الحدود الفاصلة، حيث أصبح القمر مرئياً بمجرد أن التفت إليه ماتياس روت، وبدا كبيراً وجهيراً، حيث كان هو نفسه يلقى ظلاً فى منطقة الضوء. بدا الأمر كما لو أنه ليس هناك حقيقة أكثر صدقاً تعلو على كل الآلام من ذلك التهليل والحماس الحار المنبعث من الأدغال والأكثر اختفاء من النوارس عند تصاعد تيارات الهواء فوق الوادى فى المساء، فقد تذكر فى تلك الليلة التى جاءت بمحض الصدفة، أو ماذا يعتبرها، فى تلك الليلة المتعمدة تذكر لحظات

شبابه التى لا يمكنه تحديدها ولكنها مهمة وملحة. وأدرك أنها بمثابة ألم موجع ولكنها ولت ونهائيًا، إلا أن الحقيقة المعروفة أوغرت داخل قلبه فجأة وتملكته فى الوقت ذاته، مفادها أن لحظات أقوى المشاعر التى نعتقد أنها انتهت إلى الأبد، تجمعت تحت هذه السماء كما لو كانت تتراكم أسفل قبة قشرة يمكن إحكام غلقها، بل إنها نضجت الآن لتصبح حاضرًا أكثر إقناعاً ووجودًا متكاملا، كانت هذه اللحظات قد انصرمت ولا شك، إلا أنها كان يجب أن تنسلخ صوب وجودها الحقيقى.. لا، لم يحاسب نفسه على افتراضاته، فقد وقف ذلك الشىء أمامه مقنعاً للغاية، وقد رآه فى قاع الليل، ذلك القاع الذى يمكن أن يكون فى الأعلى أو الأسفل على حد سواء، كان ذلك القمر البدر بمثابة الاختراق، أو دنو فراغ مشع ومنبسط فوقه، وبمثابة حميمية. ويكاد يكون التفاتة شخصية لكتلة منيرة فوق الظلام، التفت ماتياس روت فى حركة دائرية كاملة ثم استند إلى أحد القوائم الحديدية التى تتوسط سلكًا شائكًا كان يحيط بفيلا بسيطة لم يكن يعرف شكلها إلا فى وضح النهار، كان ماتياس روت يسبح فى بحر عكر، جاء البحر ليملأ الخليج بأكمله، وأخذ ماتياس يطفو من القاع العميق، العميق حتى السطح العلوى كما لو كان نبتة من نباتات البحر، أو كائنًا لا إرادة له دون توجه خاص، وقد جذبه القمر، أو سلبه عقله، أما السطح العلوى فهو السماء، كان ليطفو حتى وهو مزروع بثبات فى مكانه.

يطفو بأطرافه الخارجية فوق الوديان المضيئة والليلية لبقعة الأرض الصغيرة هذه، ثم صعد وأحنى نفسه وتفتح، ثم عاد ليتراخى فى نفس الضوء الرقيق البارد الذى ملأ المكان بأكمله دون أن يوقفه شىء، ملأه بقوة أكثر من ضوء الشمس المعتاد ثم غمر المنحدرات حتى بلغ البحر الضخم الذى يلامس قبة السماء عند نهايته مجدداً، كان ماتياس عبارة عن عشب مائى متأرجح وعالق، أو أحد قناديل البحر وقد رقد على اليابسة لا حول له ولا قوة، ولكنه أخذ ينتفض فى كيانه هذا وقد سرى فيه الهواء، تجرفه بعيداً قوى أضخم وتيارات لطيفة وتقلبه وتتلاعب به لتلفه فى وضع الوقوف على اليد ثم على الرأس ودون أن يكون له وزن. وكان ماتياس يثبت يديه فى إحدى ثغرات السلك الشائك، كان لكل شىء ظله بعد منتصف الليل، فأخذ يغوص فى الرمال عائداً إلى البيت، حيث كان يطوى الطريق سيراً بجسده الذى كان مثل كتلة قد هوت على الأرض. وكان جسده يصدر صيحات إعجاب منذ ساعات ودون توقف، ولا سيما أسفل بريق السطح العلوى للشجيرات الكثيفة.

وقف ماتياس صباح اليوم التالى عند نافذة قاعة الإفطار وأخذ يراقب الخليج والبحر. منظر كلاسيكى! خطرت بباله الفكرة وتقبلها باقتضاب ثم ارتعب؛ لأنه اعتقد أنه الآن قد اخشوشن بشكل نهائى، وقد استنفد كافة المشاعر المضخمة عقب فجور أخير، ولكنه فى وقفته هذه قد اعترته مشاعر الخوف

واللامبالاة معاً، وقد انتابه إحساس مغاير بأن الأمر بدأ لتوه، وأنه صادف تلك الطبيعة لأول مرة منفرداً بها مع نفسه، لعله كان مجرد تحليق، لم يستطع أن يقول شيئاً.. البحر الأزرق ! وكان دائماً ما يعجب بأن هناك بانوراما رائعة تتخفى تحت تصور مطوى منذ زمن طويل، تحت فكرة الصورة القديمة، أو بيت شعر يطرح نفسه، كل هذا ضاع منه فقد عافاه الاستمتاع بمثل هذا التطابق، وأصبح أكثر أمناً داخله دقيقة بعد الأخرى، وأدرك.. نعم، ولكن كان إجهاداً وليس راحة، ليس نوعًا من إعادة التعرف على الأشياء، ليس رضا، بل بالأحرى انتزاعًا من القوى الخاصة، وكان يحدس حتى ذلك الوقت أن الطيور كانت تنزلق فى الواقع بشكل شهوانى، خاصة عصفور السنونو الأسود، كانت تنزلق فوق طرق غير مرئية فى الهواء، ولكنها تميزها، أما الآن وهو ينظر هكذا فقد شعر أنها تكافح لإيجاد طرق خالية، حتى أنك تعجب من أنها لم تنهار مع بذلها ذلك الجهد الكبير أثناء الغزو، أمسك بالستارة الصفراء اللون كما كان يتشبث ليلة أمس بثغرات السلك الشائك، وأخذ يحدق فى عالم متغير، لم يكن يتسمر هذه المرة أمام منظر ما ولكن أمام حقيقة كثيرًا ما كان يبحث عنها، سلوى فى الأبيات المقفية التى كان الآخرون يلقونها أمامه سواء عن التعانق أو المدن أو الطقس، وكثيرًا ما كان يستعين بتلك المأثورات بإسهاب، ولكن كل ذلك قد انمحى من رأسه تماماً. لعل التحضير لذلك استغرق أسابيع فى صمت

تام، ثم قال بصوت منخفض: "حذار.. حذار! سوف ينقلب الأمر إلى الجدية." لم يستطع إيجاد كلمة أخرى بهذه السرعة، ولكنه كان يرغب فى النطق بشىء، حتماً، حتى يختبر العلاقة بينه وبين الكلمات، لا، بل بينه وبين التلفظ البحت، أخذ ينظر إلى الأشياء الواضحة والعارية، زوجان شابان يركبان دراجة بخارية، سيدة عجوز ملتحفة بالملابس وترتدى حذاء برقبة تقف إلى جانب حمار محمل بنبات الشمر، ورأى صاحب مطعم البيتزا وقد أمسك بمكنسة فى يده، ورجل يرتدى لباس البحر، يقرأ الجريدة وهو يعبر الشارع، ورأى الأفق، كان هناك كشىء منعزل عن كل هذا وبعيد عن هدوء الحال والراحة، فتحسس ذقنه، لم يعد هناك قدوة أو نماذج، كان هو لحاله، أصبح عليه من الآن فصاعداً أن يشق طريقه صوب ساحل غير معروف وأن يصنع خارطة حيث لا توجد أية خرائط له. كل شىء كان مسألة بينه وبين الأشياء، دون توصيفات أو نبوءات، تلك الأمور التى كان يتدلل ويتنعم بها لفترة طويلة، إن عالم الأمس نفسه أصبح عالما آخر، يختلف عن ذلك الذى كان موجودًا منذ قليل، ولكنه بلا عنوان. حتى أوثان طفولته ورموزها التى كانت ترضيه حتى تلك اللحظة، احترقت كلها بنفس واحد، وأخذت تنفث الدخان فى خرابها، تلك الأطلال، تلك الأنقاض، يحاول الآن فجأة أن يقول : يا إلهى ! كم هذا رائع، لطالما كنت فضولياً ومحبًا للاستطلاع. فلننظر إذًا ما الذى ستسفر عنه

الأمور، قد يكون مجرد عسر هضم، ثم ينتهى الأمر مجدداً ! ولكنه نظر بميل تحته، صوب جانب الشاطئ ليرى الشاب سائق الدراجة البخارية وهو يخرج من محل السلع الغذائية بعد أن أجرى محادثة تليفونية وقد أمسك بآيس كريم مغلف فى إحدى يديه، ثم مزق ذلك الغلاف وأخذ يحملق فى بسكويتة الشيكولاتة المخططة وألقى بها على الأرض غاضباً، وعاد ليقف إلى جانب دراجته البخارية الجميلة، وقد تصبب عرقاً بما يفوق كل الحدود بالتأكيد، وأطرق برأسه حزيناً، لم يلق نظرة واحدة على ذلك الخليج المبارك، اقترب منه الرجل القصير الذى كان يراقبه وأخذ يوجه إليه الأسئلة، ولكن يبدو أن الشاب لم يجب عليها فى حزنه هذا، حتى انسحب الرجل وتركه إذا لم يحظ سائق الدراجة البخارية حتى الآن بالنجاح مع أناشيده على الماء والشاطئ والحجارة. لا .. ازداد الأمر جدية، ولم تعد المسألة مجرد حب استطلاع أو نوع من التغيير، لقد ازدادت مقاومة العالم الجديدة تماماً، ازدادت صلابة ولم يعد ماتياس روت الذى ازداد انفعاله وتأثره بكل هذا، لم يعد يرغب فى العودة.

ظهر العالم بشكل جديد تماماً، كما لو أنه فجأة أصبح مصنوعًا من الزجاج، ويحتمل أن الأمر تطور حتى امتد إلى قمم الجبال فى المناطق المجاورة ليعلو فوقها كذلك، دون خوف، أما هو فلم يتجرأ على التنفس من فرط التوتر فى مواجهة ذلك النمو الصامت وقد فكر أنه كان بمثابة احتجازًا مفاجئًا

ومُريحًا داخل عنصر غريب، ألم يشعر بأنه منتشر فى الطبيعة، وأنه موجود فى كل مكان؟ مركب شراعى ظهر على يمينه فى أسفل وهو ينعكس برقة، حركة صغيرة داخله! رأى إضاءة المنحدرات والحوائط الصخرية وهى تخرج وردية اللون من داخله ثم استلقى أسفل إحدى أشجار الصنوبر غير ضاربة القدم وكانت إبرها الطويلة فوقه تعلوها السماء اللامعة ذات البريق، وكانت الطيور تمر به منطلقة بسرعة فائقة مثل طلقات الرصاص، بينما أخذ هو يدفع جذع الشجرة بكعب قدمه ليشعر باهتزاز الشجرة، إنها هدهدته المنبعثة من قوة داخلية، وأثناء السباحة فى مواجهة الجبل الرمادى اللون والأعلى من بين الجبال عن بعد، ذلك الجبل الذى أغلق الوادى برأس عالية وأجنحة منبسطة، تغطى هو بالجبل، وفى نفس الوضوع، أى برأس منتصبة، وأكتاف محدبة، كان يملأ معالم الجبل، وكان يرغب فى الشعور بنداءات الطيور فى أطراف أصابعه، والإحساس بوقع الشمس والأشجار والريح الذى كان يهز الأغصان، فى عروقه وفى عضوه الذكرى، وكان يرغب فى التحليق فوق المرتفعات والغابات والأدغال، والطرق الجافة بسدودها الصخرية، وفوق الأشخاص الذين كانوا يسبحون ومعهم مناشفهم، والسيارات الكائنة تحت الشمس الساخنة، وقد استغرق هو فى جنوحه هذا حتى أنه لم يكن ليعرف أين ينتهى هو نفسه بين السماء والأرض والبحر، كان الليل والنهار ينبغى أن

يتدفقا ويفيضا فوق التلال ويلامساه برغبة، أما هو فكان يرغب فى أن يذوب دون تردد أو اعتراض، كان يريد أن يصبح سطح ماء مموجًا تعلو أطرافه التى تبدو كما لو أن أصابع ما هى التى حركتها وقبضت عليها، تعلو فى لمعة خالدة لا مثيل لها، لم يعد الأمر يتوقف على ما إذا كان يمر مرور الكرام بكل الملذات فقط خوفاً من الرواسب، فعليه أن يتذوقها أو يتصرف عنها على الفور نعم، لقد غرق فى الطبيعة وإذا ما كان يرغب فى الابتعاد عنها ويتركها وراءه بوصفها ماء وحجارة، وقد انقطع عن مراقبتها، فإنه سوف يأخذها معه رغم ذلك كصورة خاصة، فى وقت ما بعد الظهيرة بدأ التل يلتمع مع الأشجار تدريجياً، بريق أخضر اللون، ولم يعرف هو إذا كان هذا البريق يأتى من الخارج أو من الداخل، يجب أن يكون من كلا الاتجاهين، فقد ظل بعد غروب الشمس بفترة طويلة، فى صدى لمعان مختزن، نظر إلى المنحدر ذى البريق الأخضر ثم التفت ولم يستطع أن يصدق أن الشمس قد اختفت، عاد والتفت إلى المنحدر مجدداً، حيث مازالت الشمس موجودة فتحلى بقوة كبيرة تفجرت من الأرض لتتصاعد إليها، هكذا كان يرغب فى رؤية العالم، هكذا كان يرغب فى أن يذوب العالم بأكمله داخل تلك المنطقة، فى الليل أصبح المجال الذى يعلو الخليج مكاناً مطلقاً، كان بإمكانه أن يقتلع كل النباتات والأسوار من تحصيناتها ويمتصها، إلا أن الحياة الحيوانية والآدمية أصرت بعناد على العطش والجوع

والنوم والغريزة الجنسية، أخذ يتجول ويتوقف صامتاً عند أماكن كثيرة حتى جلس فى نهاية المطاف فى مطعم البيتزا إلى جانب صاحب المطعم على البار بوصفه آخر ضيوفه، وأخذ يحتسى شرابه بسرعة وهو يبدو سعيداً فى عين صاحب المطعم.

(من رواية رامى السهام الخيال Berittener Bogenschütze ، ١٩٨٦).

بالكلمات نرغب فى إيجاد الوضوح، ونفرز بالمفاهيم حقيقة قاطعة، أما ما لا يمكن أن نسمح بوجوده داخل هذه الحقيقة باستخدام المفاهيم فقد منعناه، بل أكثر من ذلك، فقد جعلناه غير متاح، ليس هناك ما هو أكثر أهمية وأكثر راحة، فكلما زاد الموقف ارتباكاً وحيرة، كلما أصبح لا غنى عن هندسته بالمفاهيم وحزمه وتجميعه صوب اليمين وإلى اليسار، إلى أعلى وإلى أسفل، فنحن نضع المفاهيم فى علاقة بينها وبين بعضها ونكون بذلك قد خلقنا لأنفسنا فى الحقيقة وضوحًا دائمًا وباعثًا على الهدوء، ولن يثور أحد بسبب هذا الاتفاق ثانيةً، ويمكن من حين لآخر أن نستبدل نظامًا كاملا من المفاهيم أو شيئًا آخر، أيديولوجية تامة بنظام آخر أو أيديولوجية جديدة. كما أننا اتفقنا فى صمت على أن ذلك لن يصح دونها وأنها تفيدنا طالما أننا نحتاج إليها (.....)

«إن العلامة المميزة للبيئة المريحة هى الرغبة فيما هو ساكن ومستقر، فهى تحدد مكاناً وتؤمن الحدود حول هذا المكان وتعطى تقريراً عن تكثيف خبراتها فى

هذا المكان، والمتعلق بجو البيئة المريحة يعيش إذاً فى عالم غرفة المعيشة، الذى لم تعد نشأته تعنيه (يورجن بوشـه: أيدولين ـ أى الصورة الصغيرة، فى : يورج دريفز، هانز ميشائيل بوك، الأنانى [١]فى المروج، طبعه Edition Text + Kritik 1974 ، ص 103).

يوضح شتيفتر [٢] تلك النشأة أو ذلك الاتمام ! فهو يوضح تركيب أفق ثابت بوصفه ضرورة للحياة (فى قصة جرانيت Granit ، تعليق فى هامش للناشرة)، ويبذل الجهد الذى يجب أن تتم به الأمور بلا انقطاع، بشكل مباشر وواضح دون مراوغة، كما أنه يعرض نظرية للبقاء حياً فى عالم مبهم (كما كان دائماً) فكتاباته هى استراتيجية واضحة، استراتيجيته الخاصة ليبقى هو نفسه حياً.

(من: البيئة المريحة للمفاهيم. لأولبرت شتيفتر. فى: القفز فى الهواء وفى العش، للأدب والفن، ١٩٩٥).

---

(١) Solipsist هو القائل بالأنانة Solipsismus وهى نظرية تقول بأن لا وجود لشىء غير الأنا، فهى ترى كافة الأشياء فى العالم الخارجى وما يسمى بالأنا الغريبة مجرد محتوى وعى الأنا الخاصة (المترجمة).

(٢) أولبرت شتيفتر: ١٨٠٥ ـ ١٨٦٨ أديب نمساوى نادى بالقانون اللين الذى يعترف بالقوة الدافعة لحياة الإنسان والطبيعة فيما هو كامن وبسيط (المترجمة).

البُعد

«كل شيء شديد القرب، ليست سوى «فركة كعب»، دائماً على مرمى البصر أقولها فى نفسى من فيستلاند [1] إلى إنجلترا، إسكتلندا، وأيسلندا، هوب إلى جرينلاند، هوب إلى نويفوندلاند [2] ، لنصل الآن إلى مجرى نهر سانت لورنس، ثلاثة آلاف كيلو متر على سطح الماء حتى نبلغ دواخل الأرض. أخذ شنورر يقلب العسل بالسكين خارج البرطمان وهو ينصت كم أثارت أسماء البلاد حنقه ابتداء من أيسلندا، بل لعله بدءاً من إسكتلندا، تلك الأسماء التى أخذ أخوه يطلقها بينما كان يدهن - فى عجالة من أمره - رغيفًا آخر من الخبز، كما لو كان يتعين عليه فوراً الرحيل مجدداً، وكان شنورر يرغب فى التفكير مراراً فى هذه البلاد مستقبلاً، أى عندما ينشغل بعزق الأرض أو

---

(١) Festland تعنى بالألمانية اليابسة ولكنها مستعملة هنا من أجل السجع مع كل الكلمات التى تنتهى بمقطع لاند (Land) (المترجمة).

(٢) وتعنى بالألمانية الأرض التى عثر عليها مؤخراً (المترجمة).

التمشية، وكذلك وهو جالس أمام مكتبه، وعندما يتلاعب بالأشياء الصغيرة، وما هى الخلفيات التى قد يؤدى إليها ذلك، قد يهتز قلبه فرحاً، إن الممحاة والأقلام الرصاص من شأنها أن تذكره بسهولة بهذه القطع الشمالية الضخمة، التى تمثل إعجازًا، عندما يتذكرها فقط، وهذا هو ما كان يريد أن يتحقق منه، وإذا ما فتح الشباك عندئذ تكون مسألة القرب الشديد أو فركة الكعب تلك ليست بالصعبة، حيث خط السير من عنده هو، شنورر إلى نويفوندلاند ليعود من نهر سانت لورنس مرة أخرى وينفذ من خلال نافذته الصغيرة.

«إذا ما نجحت فى ذلك، فإننى سأصل فى لمح البصر! ولكن هنا تطبق السماء علىَّ بعد أسبوع واحد. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. من لوح قفز إلى التالى، فإذا بى أهبط أعلى جبال روكى، لم تعد تلك تعتبر اليوم بمسافة بعيدة»، قالها أخى وهو يزمجر، لأنه قد اعتاد على الوحدة بين الدببة والعقبان والطريق السريع، وكان قد فر ثانية حيث إنه لا يطيق الحياة هنا لابد وأن أخى فكر قائلاً: «أخرجونى من هنا فحسب»، وأكيد أنه كان يزأر أيضاً أثناء التفكير، فقد كان دوى الأماكن المقفرة يظهر على وجهه، كل الأخيار يجب أن يأتوا معى إلى كندا إلى الأبد!

هكذا شعر شنورر، الذى أخذ يقلب فى فنجانه بهدوء وسكينة دون أن ينصت إلى الصوت اللطيف لا ، بل إنه أمعن فى الإنصات إلى الضجيج المسكن الذى تبعثه الملعقة فى عناد وتحد، فهو لم يكن مضطرًا

للذهاب إلى هناك، حيث تكفيه جرينلاند، فليس هناك أى شىء أبعد من جرينلاند على أية حال، جرينلاند، التى تصبح فوقها العواصف الحديدية المظلمة، وبعدها تتضاءل المسافة مرة أخرى، ولكن تلك البلد، جرينلاند فقد رآها فى إحدى الشرائح المصورة التى التقطت من الطائرة، وكان اللون الرمادى الأردوازى يغطى حواف الصخور وهى تحاول جاهدة أن تبرز من بين كتل الجليد. ولكن لم يكن هناك شىء آخر دون ذلك على مدى الشاشة الكتان بأكملها، ولا يمكن أن يكون هناك شىء أكثر رهبة فى هذا الضوء الغامض ولا أجمل فى تهديده وصده، كم كان جميلاً ذلك الشعور بالإطباق على الروح والضغط برفق، ذلك الذى يراه الإنسان ملهماً بشكل مروع وهو جالس على كرسيه.

«هناك عقبان كثيرة للغاية تحلق فوق البيت. ذلك البيت الذى بنيته بنفسى فى حين أن قطعة الأرض التى بنى عليها أكبر بعشرة أضعاف أو حتى بعشرين ضعفاً من المعتاد لديكم. وعندما أشرب قهوتى هناك»، وكان فى العادة يحتسى القهوة فى رشفتين،" أستطيع أن أرى الشمس وهى تشرق فوق جبال روكى، هل تعرف عموماً كم مرة يمكن لبلدكم ألمانيا الاتحادية أن تناسب حجم هذا البلد؟ لقد عثروا على آثار عملاقة لديناصورات". ضحك الأخ، ضحك ملء شدقيه وملء معدته وضحك على الكميات والمسافات ولكن لم يضحك له هو شنورر، ولم يضمن أى شىء مما يتواجد هنا، وكاد أن يلقى بالفنجان، ذلك الفنجان

المتناهى الصغر، عندما كان يوضح بيد بانى البيت الذى يملكه حجم ثمار التوت والدببة، تلك اليد التى تعجب لها شنورر.

ارتدى الأخ سترة ضخمة عندما خرج كلاهما فى جولة استطلاعية فى الخارج، حيث كان هناك الكثير ليشاهداه، الكثير مما يتطلب عرضه على شنورر. ولكن لم يكن الأمر كذلك وهو ما شعر به شنورر نفسه. فاللون الأخضر كان ملجماً ومروضاً، وكانت الطرق محددة مسبقاً، والطيور عادية تماماً، والهواء فاسدًا، كان مثل هواء الدمار الحقيقى فى منطقة الأقزام هذه، كل شىء هنا كان مألوفًا للغاية، فقط هى فصول السنة التى تجعل الشجيرات تبدو أكثر روعة كل ربع عام، كل شىء يبعث على الضحك، كان ينظر إلى جانب أخيه، الذى لم يكل من الحديث عن المسافات والأبعاد خلف فركة الكعب، ولم ينظر أبداً إلى المربعات الصغيرة وقال عندئذ: "طبعاً، عندما لا تتعرف على شىء آخر ! لقد خطا الأخ خطى كبيرة عبر كومة القمامة هذه، عبر طبيعة مسرح العرائس تلك التى مزقها بنظراته، خطا خطوات يبلغ مداها سبعة أميال صوب جبال روكى فى حين كان شنورر لديه مكان صغير ولطيف يتباهى به، ولكنه تركه لتوه لم يكن ذلك ليصمد حتى أمام سأمه وضجره حقاً، لم يكن هذا بشىء إذا ما قورن بالموجود.

وبعد مرور النهار الطويل، أى فى ليل، وعندما يُمسك بزوجته ويجذبها إلى أحضانه فى حين يتخيل وجود غيرها معه مما يشعره بالرضا، يصبح كل شىء

أفضل، لقد تعرف عليها على طاولة بين أناس كثيرين، تعـرف عليـهـا وفـاز بهـا آنذاك دون أن يلحظ أحـد، ولاسيما من خلال تعليق ملىء بالإشارات والتلميحات عن سيجارة، استمع الجميع إليه ولم يفكر أحد فى أى شىء، وحدها هـى التى عرفت كل شىء وضـحكت فى نفسها، لأنها أدركت حجم بذاءة تلك الجملة القصيرة والنسبية والمواعدة الكامنة فيها، كم ضحكت وشعرت بالراحة فى عالم التلميحات والصغائر الذى عاشا فيه دائماً ولم يموتا به بعد، وقد سعدا بصيحة واحدة من صيحات اليوم فى المساء ألم يسر الأمر بشكل جيد ؟ نعم.

كان يستمع إلى أنفاس زوجته فلاحظ أنها لم تكن نائمة، من يعرف ما الذى كانت تتخيله وهى مستلقية بالقرب منه، من كان ليعرف ذلك؟ ولكن ألم يستلقيا هنا معاً فى راحة وسعادة لذا فهما يتلصقان ببعضهما البعض، لأن الرياح الصحراوية تنوح حول الأسوار قادمة من جرينلاند القفراء ؟

(من: شنورر Schnurrer . حكايات، ١٩٩٢)

إن ما يجعل هذه العملية أشبه بصورة الحياة الهادئة الجميلة واضحة وجلية، ولكنه يندرج ضمن تعاملنا مع الحقيقة سواء اعترفنا بذلك أم لا، وكل ما ننظمه أو نقفيه مع بعضه البعض يعد مقارنة بالواقع تشبهاً بالحياة الهادئة، أو أنه كذلك من الناحية التركيبية، بغض النظر عما إذا كانت الكلمة المقفاة جميلة أم قبيحة. إذ أن الأمر لا يصح دون مثل هذه الأغلفة المنقسمة، مثل هذه الأيديولوجيات التى تخص الحياة بأكملها وما تتضمنه من معايشات.

(من : خاتمة فى. المرج Die Wiese. حكايات ١٩٩٣).

البدائل ؟ لقد حدث أن تحرر اللورد شاندوس من السياقات، أما التعويض عن الآلام الهائلة الناجمة عن ذلك فيأتى فى صورة نظرات، لحظات من أقصى درجات التكثيف غير المسبوق، لحظات يعايشها فى مواجهة الفئران والأحجار والأباريق: دون معنى.. دون تلميح، دون إشارة: مشاركة دون مطالب، وفرة وحضور للأشياء غير المحكومة، التى تغمره. يبدو الأمر كما لو كان مشدودًا إلى بُعد جديد: «لقد كان الأمر أكثر روعة وأكثر حيوانية، لقد كان حاضراً، أثرى أشكال الحضور وأروعه» إنها لحظات، تعد الحياة فيما بينها قد جفت لتصبح صحراء، إنه يعيش ويتواجد الآن بشكل جزئى فقط، هل يمكن لأحد أن يعيش هكذا ويحتفظ بعقله رغم ذلك؟ حيث إن هؤلاء الذين مازالوا فى طور المواساة لم يجربوا ذلك بعد. أى إنهم لا يدعون الخيط الأحمر الذى يربط لهم الأمور بنهايات جيدة أو سيئة، يفلت من بين أصابعهم وهذا يعنى أنهم يجعلون العالم أكثر راحة، أو بالأحرى يمكن فهمه، ولا سيما يمكن التكهن به ـ أيًا كان الثمن.

(من: الأشياء ليست فيما بينها Die Dinge sind nicht unter sich (1978)! حول عمل هوجو فون هوفمانشتال «أسطورة الليلة رقم ستمائة اثنين وسبعين. فى: مقالات عن الأدب1987).

على أرضية ذهبية

الحضور الصادق للأشياء

على أرضية ذهبية

الحضور الصادق للأشياء

«لا وجود لأفكار سوى فى الأشياء»

حول لوحة ديتر أسموس: قطة + فأر

قطة فى حالة مزاجية جيدة، وفوضى من الأشياء البسيطة فى مواجهة صارخة بين بعضها البعض تناثرت كلها فوق أرضية صفراء اللون، تجعل الإضاءة الباهرة تبدو مضاعفة من أسفل، هذا هو ما يتراءى لنا عند النظرة الأولى.

وماذا بشأن النظرة الثانية؟ تظهر ظلال معالم القطة وقد امتدت حول ظلال الفأر الذى يبدو أنها أردته قتيلاً قبل ذلك، كما يختلط غليون مع أعقاب سجائر بين عالم ترسانة حجرة الأطفال، مزيج من

عالم البالغين أى من جانب، إبراز ثنائى للطبيعة، تارة حية، تارة ميتة، بوصفها أكبر جسم متكامل ووحدة ما هو ليس ملونًا، ومن جانب آخر الأشياء الملونة بحيوية والتى لا حياة فيها من بادئ الأمر والمصنعة إلا أن هناك حبة جوز قد اندست بينها عن طريق الخطأ.

محاولة جديدة للتفرقة: هنا أبطال حدث دامى، وهناك الآلات المسالمة فى اللعبة والفراغ، وصولاً إلى التليفون الأحمر الذى يوجه بحسب الاحتياج حيث يمكن أن يدق فى تلك اللحظة، ولكن ماذا عن الدبابة المدرعة الصغيرة الكائنة فى وضع مائل بخطوط الأرضية التى تشكل أرففًا، ذلك الميل الذى يزيد من عدم استقرار تقابل الأشياء؟

كما لو كانت أصابت الأشياء بتلك العدوى حتى أن الأشياء تساندها فى ذلك، فقد أخذت تتمطى، إنها الجانية، القاتلة، التى تشكل مركز ثنائية المعايير السائدة هنا وشاهدها الرئيسى، تلك الازدواجية التى تقوض النظرة الأولى بهدوء، ها هى تجلس فى أكثر الأوضاع براءة ومكرًا. فهى تتوسط رموز انتصارها التى نسيتها بالفعل، يميناً ترقد الفريسة، وعلى اليسار القطة تكاد تكون مطبقة عليها، ثم فوضى الأشياء المبعثرة الناجمة عن عملية القنص، تبدو هى نفسها مهتمة بمشاهد اللوحة الذى يتسمر أمامها بجسارة، ولا سيما بوصفه مصدر إلهام وارد لتسلية

مستقبلية، بغض النظر عما إذا كان هو كائنًا حيًا الذى ستكون عاقبته وخيمة أم أنه النظام فحسب، ومن خلال التواصل البصرى الذى تجبرنا هى عليه بوصفها موضوع الصورة الوحيد، فإنها تبرز دورها كشخصية أساسية، أو بوصفها الذات الحاكمة داخل اللوحة، وتؤكد أنها هى مسببة تلك الجلبة، أو بالأحرى الحدث، على كل حال: فهى محور اللوحة بلا جدال وبلا منازع.

إلا أن حقيقة وجود أحب ألعابها، ولا سيما الفأر الميت، الذى يوثق للحدث السابق، شديد القرب منها، دون أن يلفت النظر، بل إنه يكاد يكون خجلاناً وهو ملتصق بخيال القطة الفاصل بينهما، كل هذا من شأنه أن يعمل على إضعاف تلك الجلبة، فالقطة والفأر فى مجملهما، وهما يشكلان من حيث المحتوى التجسيد الأكثر درامية، يحتلان مساحة أصغر بكثير من كل شىء بين هذه الأشياء المتناثرة المتواجدة ليس إلا، كل فى عزلته.. متناثرة؟ مشتتة بين الحركات الاحترافية، التى تبدو فقط بمحض الصدفة والتى تقوم بها الصائدة وفريستها من نظام كان يسود سابقاً أو عدم نظام إلى فوضى ومنظورات أخرى! إنهم يدينون إلى مخرجة الموقف، إلى القطة، بأن أوضاعهم تشكل مجال قوة حبيسًا، ولكن تظهر عليهم علامات عاصفة المطاردة بادية كتجسيد لما دار من قبل. فهم يؤمنون من خلال طريقة حضورهم الخالص - وهم منتفشون مثل ريش الطاووس للقطة - يؤمنون طاقة الوحش الكاسر التى تفجرت دون شهود منذ قليل.

كما يبدو أنه فى اختيار الأشياء وفى الإطار المحدد (لغرفة الأطفال) تسود العشوائية، والجبروت، أم أننا أرضية مرسم لفنان ما؟ حيث تشير بعض اللوازم المتعلقة بالأمر إلى ذلك الاحتمال، هل يمكن ألا يتعلق الأمر بالنسبة للأشياء، ببعض الأدوات المحببة إلى قلب الفنان انطلاقاً من الاهتمام بردود الأفعال المختلفة لطبيعتها الفردية، ومرونتها الشخصية والسطحية الخاصة بها فوق إضاءة معينة ؟ فالمسألة هنا تدور حول أشياء تافهة على أعلى المستويات، تمر بها العين غالبًا مرور الكرام بوصفها من الأمور اليومية العادية للغاية. ولكن الآن، وبعد أن عمل الطُعم السيكولوجى لإحدى القصص المصغرة عمله، وفى هذا الظهور الاحتفالى، تحولت إلى شىء غامض، ولاسيما دون استخدام مناطق إظلام.

ويظل تنوع الأسطح المختلفة لزهر النرد، أو لصندل مصنوع من البلاستيك، ولبطن القطة، موجهاً من أولوية الاندهاش المعمم أمام حقيقة تشكيلها، ومن شغف بعرض التصميم فى حد ذاته، الذى هو نقيض المفهوم، أو الشفرة، بقع الألوان، وانطلاقاً من وجهة النظر تلك لا يعد قتل فأر (وهو حدث شبه يومى) أكثر إثارة بأى حال من الأحوال عن تجويفات أنبوبة الألوان المطبقة وتقوساتها، التى لا تتفاعل مع الإضاءة القوية بشكل أقل لفتاً للأنظار عن فراء قطة أو عن جبل، وهو الأمر الذى لا يساوى بين الأشياء ولكنه يجعلها تتساوى من حيث كونها جديرة بالمشاهدة مبدئياً، إلا أن ذلك سوف يناقض بشدة

طريقة تقييم تتدرج بحسب الأهمية والمعنى قبل الملاحظة الدقيقة.

جعل الرسام الحدث وسكون الأشياء بنفس درجة الكثافة أمام النظرة الأولى والثانية حيث إن أكثر اللعب اعتيادية، وطفاية السجائر، والأسلاك بوصفها ممثلة للأشياء التى تدعى أنها تافهة لا يمكنها أن تكفى لتلك المناورة، ويتجلى ذلك بوضوح أكثر فى أن طريقة الرسم هى التى تمنحهم حالة الواقعية المشاد بها، وتعامل الأشياء كما لو كانت «حجر نفيس»، تلك الأشياء التى ليست بالبريئة ولا بالمذنبة، لكونها ظاهرة مع المشهد الملفت للنظر لردة فعلها الطبيعية التى يمكن توجيهها ولكنها تبدو طبيعية فى حتميتها مجدداً، كما أنها فوق الضوء على نفس درجة الجدية ومتراكمة، الواحدة مثل الأخرى فى تجميع للجزئيات، واقع أصبح مألوفاً بالنسبة إلينا فى تلك الأثناء أكثر من حقيقة أنها تمتلك طريقة ظهور حساسة، أو كيفية التعبير. «ويشرئب ذلك الحجر النفيس بعنقه ويرصد ويتخطى بنظره ما دونه حتى يحبس داخل نفسه» (المُعلم إكهارت) (*) ولكنه يحظى من جراء تجرده بشىء غامض وبطريقة غير متوقعة وبعناد شديد.

هذا ويضاف إلى الأرضية المكونة لخلفية الصورة وظيفة أخرى إلى جانب ما ذكر آنفاً، حيث إن عراء

(*) Mesister Eckhart (١٢٦٠ ــ ١٣٢٨) واعظ، متصوف كان يعيش فى باريس وكولونيا كان يسعى إلى توحيد الروح مع الذات الإلهية (المترجمة).

عدمها يشكل القاعدة المثالية لظاهرة شكل الأشياء المناقضة، وقد عبر أوجوستينوس [1] بوجل عن الافتتان بالأشياء، ونظراً لأنه كان يعتبر أن الإغواء الكامن فى ظاهر المشهد الأرضى شيء يستحوذ على الحواس والروح ، فقد كان يعتقد أنه يتعين عليه نبذه ورفضه، إلا أن الشاعر اليسوعى الإنجليزى جيرار مانلى هوبكنز [2] كان أسعد حظاً فى حل السؤال المطروح أثناء القرن التاسع عشر، ولا سيما فى المعايشة المفخمة لرؤية الأسطح الدنيوية، حيث حاول فى كل قصيدة من قصائده بوصفه «رجل الله»، أن يستحضر أشياء العالم ويضفى عليها النقاط عن الطريق الضوء على سبيل المثال لتتخطى «شكلها الداخلى» و «قوتها الكامنة» بوصفها وحيًا مباشرًا لخالقها، لأنه كان يعتبر مظهر الأشياء أبلغ إعلان عن نواتها، بل مطابقة لها، أما فى القرن العشرين، وهو قرن التجريد المفضل للإحراج الذهني من ابتذال الحقيقة الواضحة، فقد نادى الشاعر الأمريكى وليام كارلوس ويليامز [3] بإنقاذ مشهد الأشياء، ولكنه كان مذعوراً هذه المرة من نفيها المهدد، ومن إختفائها الذى بدأ يعلن عن نفسه، وذلك بقوله: ليس هناك أفكار سوى فى الأشياء _: -There but in things

---

(١) Aurelius Augustinus (٣٥٤ ــ ٤٣٠) أسقف ومعلم فى الكنيسة بالغ الأهمية فى الغرب كان مقتنعاً "بإمكانية المعرفة. الداخلية المضيئة للروح (المترجمة).

(٢) Gerard Manley Hopkins 1844 - 1889.

(٣) William Carlos Williams 1883 - 1963.

are no ideas سيارة مطافئ.. قطة.. عربة جر حمراء، وترام.

تظهر كل الأشياء فى لوحة ديتر أسموس الذى رسمها فى الفترة من ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠: هل تظهر بشكل وثنى؟ أم صالح؟ أما زالت هكذا؟ ثانية!

فهى تبدو جافة وفى نيران احتفالية، إنها نداءات مثبتة ومدفوعة انطلاقاً من أرضية ذهبية اللون تحولت إلى الدنيوية، كما أنها أرضية مقنعة، وتبدو الأشياء فوقها كذلك، كما لو أنه ليس هناك معجزة أكبر منها هى شخصياً : مشبك غسيل.. صافرة.. حدقية قطة ومنقاش كعك.

(فى : الخلوة ورسولهاDie Einöde und Ihr Prophet ، حول الناس والصور، ١٩٩٦)

أنا مدينة لديتر أسموس بتوعيتى وتقوية افتتانى الخاص بالأسطح، نعم وأود أن أصيغ الأمر بشكل أكثر استفزازية : بسطحية العالم، التى قال عنها جوته.. لا شىء بالداخل ولا شىء بالخارج، لأن ما بالداخل هو ما فى الخارج ، وكذلك افتتانى بقوة الحاضر الخالص، وبالوضوح المطبق الذى لا يمكن سبر أغواره للظاهرة.

(....)

ولكن هل هذا هو المرغوب فى الفن؟ فقد كانت أول مرة أشاهد فيها لوحات لديتر أسموس مع زوجى أرمين شرايبر قبل خمسة وثلاثين عاماً فى أحد

معارض مدينة كاسل لجماعة زيبرا ZEBRA التى كان أسموس أحد أعضائها المؤسسين. وقد أدهشتنا تلك اللوحات التى كانت تختلف تماماً عن الإنتاج الفنى المعروف لدينا آنذاك (...) ونظراً لأنه صادف أن زوجى كان قد آل إليه إرث متواضع، فقد قرر أن يطلب من الرسام إحدى لوحاته، رغم أننا كنا حتى ذلك الوقت لا نمتلك أريكة أو غسالة كهربائية بعد وظللنا لمدة أشهر طوال نشاهد بشغف كبير ذلك العمل الذى كنا لا نعرف منه سوى الرسم التخطيطى، وما الذى كانت تصوره تلك اللوحة؟ ليس سوى حشرة قرقف صغيرة، تنتقل فى طريق طويل من ورقة إلى أخرى أمام حائط قراميد كبير، أنا نفسى رغم كونى لا أخشى فى الأدب من الإزعاج، أدهشنى فى البداية هذا الاقتضاب وذلك الفراغ، ولكن كان يجب النظر إليها دائماً، لم يكن هناك ما يجب أن يخُفى، لا ضباب، ولا تعتيم، ولا سطحية.

إن ما كان وما زال يربط بينى وبين ديتر أسموس بغض النظر عن الأنماط والتطورات الفردية هى النزعة صوب ما هو نظامى، ومنهجى (القفزات والمفاجآت ليست مستبعدة)، والنزعة إلى خلق أساس يمكن متابعة السير عليه خطوة تلو الأخرى، وذلك كله إلى جانب الولع بروعة ما هو مرئى. إنه الاهتمام بالأشياء ذاتها فى الإضاءة المختلفة ولكن دون تقليصه إلى فعله المنعكس الوسطى، كما لو كان الواقع المجسم ليس سوى شائعة لا تصبح معروفة إلا عبر الصحافة

والإذاعة والتليفزيون، إنها القناعة بأن الفن فى المقام الأول هو وضعية، إنه خلق للعالم يعود دائماً إلى حقيقة مادية.

(من: بريجيته كروناور: فى افتتاح معرض ديتر أسموس فى جاليرى المدينة فى فيلباخ ٢٠٠٤).

ما أفتقده هو ليس اللوحات المرسومة بالطريقة الحرفية القديمة ولا تلك التى تصور مروج شجر الليلك وتجلس بها الجدات.

إن ما ينقضى هو ليس تلك الاستشهادات والاحتياجات، بل صور لا تغفل الحداثة الطاعنة فى السن، وتخفى خلفها صورًا تنازل الواقع المعاصر بشدة، ولكنهما فى الحقيقة يتواجهان بوصفهما مختلفين تماماً، كما ينقضى تأكيد تحديث العالم من حيث اللعبة التقليدية الساخرة بما هو سابق التجهيز، ذلك التأكيد الذى يشكل تقليداً أو نسخ الواقع دون وجود متحف حوله.

أنا أفتقد ضغط الجمال والفزع، وتكثيفهما وتصعيدهما، ووضع قطاعات من العالم تحت التيار ليس من خلال الخواطر والتصميمات، بل من خلال استهلاك الأشكال التى يجنيها العالم فى كل وقت، أى دون محاكاة أو إهمال وفوضى واكتظاظ للحقيقة من خلال المضاعفة باستخدام الكاميرا، والفرشاة، والمسدس الرشاش والغراء.

وأنا لا آسف على غياب الوجه الإلهى المربع ولكنى أشكو من نقص ذلك الوجه القديم وإخفائه، ذلك الوجه المتوهم باستخدام الفن وقد دس فى قالب الصورة ولا سيما فى ذلك الحصر لليوطوبيا المربعة الشكل وثنائية الأبعاد، التى تمثل عالمًا يتشبث بقوى الإدراك والتخيل والوجدان فى ذلك العالم الذى ينافس مع الحضور العابر والشديد فى الحياة لمدخنة مصنع تظهر فجأة أمام العين، وحضور وجه إنسان، أو صقر.

(من بريجيته كروناور: لعن الجدة فى مرج أشجار الليلك من التقليد الردىء فى الفن فى : بخصوص Betrifft، دار نشر إدينسيون زوركامب، ٢٠٠٤).

بطة ـ فأر سمين ـ إبريق

الظاهرة في حد ذاتها

السويعة الأخيرة علي الإطلاق

جاءت الروائح فى شهر يونيو تتأرجح وتتمرغ مثل كتلة وخليط حتى أنه تمنى وهو يجلس على أريكة المنتزه الجديدة أن تسحقه ودون أن تلحظ تلك الجموع ذات النهود الرخوة مثل الوسائد، تسحقه برقة وخفة، وقد تسحقه مع سيجارة انتهى صاحبها من تدخينها لتوه. وعندئذ طار فوقه طائر صغير واقترب منه قادماً من شجيرات كثيفة، كان صغيراً ونحيلاً حتى أن كارل روديجر أطبق فزعاً فمه الذى ظل مفتوحاً دون تحكم منه فيه، أليس من الممكن أن ينفذ هذا الصغير دون ذلك مباشرة إلى داخله، إلى رأسه مثل الطلقة؟

ظل جالساً على الأريكة فحسب، حتى يجرب الجلوس، إلى أن خطر بباله أنه قد فاته الزوال

التدريجى لزقزقة الطيور فى وقت الغسق. وهنا رأى أمامه على فرع الشجرة بومة، بومة الغابة على ما يبدو وما أن تلاقت عيناه بعينيها حتى بسطت جناحيها الهائلين وحلقت فى اتجاهه مباشرة، ثم انقضت عليه بقوة، كما لو كانت شيئًا آخر أو كان الوضع مختلفًا، كما لو كان هو نفسه فأرًا أو فريسة يسهل قنصها على أية حال.

إلا أنها استدارت أمامه وهى تبعد عنه قيد أنملة دون أن تصدر صوتًا، استدارت ضمن هذا السكون العام، ولكن حالة الاضطراب التى غمرته لم يكن قد تجاوزها بعد.. الموت؟ الموت؟ أخذ يردد السؤال خلف البومة، يطلقه فى الهواء الدافئ، الذى شعر هو فيه بالبرودة، ليست برودة رطبة، ولكنه صقيع لفه حتى قمة رأسه، هناك حيث كان قابعًا، لم يكن يريد أن يعرف أى شىء آخر عن الاختناق من جراء الروائح، لم يكن ذلك كافيًا، ولم يكن هذا بمثابة عزاء بعد تلك المطاردة.

ما الذى يعد مفيدا حقًا عند الضرورة وفى حالة الجد؟ كان الأمر الآن يتعلق بمخزونه واحتياطيه، وبكل ما كان يعده سرًا لحالات الطوارئ، كان يرى زهور الليلك وزهور الإيريس الزرقاء كذلك، والسفن فوق سطح البحر الأملس فى ضوء الصباح، هناك بعيدًا، والقلاع الضخمة، شاردة فوق الجبال بكل بيارقها العتيدة، بعيدة عن الحدث الرئيسى، جموع طواقى

الأساقفة المائلة وعصى الأعلام السامقة على سبيل التناقض، الغرف المنيرة، المرتبة وبداخلها الخف ذو اللون الأخضر، صحون الغسيل، والكلاب البيضاء الصغيرة، وكذلك المكاتب المجهزة والمزخرفة جيدًا، الشجر المورق الذى يحمل أوراقًا لا حصر لها ولكنها وحيدة، الزاهدون، هؤلاء النسَّاك العراة كثيفو الشعر فى سن الكهولة الجامدة فى قلب البرية الساكنة، عمارة المدن الإبرية السامقة حتى السماء مزهوة بنفسها، أصابع الأمهات العذارى العنكبوتية المكتظة ونهودهن العالية، حراك الفلاحين الذين أجبرتهم يد حذرة على اتخاذ أوضاع ذات مغزى، سماء الشتاء المدللة فوق المتزلقين على الجليد وهم مقنعون مثل المومياوات، اللآلئ الزائلة فى القاع الذهبى، الستار، الأوعية، طبيعة النهر غير العابئة والتى لا يمكن للحدث الرئيسى أن يبلغها، وحروقات السحب بأبسط مدلولاتها؟

الموت.. الموت! سأل كارل روديجر بتخوف، لعل الأمر ليس له علاقة بكل ذلك، وكذلك بالبومة أيضًا؟ لم يبعث ذلك على الهدوء، لأنه أُقحم فى اللعبة الآن، شعر بأن رأسه باردة وعارية، سرت البرودة فى جسده من فروة رأسه إلى أسفل، ولم يتبعها شىء آخر.. آه، هل الموت مسألة أحادية الجانب وسرية؟ هو، المدعو كارل روديجر شنورر، قد خلف وراءه كائنًا مكومًا ومتراكماً حقًا، ولكن العالم لم يخلف من جانبه شيئًا فيه خوف؟ نعم، ألم يتدفق العرق، ولكن لا شىء دون

ذلك. لقد انقطعت الصلة، لم يكن يصدق حدوث ذلك بهذا الشكل حرفيًا.. ماذا عن الله؟ رجل، غريم، لطالما حال هذا بشكل مزعج بينهما، إحدى ملكات السماء، قد تكون هى الأنسب فى حالته، فهنا كان هو يعرف ذلك الوجه الأكثر سحرًا، الذى يتسم بالصرامة فى البداية بالطبع، ثم يحمل قسمات السماحة والرقة فوق الرقة. ولكن شيئًا لم يتبق لديه، لم يتبق لديه شىء، ليس حتى تلك القصور الرائعة بأعلامها وهى كائنة فوق القلاع التى فى الخلفيات، لم يكن كل شىء يعرفه ساريًا، وفكر بسرعة أنه لم يكن يسرى فى تلك اللحظة الحرجة، أكثر اللحظات حرجاً على الإطلاق، بل يطبق على الحياة فحسب، ما دام الإنسان يحيا، وعندما حانت اللحظة فى النهاية، سُلب كل شىء منه. سرى الخواء والخلاء فيه حتى أخمص قدميه، ماذا كانت إذاً قيمة كل هذه المُضللات الجميلة، إذا كان هو الآن قد انفصل عنها.. الآن، حيث كان الأمر يتوقف على كل شىء؟ لعله يتعين عليه أن يفر، لقد حاول ذلك وهو يبتسم ابتسامة عابرة _ فقط دون لفت الأنظار ! ، ولكن ساقيه كانتا ترتعدان بشدة، لطالما كان يرغب فى أن يكون الآن مواطناً ألمانيًا، وزوجاً، الزوج شنورر، إذا كان لا يستطيع الفرار، بل من الأفضل أن يكون مواطناً عالمياً، وفوراً.

هناك، بطة.. بطة.. مجرد بطة برية، بطة برية بسيطة، بدائية ولذيذة! ربما كان ذلك هو الخلاص وهو ما لم يتركه فى حيرة من أمره فى ذلك المنتزه

المترقب فى سكون، يترقب ما الذى سيحل به أو ماهية الحلول التى سيصل إليها. بطة! أراد أن يفكر فى ذلك حتى النهاية، بطة تطفو مثل السفينة فى البركة فوق مياهها اللامعة الزلقة، كما لو كانت تستطيع أن تفعل شيئاً آخر، وفى المساء تسبح ثم تغوص فى لحظة دون سابق إنذار، ودون أن يظهر لها أثر، تختفى، لينمحى كل شىء، بدون أى حدس، ببساطة من فوق سطح الماء حتى هاهنا، حتى غمره الدفء بسبب البطة التى أصبحت الآن تغوص فى الأعماق ورأسها إلى أسفل. كان يرغب فى التفكير فى ذلك ولا يسمح بشىء آخر، حتى يستطيع أن يتابع السير مرة أخرى وإن كان ممكناً أن يجف ريشه. ازداد سريان الدفء فى جسمه، حتى ـ وهن، عاودته البرودة مجدداً -تتابع الأمر معه مرة واحدة بطريقة ما.

(من شنورر. حكايات، ١٩٩٢)

وجهت زيجريد لوفلر فى أحدث كتبها: «رباعية أدبية Literarischen Quartett الاتهام إلى شنورر بقصور فى احتواء العالم أو التمسك به ولكن "العالم" لديكى هو كلمة شائعة الاستخدام بشكل لافت للنظر.

أنا أعتقد أننى أستخدم هذا المصطلح بمعان مختلفة للغاية، وأن الجمل المحيطة به هى التى توضح المقصود، أما فيما يختص بمصطلح: «احتواء العالم»، كما تفهمه السيدة لوفلر: فإننى كان يمكننى أن أطلق عنوان «البطة البرية» على الكتاب والذى علقت هى عليه الأمر (فى قصة "السويعة الأخيرة على الإطلاق) ولا أعرف إلى أى مدى يجب أن تكون البطة البرية شيئًا أقل أهمية من الترام أو من أحد الملصقات السياسية، ومن ذا الذى يحدد ذلك؟ من الذى يضع هذا الترتيب فى الأولوية؟

(......)

عند مراقبة لوحة ديتر أسموس والموضوعة على غلاف حكايات شنورر: يضحك ذلك الشخص بشىء

من الارتباك على كعكة، يقف عليها أقزام صغيرة، إن هذا لأمر ساخر ولكن هذا الشيء يحظى بالبريق من خلال طريقة العرض الشديدة الخصوصية تلك، بل يُضفى عليه ـ وسوف أقول الكلمة الآن مرة واحدة ـ بعض الصوفية: ولا سيما من خلال تلقى المراقب للصورة.

وهناك ذلك المثال الشهير للورد شاندوس الذى يخرج عن الأطر والسياقات ـ يشكل الفأر السمين أو الإبريق لحظة خلاص _ كما لوكان يراهما لأول مرة فهو يقف مفزوعاً ومذهولاً ومنبهراً بل متحمساً أمام الظاهرة فى حد ذاتها.

(من: حوار مع بريجيته كروناور: فى مجلة فالتر ١٧/٤/١٩٩٢).

خطاب إلى حصان اللورد شاندوس

حول عمل هوجو فون هوفمنستال «خطاب»

مات وملامحه متجهمة، وشفتاه شديدة التهالك لدرجة أن أسنانه ولثته أصبحتا مكشوفتين مما أضفى عليه انطباعاً غريباً وشريراً: حصان، يحمل اللورد الذى يملكه وهو يكاد لا يذكره ليمر به على نوافذ حجرات الفلاحين المسيجة بالحديد (ليس المعنى فى كلمة الاستشهاد هو واحد من أمثالك، ولكن الكلمة من شأنها أن تستدعى إلى الأذهان وبوضوح صورة أحد أقرانك، ولاسيما تقلصات عضلات وجه أحد رفاقك الماكرين، والذى قضى على إنسان، وهو ذلك الذى وصفناه وهو على مشارف الموت، قتله برفسة منه، بهجوم قاتل بادى للعيان.

إن الضحية هو شاب فى منتصف العشرينيات مثل سيدك شاندوس إلا أنه رأى نور هذا العالم قبله بسبع سنوات، أى عام ١٨٩٥ . كلا الرجلين شاب وثرى، وكلاهما يمر بأزمة فى حياته حيث إن ذلك الشاب،

ابن تاجر أسطورة الليلة الثانية والسبعين بعد الستمائة، ذلك الشاب المرهق المتعب، شأنه شأن اللورد الذى يملكك، نظر خلال النوافذ ذات القضبان الحديدية إلى عالم غريب، حيث رأى منازل أشخاص الطبقة الدنيا، إلا أنه كان مشمئزاً من السطحية الفقيرة للأشياء ولا يطمح ولا يتوق إطلاقاً إلى استلهامها ووحيها مثل مالكلك اللورد.

ربما يكمن الفارق هاهنا : فالميت يتشبث رغم شقائه بصفوة طبقته بلا حيلة، أما الحى فيترك صفوة طبقته على الأقل داخلياً ليرتمى بشىء من المخاطرة فى خضم صفوة الفن المرجوة إلا أنها إجبارية، ولكنها صفوة لا ترتبط بالطبقات.

ولكن ماذا يعنى كل هذا الهراء بالنسبة لك، أنت أيها الجواد، آكل العشب الطبيعى وبالطبع ذو الأربع المستغل فى الخدمة، صبراً ! فابن التاجر يسعى منذ بداية القصة إلى نهايتها، ذلك الفتى الذى يميل للغاية إلى التمتع بالجمال، إلا أنه لا يفهم شيئاً عن أمثالك، أيها الحصان المتواضع، فالأشياء والخدم والموارد المملوكة له ترافقه ظاهرياً فقط إلى هلاكه الخاص بإيماءات سرية، بإشارات يتبعها هو دون أن يفك شفرتها.

ما الذى كان ليهمك من شأن هذا الكهل الشاب المتعب، سواء كنت من سلالة الحصان الأسود، أو الأبيض أو الأشهب، سواء ذكر الجواد أو فرسة أنثى

أو حتى حصان مخصى؟ فهو نفسه وليس شخصًا آخر هو الذى نصب الفخاخ وعقد الشباك التى سقط فيها ليهلك، وهو الذى تورط فيما أساء تفسيره على أنه مجرد نظرة أو ابتسامة، أو قطعة حلى أو حتى جوال دقيق. فالأشياء فى حد ذاتها لا تهمه، ولكنها الطريقة التى تصبح بها الأشياء خدمًا لحاسة مختارة وعمق معطر، أو أنها تخدم فكرة واردة رائعة أو سطر فى قصيدة ـ حتى هلك هو داخلها.

والعكس هو الذى حدث لسيدك، وهو يصرخ فى البداية صرخة كبيرة من أجل تعاسته الجديدة وحريته ليخرج من إطار الراحة الجميلة الكائنة بين الفردية والتقليد، الفن، والبلاغة، والاتفاقات الأخلاقية والصياغات المتعارف عليها، حتى تحريك الكلمات يميناً ويساراً بكل بساطة استعصى عليه، بعدما تعين عليه أن يظل لسنوات طويلة مسخا حقيقيا بسبب عبقريته المبكرة الناضجة وحركاته الشكلية البهلوانية القديمة والنبيلة، حتى اعتبر نفسه شاعراً، وهو يقف الآن فجأة ابن أمه أو ابن النماذج الجاهزة هذا فى مواجهة كلب وخنفساء وفأر وإبريق دون أعضاء اصطناعية، دون توزيع مسبق للأدوار، ولا زى، ولا تنظيم للمراتب، والأسوأ من ذلك كله، دون اتفاق، وبالتالى دون تنظيم للغة.

لقد ترنم على الأدب بصرخة مدوية على ذلك الأمر، أعلى من صرخة اللورد شاندوس نفسه، هكذا

كما لو أنه لم يتم قراءة الخطاب حتى آخره، لقد صاغ الأدب شقاء سيدك المندهش من ظروفه وأحواله الجديدة، فى شكل وروح من ذوات الأربع يمكن خدمتها، لتصبح شعاراً لكتاب فى عصر الحداثة (علماً أيها الحصان بأنه ليس هناك سوء عندما يصمت أحد حقاً ذات مرة فى ضجيج اللغة المتهالك هذا ويدرك أنه يمكن لأحد أن يقول الكثير برعشة متحفظة من فرائه أو أذنيه). «لقد اهتزت علاقة الثقة بين الأنا، واللغة، والشىء بشدة. أول وثيقة فى الشك فى الذات، واليأس من الذات واليأس من القوة الخارقة والغريبة للأشياء والتى لم يعد من الممكن إدراكها، كلها أمور تجمعت فى موضوع واحد». هذا هو ما تعتقده الشاعرة الشهيرة إنجبورج باخمان ما يطلق عليه الارتياب اللغوى، ولكن دون شك فى الذات ليمثل بذلك التفسير الرسمى لها.

وهى على وجه الخصوص يجب أن تعرف أفضل من الآخرين أن سيدك شاندوس الطيب أيها الفرس الصغيرة، يمر، وإن كان باللين والشدة، بتلك الأزمة التى لا مفر منها والتى لا تخلو من المخاطر، ولا سيما أزمة كل فنان يأخذ الأمور على محمل الجد صدمة، تبدأ عندما يظل طفل معجزة وشاب معجزة ! ويتبين أن كل ما كان يسير آنذاك بسلاسة ويسر كما لو أن العالم محاط بألفاظه مثل نوع من أنواع المستحلب، يتبين أنه هدية محددة المدة. وإذا طالت هذه المدة فسوف تتعفن الهدية وتكسوها البقع لابد وأن تُحل

علاقة الثقة الناجحة والمرنة بين الأنا واللغة والشىء فى وقت ما حتى تنشأ علاقات ملكية جديدة وشخصية من الإرث الذى كان يدار بطريقة مستقلة وبفهم كبير للفن.

« التفوق الغريب للأشياء»؟ لقد سلكت الحداثة الطريق المعاكس تماماً، ولا سيما الطريق إلى التجريد، والمحاكاة، وقوة التأثير مثل كاريكاتير رفيع من الميتافيزيقا (أو بديلها؟) لينفجر فوقها من فرط الزهو والفخر. صدقت، والحمد لله- أنت أيها الحصان الحقيقى ذو المؤخرة الحيوانية الجميلة والتى طالما رسمها كل الفنانين على مدار قرون وأضفوا عليها الإبداع لا، فلا نفع لأزمة سيدك اللورد الموصوفة جيداً على الإطلاق بوصفها رمزاً للقرن العشرين ونماذج لغته التى لا تكل، أعنى النتاج اللغوى الذى تكاد تختفى فيه الأشياء المجسمة، وأصبح الجميع يرغب فى تأليف كتاب كما لو أنهم أصابهم الجنون.

ويعبارة أخرى أن سيدك فى أحسن حال، أنه فى حالة رائعة، حتى وإن لم يتعين عليه أن يكتب حقاً أى بيت شعر قصير على الإطلاق، فهو سيبدأ الآن فقط فى أن يحيا بشكل حقيقى حتى وإن ترك رأسه يتدلى يأساً، تلك الرأس التى كان يحلم قبل قليل بتصوير ارتباط كل الكائنات، وذلك لأنه تعرف على الصلة التى كان يتخيلها، عرفها الآن بشكل وحشى ومتقطع ولكن شحمًا ولحمًا.

لابد وأنك لاحظت ذلك منذ أمـــد طويل، على الطرقـات التى يتـخـيـرها، على المروج، ولا سـيـمـا الطريقـة التى كـان يعتلى بهـا صهوتك مـا الذى جناه (وأنت مـعـه، سـواء كنت جـوادا أصيـلا أو حـتـى جـواد هزيل) ؟ بدلا من حوريات الأشجـار وعـرائس البـحـر، منظر شخص مشوه، كلب، وإن أمكن شكل أذن حصان فى الشـمس، ذلك المنظـر الذى كاد يجـعله يسـقط من على السـرج بسبب رعشـة أثناء لحظة وحيه القـصيـرة (لا يمكن تصويرها ! يا له من أمـر وارد!): إنه حـضـور الأشياء، والقـوة المتعـددة الأبعاد لها فى حالة مظهـرها الفـريدة، سـواء حـالـة الاكتـاز والصـلابة، أو التـجـعـد والتكور، بغض النظـر عن أية حمـاقات لطبقـية المعـانى إذا كـانت تلك الأشـيـاء أرسـتـقـراطيـة، جـمـاليـة أو شعبية.. الفراغ الكائن بينها؟

يا إلهى..! الأمر المعتاد بعد النشوة، التى لا تتواجد باسـتـمـرار وأنهـا أقـرب لأن تكون ضـرورة نفـسـيـة، ألا تشـعـر أنك تسـتـعـر من فـرط الحـمـاس بعـد العـدو بأقـصى سـرعـة ثم مـا تلبث أن تعـاود اشـتـهـاء العـدو مـجـددًا ؟ تخيـل مثل هذا الشـىء ! توافق يجـمـع بينك وبين الفارس؟ بالتأكيد فهكذا تنشأ النشوة والسرعة.

وليس مـن المهم إذًا أن السـاكت البليغ لا يعـرف من شـدة حـزنه أية لغـة تلك التى ينبـغى أن يحـدث بهـا الأشـيـاء والمخلوقـات على الدوام، تلك التى يتـهـاوى أمـامـهـا لأول مـرة فى حيـاته ولا سـيـمـا أعـمق من أى

بطل من أبطال الفن، إنه على علم بتلك اللغة وهذا يكفى لأن يكون دافعًا مؤلمًا. لست أنت أيها الحصان، أيها المخلوق المتكلم بلا إدراك، لست أنت الذى تخصه، بل أنت الذى تملكه.

قبل أن يكتب سيدك اللورد خطابه بعامين، توفى ذلك الفيلسوف، الذى يحتمل أن يكون قد شغل القرن المعلن عن قدومه آنذاك كما لم يفعل آخر، وقبل وفاته بعقد كامل تقريباً كان قد عانق فى أحد شوارع مدينة تورين وعلى الملأ حصانًا يجر عربة حنطور ضربه صاحبه فى نوبة من التعاطف الشديد ـ ثم اختفى ذلك العملاق اللغوى سابقاً بكل احترام فى ظلمة فكرية. فلتحمل أنت أيها الحصان الصغير سيدك شاندوس الأكثر حظاً والمنصت إلى الأشياء المرئية، والذى حصده القرن العشرون بطريق الخطأ مثل أقرانه إلى القرن الحادى والعشرين نكاية فى بريق "الأشياء الصامتة ولمعانها ووقارها، وفى عمق الأسطح الملموسة وشموخها الذى يلمس أوتار القلب (عين الحصان، تفاحة الحصان) وفى كل التكهنات المغايرة الأسماء، ...

أيها الجواد.. نحن نفهم بعضنا البعض، أليس كذلك؟

(من: ازدواج المعاني. مقالات وقصص قصيرة ـ ٢٠٠٣).

حيوانات

فى أعمالها تحتل حيوانات كثيرة مواقع مركزية بشكل ملفت للنظر.

إلام يرجع هذا ؟

أنا أتعجب من ضرورة وجود خصوصية ما تكمن خلف ذلك، أعتقد أنه أمر طفولى:

كل الأطفال تربطهم علاقة وثيقة بالحيوانات. لماذا؟ .... نعم لماذا تربطهم بهم علاقة؟ ماذا تعتقدون؟

(من حوار أجرى مع بريجيته كروناور ونشر فى مجلة فالتر Falter بتاريخ ١٩٩٢/٤/١٧).

«يتوقف ازدهار العالم على أن يحافظ على حياة الحيوانات أكثر ولكن تلك الحيوانات التى لا نحتاج إليها لأغراض عملية هى الأهم ... فنحن لا يمكننا أن نظل أناساً إلا أمام أشكالها وأصواتها" فى هذا الموضوع وحتى آخر جملة حزينة تحمل تهديداً فى

المجموعة يتكشف لنا أن شكوى كانيتى (*) لا تتناول الفواحش المتأصلة والجديدة التى ترتكب فى حق الحيوانات ولكنها تذكر كذلك ماهيتها بالنسبة للإنسان وما تعنيه خسارتها له.

لعله قد يكون الأسوأ من طفولة بدون حيوانات هو موت مجتمع فقد طفولته وكونه طفلاً ولا يمكنه استرجاعها.

(من: بدون حيوانات حول كتاب الحيوان لإلياس كانيتى فى ازدواج المعانى، مقالات وقصص قصيرة، ٢٠٠٢).

(*) إلياس كانيتى: كاتب إسبانى يهودى الأصل، ولد عام ١٩٠٥فى بلغاريا ودرس فى فيينا، ثم هاجر إلى إنجلترا ولكنه كان يكتب باللغة الألمانية، كذلك حاز على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨١ (المترجمة).

وداع مبدأ شديد الهشاشة

تذكرت نهاية فبراير ولا سيما فى مثل هذا اليوم منذ عام مضى كيف كانت قطة والدى الذى كنت أزوره كثيراً آنذاك، ترقد على «حجرى» فى السيارة دون اعتراض وهى متشبثة بوهن شديد بأظافرها الأمامية فى معصمى، حتى أننى شعرت بعد مرور ساعات بضغط أظافرها الرقيقة، وكانت فى الأوقات السابقة لوفاتها لا تنام، فقد رفضت الصورة المألوفة وظلت تنظر إلى نفسها وهى متيقظة لقد كان موتاً صامتاً فى خشوع حيث انعزلت تماماً تلك القطة المضطربة وهى مطأطأة الرأس، وظلت تجلس فى أماكن لم تستخدمها أبداً من قبل، وكانت تتوقف وسط حركة ما وهى مستغرقة فى الفكر بلا حيلة، أو منكفئة على طبق اللبن حيث أصاب نواياها النسيان، وكانت قبل أسبوعين قد صرخت كثيراً ولم يكن لدينا نحن أية فكرة أنها تسممت لدرجة تنذر بموتها، وهى الآن صامتة، كما لو كانت ترغب فى استجماع قواها التى

لم تعد كافية لمجرد أن تلعق شيئاً بلسانها الشاحب الشبيه بورقة الشجر الصغيرة، وفى الأسبوع الأخير يبدو أن قدرتها على تجسيد الاسترخاء، أو سلواها قد تخلت عنها، وكأنها وقعت فريسة للتعاسة أكثر وأكثر، وقد تملك منها الحزن والكآبة، كانت تنظر إلينا بين الحين والآخر ثم تصدر من حنجرتها صوتاً ينم عن الدهشة الدفينة كما لو كانت تلمح إلى دهشتها أو تطالبنا بتقديم تفسير هذه التغيرات لها، ولكنها استسلمت لبؤسها هذا دون مقاومة بينما واصل السم الاستشراء فى دمها، كان الطبيب قد قال إن السبب هو «فصد آدمى» و«سم فئران»، وذلك أثناء حقنة لها ليريحها بالموت، كانت كثيراً ما تضحك بجسدها أما الآن فقد أصبحت مثال الحزن الصرف الذى لا أمل فى علاجه والذى لم تنجح السيدة فاجنر الأرملة فى تجسيده، فقد كانت السعادة هى جزئية قد ابتعدت عنها ولكنها لا تزال بادية عن بعد، ذكرى غير واضحة ولكن لا يمكن الوصول إليها، وكثيرًا ما كنت أتساءل عن مدى حضورها فى حياة والدى، وكيف يمكن الآن لنفس هذا الجسد ذى العظام الرقيقة أن يعبر عن الزوال إلى هذا الحد؟ هذا الهزال المستمر الذى لا يحول دونه شىء ودون شكوى، مثل زوال فصيلة نادرة، أو قتل خاصية لا يمكن استبدالها، وفى النهاية لم تعد تنظف نفسها، فقد زالت عنها قوة الغريزة السعيدة، حفنة صغيرة من الرماد، بل حتى النهاية أيضاً فى ذبولها زهرة سحرية صغيرة، مثل زهرة

الإيريس انكمشت فى ذبولها فى كتمان شديد وقد عانت وقاست هذه المنطقة ذات النجيل المشذب القصير وطرق السير التى طالما داستها، عانت معها وداع مبدأ شديد الهشاشة، الذى ضاع مع هذا الكائن ولا يمكن استعادته.

(من رواية ريتا مونستر -Rita Münster - 1993)

ما الذى تريده الحيوانات منا ؟

فى ٣١ أغسطس: حدث ذلك اليوم مرة أخرى وهو أمر ليس بغير المعتاد بالنسبة للمتنزهين فى مناطق ريفية، إلا أن اندفاع الحيوانات هذا يترك كل مرة إحساساً بانعدام الحيلة وإحساساً بالخزى المحير، وهذا هو ما يخصنى على الأقل.

فى البداية تقف الأبقار، السوداء والبنية وذات البقع كما نعرفها وكما هو معتاد منها منذ قديم الزمن، تقف مثل النصب التذكارى وتشد بلسانها الكبير إذا كانت لا تعيد مضغ شىء لتوها، تشد العشب غير عابئة بالعالم بأسره من حولها المرة بعد الأخرى مصدرة صوتاً، ثم تودعه بهدوء وسكينة فى الشونة الضخمة داخل معدتها، وأنت تقف عند السياج لتراقبها وأنت تعرف بل تتوقع ما سيحل بها حالاً، وهنا ترفع الأولى برأسها، بينما هى ما زالت مترددة لتتحرك صوبنا ببعض من الكسل ولكن يملؤها الفخر، تسبقها بقرة ثانية فى هرولة متراخية

وتنجذب بقرة ثالثة، حتى الحيوانات البعيدة والراقدة فى مجموعات ثنائية برقة لا تقاوم طويلاً فهى تجرى تاركة مجال المرعى بأكمله ليصبح كل ما هو تذكارى نسياً، وهكذا فهم يصطفون أمامنا فى صفوف وقطاعات فى صمت وبلا استهجان وهم يحركون آذانهم ويرفعونها كاللافتات على اليمين واليسار ويلوحون بأذيالهم فى شىء من الإثارة ويرفعون «خطومهم» الطفولية المبللة نحونا وهم غاية فى الانتباه والفضول والترقب، ويشكلون فريقاً، أو فصلاً مدرسيًا على أهبة الاستعداد للتلقى، ولا يمكن إخراجه عن النظام بمجرد التلويح ببعض العشب.. لا مجال للرشوة هنا.

فالشرف على قدر العرق، فهل لنا أن نهتف لهم الآن بلا حيلة؟ حيث إن وداعاً سريعاً لهو أمر مستبعد أمام تشكيلتهم الملحة وترقبهم لما قد يطرأ أو تسفر عنه الأمور.

ما الذى يريدونه منا؟ إيماءة مُنجية، أم وعظًا أم بيانًا عالميًا؟ لا شك أنهم لا يعرفون شيئاً عن الاختراع المخطط له فى ألمانيا بحلول نهاية سبتمبر والخاص برابطة اتحادية لمناهضى المنتزه القومى وإعادة هيكلة الوظائف بقطاع الطب البيطرى بسويسرا، ولا يعلمون شيئًا عن الحيوانات الأليفة التخيلية وعن جنون البقر ولا شيئًا عن قصيدة بيرتولد بريشت «بقرة فى أثناء تناول الطعام» Kuh beim Fressen ولا عن قصيدة

يوسيتوس كيرنر(١) للعجل المساق إلى المذبح، ولا يعرفون شيئاً عن تلك المناقشة والتقويم المتباين الخاص بالأنواع غير المنصوص عليها وغير الموصى بها جينياً وتلك المُركبة جينياً إلا أنهم يبدو عليهم عندما ينظرون إلينا أنهم يأخذون كل شىء بعين الاعتبار، كل ما يتعين علينا فعله هو أن ننظر بعمق إلى أعينهم البندقية الشكل، الصغيرة الحجم وداكنة اللون، ذات الأهداب الرائعة والتى يراقبوننا من خلالها بثقة شديدة لا نستحقها كما ينظرون إلينا بشىء من الميلانخولية التى لهم حق فيها.

ونحن نطلق على هذه اللحظات بعد تفكير قصير ألفاظًا مثل خلابة وعاطفية، أين نذهب إذًا دون ذلك مع الحيوانات؟ وتلك الأبقار تخطو فى تلك الأثناء بقدم تلو الأخرى متحيرة من أمرها أكثر من الحيرة التى نحن واقعون فيها، أتمنى ألا يعتقدوا أنهم من أخفق هنا مرة أخرى، فى النهاية انفك الحبل المشدود وهو لا يكاد يخفى خيبة أملهم وإذا ما ولينا ـ نحن ضيوف السياج المزعجين ـ فارين فسوف توجه إلينا نظرات بعيدة الغور وغير مستحقة.

فى قصة أطفال هايمون (٢) سمح راينهولد، مالك الجواد بايارت، لكارل الأكبر بأن يغرق فرسه الوفى

(١) Justinus Kerner (١٧٨٦ ـ ١٨٦٢) طبيب واديب ألمانى. (المترجمة).

(٢) هى قصة الأطفال الأربعة للدوق هايمون، وهم من فرسان العصر الكارولينجى. مجموعة أساطير من العصور الوسطى. (المترجمة).

من أجل السلام الغالى، ولكن بايارت لا يموت إلا عندما يطفو على السطح للمرة الثالثة بعد أن يكبلوه بحجارة الطاحون ليغرق ويحرم من مجرد التواصل بصرياً مع سيدة. وهذا طبقاً لما حكاه جوستاف شفاب[1] فى أساطيره الشعبية أما فوكيه [2] على نقيضه، فهو يسوق استشهاداً فى مقال موجز، من إحدى روايات الفروسية الإسبانية، التى تستهجن الخيانة الحقيرة فى حق فرس شجاع، ولكن راينهولد يلتقى مصادفة فيما بعد فى إحدى الأراضى القفر السحرية بفرسه الذى استطاع أن ينجو بنفسه من الماء آنذاك، ويجرى الفرس عليه فرحاً ولكنه عندما يتعرف عليه يشيح عنه بوجهه ويبتعد عنه بعدما يتذكر ما حدث منه، ويمضى غاضباً لينصرف عنه وعن كل البشر للأبد.

أما نحن الذين لا نملك فى مواجهة نظرات الحيوانات التى يملؤها الأمل سوى التعاطف أو التحذير من منحهم صفات آدمية، فيواسينا فوكيه بالمراهنة على أمر ثالث مبهم، مشاعر وأفكار غريبة تلك التى تساورنا أحياناً، ولا سيما عندما يؤكد أن الحيوانات يومًا ما وفى مرعى آخر سوف تقفز فى

---

(١) Gustav Schwab (١٧٩٢ - ١٨٥٠) شاعر ألمانى، من أهم ممثلى حركة الرومانسية ببلاد الشفابن كتب أهم الأساطير والحكايات البطولية القديمة. (المترجمة).

(٢) Friedrich Baron de la Motte Fouque ١٧٧٧ ـــ ١٨٤٣ أديب ألمانى (المترجمة) .

مواجهتنا، هذا الأمل غير العلمى الذى لا يرغب فى التخلى عنه: فى أحد المراعى، حيث تسير الأمور بشكل رائع حتى أننا لا نستطيع سوى أن نذكرها برعشة أعذب بهجة وأكثرها جديد فى الوقت ذاته.

الثانى من سبتمبر: حدث الأمر ثانيةً اليوم

(من: مذكرات أدبية عمود _ أسبوع العالم مايو ١٩٩٧ - إبريل ١٩٩٨ فى: ازدواج المعانى : مقالات وقصص قصيرة- ٢٠٠٢) .

السيدة العجوز والذئب ذو اللبد

ذات مرة، فى أحد الأيام، رأت السيدة العجوز لأول مرة فى حياتها- «لأول مرة فى حياتى»، قالتها فى نفسها بهدوء- الذئب ذا اللبد، ذلك الكائن طويل الساقين ذا الجوارب السوداء المكسوة باللون الأحمر الفاتح، أشبه بثعلب زاد طوله بضخامة، مثل قط البج(*) ذلك القط المستأنس الحالم، ذلك العداء رائع الشكل بل لعله أيضاً متعجرف، الأبعاد المتواضعة وقياسات قفصه التى تقلل من حجمه بشدة وتبعث على الضحك.. فى مخدعه الذى ينقصه مراعى السافانا وحقول الكامبوس عديمة الأشجار، وعشب البرارى، إنه ذلك الحيوان الذى يسير فى خبب منفرداً، ويعدو وهو ينصت بأذنين غاية فى الكبر، كما لو كان يجب أن يلقى بساقه المرفوعة بعيداً فى كل حركة، وقد بدا مسترخياً وراسخاً فى جسده النحيف، ملقىً السيقان الاصطناعية الهشة بشكل يخلو من الاحترام.

(*) القط النمر أو سنور وحشى مرقط (المترجمة).

«لا أستطيع أن أرفع نظرى عنه» هكذا قالت السيدة فى نفسها وقد وقفت وحدها أمام اكتشافها الذى لم يعرها انتباهاً ولكنه اكتفى بالسير فى تؤدة، وهو يتمايل بساقيه ويتسكع ويسترجع بلا عناء ذكرياته عن طبيعة الأدغال الرخوة فى أمريكا الجنوبية، لأنه دون ذلك كان حتمًا سينهار.

«كانت هناك ذات مرة سيدة عجوز»، قالتها السيدة وهى تهز رأسها فى حين ظل فمها مفتوحاً حتى لاحظت هى ذلك ولكنها استمتعت بالانزلاق خلسة إلى حالة من الذهول التام وهو ما بعث دفئاً فيها فظلت تنظر إلى الحيوان.

توقف الذئب ذو اللبد، أو كلب الريح، أو الثعلب الضارب فى الطول بشكل مبالغ فيه، فى منتصف المنطقة المسوَّرة فجأة، وظل واقفاً كالذى أصابته صاعقة، أو كما لو كان قد ضرب جذوره فى هذا المكان أو أنه كان مأسوراً بتعويذة سحرية، حيث توقف فى أثناء الحركة لأنه لم يكن ليستطيع فعل شىء آخر بمشيته الرشيقة، أو الشيقة التى يكسوها الحزن ثم نظر خلفه فسرت الدماء عالياً فى وجه السيدة العجوز. فقد تجاوز ذلك الانتباه المباغت توقعاتها ولكنها لم تستطع أن تقرأ على وجهه أى شىء، كما أن كليهما لم يحرك ساكناً، وعندما عاود السير فإنه سار كسابق عهده بطريقة ساحرة كما لو كان ليس مخلوقاً لهذا العالم، وفى المساء عادت السيدة لتحكى لقطتها

التى لم يطرف لها جفن لتقول : «كانت هناك سيدة عجوز رأت لأول مرة فى حياتها كائنًا يطلق عليه الذئب ذو اللبد».

ولم تتوجه فى اليوم التالى إلى مملكة الذئب ذى اللبد مباشرة.. يالها من دقات قلب لطيفة تلك التى حلت بها فى أثناء الطرق الملتوية القصيرة التى سلكتها ! قاطن برارى الأرجنتين الخجول، لقد عرفت فى تلك الأثناء أنه سريع فقط فى المسافات القصيرة وأنه يفترس الثمار فى المقام الأول، ولكنه يأكل كذلك الطيور والبيض وصغار الثدييات ثم ابتسمت السيدة قائلة: حيوان خجول يقطن برارى الأرجنتين ! بدا لها كما لو كان هذا الخجل مصنوعًا خصيصاً لأجلها. كما كان يمكنها أن تحكى لقطتها أيضاً أنه يسير فى خطوات ضيقة وعالية فوق تكتلات السحاب.

كانت كثيراً ما تراقب فخر الآباء الشبان بأنفسهم عندما يتمكنون من التعرف على نوع غير معلوم من الأسماك بل وإيجاد المسمى الخاص به لا الذى يطلق عليه كما لو كانوا هم الذين ابتدعوا المثال المختار فى تلك اللحظة، أما الآن فقد ذهبت عنها السخرية إذ أن ذلك هو ما حدث لها، وفى الوقت نفسه كان الأمر الجميل هو أن الذئب ذا اللبد لم يكن له بها أية علاقة.. نعم كان الأمر كذلك فقد وقف بعيداً جداً عنها وأخذ ينظر إليها راجعًا برأسه إلى الخلف، كما ظل يحرك لسانه الأحمر فوق شفته العليا ليلامس

أنفه السوداء بشكل يتضح فيه أنه يستشعر لذة ما فى فمه.

ثم بدأ يسير بطريقته العصبية كما كان الحال فى اليوم السابق وهو غارق فى التفكير أثناء النظر إلى طبيعة غابات السافانا المتوافرة له خصيصاً، وهو طبعاً ـ لم يتعرف عليها مجدداً بل كان يعرض نفسه من كافة الجهات، وهنا لاحظت أنه يقترب فى دوائر حلزونية وعاودها ذلك الشعور بالدفء الذى اعتراها بالأمس حتى كستها الحمرة من شدة المتعة، وظل بعيداً عنها قرابة المتر ولكن دون أن يعيرها انتباهاً.

ولم تكن هى لتتجرأ أبداً فى أن تفكر له فى اسم، لم يحرك الذئب ساكناً، وكانت رائحته طيبة، رائحة حيوان مفترس. كان كل شىء يشير إلى أنه يتوقع شيئاً ما ولكن ما هو؟ كان اللون الأبيض هو الغالب أسفل خطامه كذلك داخل أذنيه، رفع أنفه فى مواجهتها، أنف وجه الثعلب الذى يملكه، وتعرف عليها الآن فقال: "دوكس!" "ماذا؟" سألته السيدة العجوز دوكس! قالها الذئب ذو اللبد، "دوكس"! لقد قال حقاً كلمة صحيحة ولم يقل أى شىء آخر فى هذا اليوم "ذئب السيدة العجوز ذو اللبد لم يكن له اسم وكان يمكنه أن يتكلم،" .. هذا هو ما قالته السيدة فى المساء لقطتها، التى شدت مخالبها للأمام حتى أصدرت صوت طقطقة.

كانت السنوات قد فقدت قيمتها بالنسبة لها منذ زمن بعيد بنهاياتها الملفتة للنظر وبداياتها بفصولها

وتبدل درجات الحرارة بها، فكانت تمر بسرعة ولم يكن هناك ما يستحق عناء الاهتمام بتلك التفاصيل، ولكنها كان يجب أن تعد قد أُنجزت، فما مر بسرعة يفضل ألا يحتل أية مكانة فى القلب أو يؤخذ على محمل الجد، ولكن الآن وبشكل مفاجئ تصبح لحظة وحيدة مستمرة ومتكررة هكذا، أن يطرأ شىء كهذا مرة أخرى على حياتها حتى ولو لمرة واحدة فقط إنها لحظة بدت كما لو أنها دامت طوال عام !.

وعندما أظهرت نفسها للذئب ذى اللبد كانت على دراية بعمرها وسيقانها المقوسة الواهنة مقارنةً بمثل تلك الأقدام الخفيفة، فخالجها شعور بالخجل واعتراها الحزن وشعور بالثقل والخمول بدلاً من أن تفرح حين رفع رأسه تجاهها، إلا أن الطريقة التى اجتاز بها الأرض العشبية حتى وصل إليها وهو يسير راقصاً كمن يتخطى حاجز السحب ولا سيما فى منحنيات بالطبع، جعلتها تأمل ألا يكون قد أدرك سنها وقبح مظهرها، فهى أمور لا يعيرها انتباهاً، فهو لا يقارن نفسه بها ولم يكن هذا هو ما حدسه عندما كان يقف إلى جوارها بدلال بسيقانه العالية المرفهة.. لا، فهو ليس مخلوقاً لهذا العالم، وليس العالم مخلوقاً من أجله، لابد وأنه يرى هذا العالم تعساً، ولكنه من الواضح أنه لا يزعج نفسه بذلك الأمر بل إنه استمر فى السير عبر طبيعة الأدغال المضيئة.

ابتسم للسيدة العجوز، وظل فترة سكاناً دون أن ينطق ببنت شفة، ولم يقترب منها بدرجة كبيرة حتى

تستطيع أن تلمسه، ثم قال «دوكس»، قالها وهو يغلق عينيه لفترة وجيزة ثم فتحها مرة أخرى، حتى أن كلمته «دوكس» كان لها وقع التآمر، وعندئذ شعرت السيدة العجوز بساقيها وقد انتصبتا كما اشتد عمودها الفقرى وسرى الحماس فى جسدها وأحست فى داخلها أن بشرتها عاودها بريق وردى، فقالت فى نفسها: «إن الذئب ذا اللبد لحيوان فريد من نوعه وماكر».

وما أن أرادت أن تقص ذلك على القطة فى المساء حتى بدأت فى التثاؤب على الفور عند سماعها لأول كلمة ثم أشاحت بوجهها عنها فدارت السيدة حولها وابتسمت لها.

كان عليها أن تعترف إذا كانت لديها الشجاعة فحسب كل يوم، فقد كانت ترى فى الحلم طرف ذيله الأبيض وهو يلوح فى ركن الغرفة، كما كان الذئب ذو اللبد يظهر على مسافة كبيرة وهو يجرى بسرعة متخطياً إياها، وكانت هى تشعر بتيار الهواء المنبعث من سرعة عدوه ولكنها لم تفلح أبداً فى أن تلمسه، ولم يختلف الأمر فى الصباح كثيراً وكان دائماً ما يساورها الشعور بأنه خرج لتوه من الغرفة كما أن لون طائر الحناء وخطوط معالم السحب كانت بمثابة إشارات أو أدلة على قربه، لقد كانت تظن أنه قادر على ذلك فهو يستطيع، إذا انتوى ذلك، أن يكون متواجدًا حولها بأشكال مختلفة، ولكن أليس لديها

الوقت كل يوم بطوله، ألا تمتلك الشجاعة الكافية الآن لأن تعترف بذلك؟

فيما بعد الظهيرة قدم نفسه إليها بخطوات لولبية رشيقة، فقد كان يتحرك كما لو كان غائب العقل، بسرعة ولكن بتردد لا يمكن فهمه فوق سيقانه الممتدة طويلاً، بدأت السيدة تشعر بأنه فى الواقع شىء آخر. ظل واقفاً فى منتصف القفص، فى قلب ذلك المكان الخاص ورأت هى طرف ذيله الذى يعتلى سيقانه السوداء وهو يتهادى برقة فى ترنح ذى مغزى محدداً لمجرى غامض للزمن كما لو كان يرغب فى إغوائها، فأدار رأسه ولمحها متخطياً فراء كتفيه الداكن، وسوف يأتى اليوم الذى يظهر فيه جسد غير متوقع أسفل تلك العباءة التى تغطيه المتمثلة فى فراء الحيوانات، وفجأة خطرت ببالها سيقان فتيات المدارس عتيقة الطراز، النحيفة وهى مرتدية الجوارب السوداء.

ولم يضيرها إطلاقاً أن تظل واقفة على سيقانها التى دب فيها الشباب وبقوامها الذى اشتد عوده مرة أخرى لمدة ساعة كاملة فى نفس المكان، لم ينتظر أحد كل هذا الوقت هنا فقد كان الزائر يأتى ويمضى سريعاً، لابد وأنه كان سيشعر بأنه منبوذ إذا ما دقق النظر، كان جمال الذئب ذى اللبد يتمثل فيما هو مؤثر، ذلك الذى ملأ عينىَّ السيدة بدموع ساخنة وغزيرة، وليس بماء الشيخوخة الذى لا يمكن التحكم فيه. إلا أن الإغراء كان يكمن فى أنه كان يجعلها

تنظر طويلاً حتى يأتى بقامته الطويلة وحركته المتراخية ليبتسم عامداً فى عينيها، إذ كان يفعل كل شىء مما له دلالات كثيرة، فى المساء لم تقص على القطة أى شىء، فأخذت القطة تحملق فيها حتى خلدت إلى النوم.

هل كان الذئب ذو اللبد على أعتاب مرحلة تحول؟ فى اليوم التالى سلكت طرقًا فرعية عبر الغابة مرة أخرى وأخذت تتفحص الدببة والزرافات وطائر أبى منجل (*) باهتمام جديد، ألا ينبغى أن يتحرروا جميعاً؟ وإن كان الأمر كذلك فمم؟ فى دولة بلاد أو فى إدارة بلدية؟ لعلهم كانوا يعيشون هنا صباحاً بوصفهم مخلوقات حيوانية رقيقة حتى يصبحوا ليلاً موظفين نيام مسالمين أو يتحولوا إلى أشخاص من ذوى السلطة يلهون فى بيت من بيوت الرذيلة أو ممن يستفيدون من كونهم قوادين أو من تجار المخدرات. ما الذى عله يحدث إذا ما حررته صاعقة برق وأعادته إلى طبيعته الأصلية فى ذلك المبنى مدارى الطقس بدعامة التراكيب المضاءة بنور النيون عالية التقنية والواقعة بين أحواض السمك المضيئة بشكل شيطانى وصناديق الثعابين؟

كانت تقف وحيدة تقريباً فى حديقة الحيوان فى تلك الساعة فى هذا الفصل من السنة، مما زاد رائحة الحيوانات نفاذاً، وشعرت ببعض العرق ينساب على

(*) طائر مائى طويل القائمة والمنقار (المترجمة).

جسمها من تحت إبطيها أسفل ملابسها، كما أن الذئب ذا اللبد كان سلوكه من البداية كما لو كان سوف يعلن عن شىء خاص، مختلف عن ذى قبل، حيث ظل فى البداية مختبئاً وهو الأمر الذى أفزعها للغاية، فقد كانت فى ذلك الصباح قد أحست بأنه يبدو كأنه غادر القفص قبل وصولها مباشرة ثم اكتشفت وجوده فى نهاية لا سبيل إليها داخل كوخه المفتوح من الأمام فظلت صامتة وهى تفكر بقدر المستطاع لتنقل له أفكارها حتى لامسها، ما الصورة التى سوف يظهر عليها الآن؟ بوصفه ذئبًا ذا لبد بالطبع، هذا ما رأته على الفور عندما كانت تخبز كعكة الخمير، كان يساورها دائماً هذا الشعور، وهو ما كان يعد أجمل شىء فى الموضوع، بأن لديها حيوانًا جديدًا فى البيت، ولا سيما حيوان تطور بسرعة حتى اللحظة التى ينفتح الفرن وتظهر النتيجة التى لم يكن من الممكن أبداً التكهن بها، حيث يتحلى الذئب ذو اللبد باللون البنى الفاتح لكعكة رائعة ثم يتوقف أمامها بعد أن يستعرض نفسه كالمعتاد فتتساءل السيدة، ماذا أنا فاعلة؟ وإذا بالذئب ذى اللبد يقول بابتسامة خبيثة : "دوكس" ماذا كان يرغب أن يصبح؟..أميرًا .. أخًا.. أختًا! أم عله يقسم نفسه إلى شخصين! ابتعد الذئب ذو اللبد كما لو كان يتعين عليها أن تتبعه. «ولكن ماذا سيحل بى؟ » قالتها السيدة وهى ذاهبة إلى النوم لقطتها التى ظلت تتنهد مستمتعة وتظاهرت بأنها تستكمل الحلم وهى نائمة.

كانت الأمور المفاجئة تفزعها دائماً فقد أخبرتها البائعة التى تعمل فى محل البقالة الخاص بها، نعم الخاص بها، بأنها سوف تعمل بداية من الأسبوع التالى فى محل الأدوات المنزلية المجاور، وكان هذا أمر لا يمكن تصوره بالنسبة للسيدة بعد كل تلك السنوات كما أن البائعة أخبرتها كذلك أنها كانت تعمل فى محلات C & A قبل ذلك ولم يعجب ذلك السيدة أبداً.

يا له من تقلب وعدم استقرار! والآن ما الذى كان الذئب ذو اللبد يضمره؟ هل هى معجزة، وهل تتم بمساعدتها ؟

كانت تعرف قبل ذلك كاتدرائية تلتمع فى قبتها شديدة الظلمة أحجار الموزاييك الشرقية الصغيرة كإشارة لوجود شىء فى هذه المغارة الصخرية ينتظر تغييره، وفى طريقها إلى حديقة الحيوان شاهدت زوجين مسنين يسيران صوب سلم ثم انفصلا حتى صعد كلاهما متشبثاً بدرابزين السلم أحدهما من جهة اليمين والآخر من اليسار فى رقصة أخفقت ولكن بوقار. وعلى الفور أدركت فيهما زوجين من الحيوانات الغريبة يتداعبان فى هيام، دون أن تعرف لهما مسمى.

كان الذئب ذو اللبد يتأرجح فى تؤدة عبر طبيعة _ لا تُقاس ولكنها ليست كثيفة، لا يراها سواه. ثم سار فوق عوائق من النباتات لم تخفيه عن ناظريه، لحسن الحظ لم تتمكن بأى حال من الأحوال أن تنفذ إليه

حتى وإن تمكنت من تسلق السياج المحيط بمخدعه لما كانت لتجد مدخلاً إلى أحراشه الخاصة، ابتعد بفرائه الملتهب وهو غارق فى الفكر فقالت بيأس: «دوكسى» قالتها لأول مرة فى هذا المكان وكررتها متوسلة حتى أدرك الذئب ذو اللبد ذلك واقترب منها فى ترفع، وعندما انصرف مرة أخرى إلى جولاته الاستكشافية أدركت الأمر. كان يتعين عليها أن تتحول، لقد كان هذا هو خلاصها الذى ينتظرها.

«يجب أن أصبح حيوانًا» قالتها للقطة التى مدت ساقاً واحدة مثل ساق راقصة الباليه البارعة من جسدها المستدير، وظلت تمدها أمامها. هل تتطلب هذه الاستطالة الجسد الصغير بأكمله؟ لا، فقد ارتدت إلى وضعها المستدير مرة أخرى دون تعليق.

فى اليوم التالى شعرت بالمرض، إنه ضعف نتيجة المجهود الذى بذلته فى الفترة الأخيرة. كان ذلك واضحاً بالنسبة لها على الفور، فقالت فى نفسها: «الآن تحديداً!» ولكنها كانت تعرف أن ذلك كان بمثابة مهلة يحتاجها جسدها، كانت ترقد وهى تتصبب عرقاً وترتعد برداً ليس بوصفها عجوزًا تعانى من الأنفلونزا ولكن بوصفها فتاة شابة مثارة بشدة، وعندما فتحت عينيها تذكرت الذئب ذا اللبد وهى متألمة، حيث كان ينتظرها وقد فقد الأمل، وعندما كانت تغمض جفنيها كانت صورته تظهر لها وهو فى إحدى جولاته عبر مراعى أمريكا الجنوبية مما كان يخلصها من كل همومها.

هل فهمته حقاً ؟ هل كان يرغب فى أن يجذبها معه إلى مملكة الحيوانات؟ هل كان هذا هو التحرر من السحر الشرير الذى عاشت فيه بعد أن تعرضت للعنة ما، كانت ذات تأثير أمام تشكيل وعيها؟ استلقت وأعضاؤها ترتعد وقلبها ينبض سعادة، فخطر ببالها أنه يجب أن تبدأ بالتخلى عن كل ما هو مهم حتى تلك اللحظة، وأنها عندما تخرج مرة أخرى لتسير فى الشارع أو تذهب إلى حديقة الحيوان يجب أن تنطلق دون بطاقة شخصية أو أية أوراق تنم عن موطنها أو أصلها وهويتها بين الناس، كما أنها يمكنها أن تحمل معها المال الكافى لتذكرة الأتوبيس فحسب وسوف ترتدى المعطف، ولكن هل مسموح بالنظارات؟

مصير آخر البجعات السبع ! الأخ الأصغر الذى لم تستطع أخته أن تنتهى له حياكة القميص وتعين عليه منذ ذلك الوقت أن يعيش بين الناس بجناح بجع بدلاً من الذراع الأيسر، لطالما شغلت هذه القصة بالها فى طفولتها شأنها شأن قصة الحصان فالادا، ولأول مرة فى حياتها، كما شاهدت الذئب ذا اللبد أيضاً لأول مرة فى حياتها، تفكر فى أن ذلك الأخ السادس هو الشىء المتميز والشىء الأسطورى الوحيد المتبقى لديها لذا فقد أحبته السيدات الجميلات ذوات الرقاب المكتنزة بشدة عندما طواهن داخل الجناح الأبيض المستعر رغبة، ويطوقهن فى معطفه المتبجح ويخطفهن فوق السحاب.

سألت السيدة قطتها التى كانت مشغولة بالبحث عن أفضل مكان فوق السرير: «وإذا لم يحدث سوى أن يصبح لدى سيقان الذئب ذى اللبد الطويلة سوداء اللون؟ أو ما الذى يمكن أن يتبقى من مرحلة حياتى الأدمية بوصفى شائبة أو بوصفى زخرفًا فى حالة ما ألقى علىَّ فراء الذئب ذى اللبد»؟

وفى الصباح وبينما هى لم تستعد قوتها بالكامل كى تغادر المنزل، استيقظت مثقلة بمعلومة مفادها أن الأمور لن تسير بسلاسة، ولكن هناك شيئًا فى الهواء، شىء يسبق تحولها يتعين أن يكون حدثاً، فى الأساطير يوجد دائماً محك اختبار، اختبار لرقة الإنسان والحيوان. حيث يتعين على الصبية الحرفيين والباحثين عن حظهم وسعادتهم، وكذلك على أطفال الفحاميين الذين يخرجون فى مهمة ما، أن يثبتوا كفاءتهم، إذ يجب أن يتثبت من خلال حدث ما أنهم كانوا موجهين إلى المخلوقات البعيدة عن الغطرسة وهكذا يتأكد أنهم هم أنفسهم من أحدثوا الانتقال إلى عالم أدغال السافانا والذئاب ذوى اللبد!

كانت ترقد وجبينها محموم، حيث اعتدلت فوق الوسادة وجذبت ركبتيها، وغاصت للخلف كما لو كان كل شىء قد تم بالفعل ثم اعتدلت فى جلستها مرة أخرى ألم تكن الساعة الثانية عشرة؟ إذ تتضخم الأصوات والضجيج قليلاً عند الثانية عشرة ظهراً، ولكنها لم تبحث فى إمكانية انسلاخها أو تحولها، بل

حاولت وهى تكاد تتوارى عن عقلها المتيقظ أن ترد المعلومة التى لا يمكنها أن تغفلها كان المطلوب هو تحرير الذئب ذى اللبد.

فى صباها وكذلك فى بداية شيخوختها كان هناك شعور بتناقض كبير بين الباطن والظاهر وفى كلتا الحالتين فقد ارتضت فى النهاية الصورة التى نقلتها للبيئة المحيطة، وهكذا أصبحت شابة تماماً وكذلك هرمة أولاً وأخيراً، ولكن الآن وجب التحرر من ذلك والتخلص منه، ها هى مطلوبة عن خزينة الدفع ولم تكن ترغب فى الخوف من أن تصبح غير ملتزمة. فهى سوف تفصل السياخ بمنجل وتتسلق إلى الداخل لتطلق سراح الذئب ذى اللبد، أما التجربة الثانية التى كان يتعين عليها أن تخوضها فهى الثقة التى يجب أن تتحلى بها حتى يدور كل شىء فى تلك اللحظة حول الخير، ولا سيما ما يتمثل فى الأمر الثالث وهو المعجزة نفسها التى تتعلق بتحويل حديقة الحيوان بأكملها إلى طبيعة البرارى ذات اللون البنى الضارب إلى الحمرة ليجوب فيها اثنان من الذئاب ذوى اللبد لونهما بنى ضارب إلى الحمرة.

قالت للقطة: غدًا هو الموعد المحتوم، فأنا أشعر بأننى استعدت صحتى مرة أخرى«غداً سوف أخلصه وأخلص نفسى. «اندفعت القطة دون أن تعيرها بالاً وتركت غطاء فراشها مسرعة كى تقضى حاجتها.

وكان ذلك الصباح فعلاً هو الموعد المحتوم فقد استيقظت دون أن تتصبب عرقاً أو ترتعد وأخذت

معها مقصاً قوياً وحاداً، ونقودًا للمواصلات وحملت معطفها ونظارتها وسلسلة المفاتيح، ثم ربتت على قطتها بتأثر، فى حين أخذت القطة تقرقر كما لو أنها لم تدرك أن الأمر يتعلق هنا بوداع نهائى، ثم ابتعدت عن باب المنزل تماماً مثلما أبعدت القطة الغطاء عنها، لم تلق أية نظرة للخلف ! أو أية نظرة متفحصة وغير معتادة على الناس والشوارع التى كانت تجتازها، لعل كل هذا سيصبح فى القريب العاجل بحيرات أدغال، على أية حال لم تعد الأحياء بالمدينة تعنى لها أى شىء.

كان هناك اثنان من الزوار يقفان عند قفص الذئب ذى اللبد، وظلا هناك لمدة طويلة فى حين لم يعر الذئب ذو اللبد اهتمامًا لأى شىء حينما ظهرت هى.. هكذا أفضل، بل إنه ذكاء منه فعلاً، لم يظهر أدنى شكل من أشكال الاهتمام، ولم يرغب الناس فى الانصراف عنه.

كان يقف فى منتصف المرعى وهو يلعق شعر كتفيه الأسود بلسانه الأحمر الطويل، لم يتطلع فيه أحد، وقد كان يتمالك نفسه بشكل رائع، رغم أنها تغيبت يومين عن الحضور كان يقف فى مكان هناك مثل أول مرة رأته فيها، هذا جيد هكذا ! يجب ألا يساور الشك أحداً، كانت تخفى المقص الثقيل فى أقصى جيب المعطف، وبدأ الذئب ذو اللبد يسير متئد الخطى، فى حين ابتعد الناس أخيراً عن القفص وهم

يأكلون المكسرات، ظل الذئب ذو اللبد يتجول بخطى هادئة ويتجول، حتى اختفوا تماماً فأسرع فى خطوته جيئة وذهاباً ولكنه لم يعر السيدة انتباهاً، أما هى فلم تفهم فى البداية فأخرجت المقص ورفعته عالياً، وصاحت بصوت رفيع «دوكس» وكانت نبرة صوتها قبيحة حتى أنها ارتعدت لها، لم يواصل الذئب ذو اللبد استعراضه ولم يقترب فى طرق فرعية بل أنه كان يتجاهلها، حتى بعد مرور ساعة كاملة لم يلتفت لوجودها، لم يحدث شىء على الإطلاق، انتهى كل شىء.

لقد كان جميلاً أنه لا ينتمى إليها فقد كان واحدًا من الصقور والبوم، من الثعابين والضفادع، من الغربان والقرود.. هوة محيرة، حيوان يعبر وسط غاب البرارى اللدن الذى لا يعرف سواه ولا يستطيع أحد أن يصل إليه.

ولكن القطة كانت تنتظر فى البيت وعيناها تبتسمان وتقول كلمة واحدة لهذه المرة فقط: «دوكس».

(من رواية امرأة فى الوسائد، Die Frau in den Kissen- 1990)

«أتقول حيوانات؟ ماذا تقصد؟ أنت تقصد كل ما هو حى وتحبه لأنك لا تفهمه» إنه شعار، بل جملة تشكل دعامة المدونات الحديثة وتوازن المجموعة!

أهى قفزة هائلة بعيداً عن كل نوبات الانفعال (أو التعاطف) وتحديد الهوية؟

هذا هو شرط كل علاقة إباحية فحسب، ولا سيما احتقار كل من يشعرون بوصفهم مالكين لأزواج أو زوجات بأنهم حيوانات يمكنهم الوثوق بها، حيث يعتقدون أنهم يسبرون أغوار تلك الكائنات المتوافرة لاستخدامهم تماماً، لا يمكن أن تكون الحيوانات الكبيرة والغريبة هى فقط التى تتمتع بذلك التحفظ والميل إلى الكتمان الملزم والذى لا يهزمه شىء، ذلك التحفظ الذى يعد بمثابة شوكة الإباحية.

كما يحتفظ رفاق المنزل الشهوانيون والذين يصبحون من أول نظرة متواضعى المطالب بلغزهم وهم غاية فى العناد والإصرار، إلا أن وسيلة التفاهم الأكثر قدماً لتواصل حسى صرف تتطلب منا - وهو ما

شارفنا على نسيانه ـ الاهتمام والرغبة فى قبول حالة التقلب بين القرب والاختلاف فى الطبع والتى من شأنها أن تثير الغضب.

(من بدون حيوانات: حول كتاب الحيوانات لإلياس كانيتى فى ازدواج المعانى، مقالات وقصص قصيرة، ٢٠٠٢).

«أكثر اللحظات شهوانية»

أصبح شعار «أنا أجيب» شعار حياة تانيا بليكسنز فى كينيا، و هو الشعار الذى ورد من فرنسا القديمة إلى إنجلترا، معجزة الوضع المستقر للإجابة والصدى، فقد وجدت الصدى الإيجابى فى الطبيعة والناس فى إفريقيا وهو ما وضعته فى محاضرة ألقتها قبل ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصها، وقد نصحت السيدة التى يزيد عمرها على السبعين فى هذا المقام كل زوج بمفاتيح نسبية للسعادة: «أجب على أسئلة زوجتك وادفعها لأن تجيب على أسئلتك».فى منطقة "إيرينجارد" يبدو احمرار جبال الألب وكأنه صورة لمثل هذه الإجابات، تصاعدت حتى وصلت لأقصى درجات النشوة بين أحد عناصر الطبيعة ومشهد غروب الشمس فى احمرار ذى اتجاهات متعددة، إنها نشوة تسبيح أعماق الذات، لحظة لا تتكرر بهذه الكثافة، لحظة اعتراف صريح، لحظة الوضوح التام والكامل، لحظة المعرفة التى لا تراعى أى شىء. لحظة

أعلى درجة من الإثارة، تلك التى تتطلبها الأشياء بعد خلاصها النهائى، لحظة تمر ليشتعل العالم بعدها بحمرة لا مبالية و للرغبة فى المكاشفة من وجهة نظر المحب (هنا فانية) وللفنان (وهنا خالدة للأبد) .

(من خاتمة تانيا بليكسنز «إيرنجارد» Ehengard, Tina Blixens، فى مقالات عن الأدب» Aufsätze zur Literatur 1987)

جيزيلا وماتياس روت على مائدة الطعام بالمطبخ

فى مساء شتوى مبكر حينما قطع ماتياس روت منتصف الطريق إلى بيته، وقف فجأة وفى نفس الوقت كان يشكل عائقاً أمام المتدافعين على الرصيف المتسخ بمعجون الثلج والطين اللزج، فمنذ أن غادر مبنى الجامعة الجديد لاحظ اتساخ بنطاله الأسود الذى يلمع عند المقعدة _ كما كان يعلم - بدءًا من الحِذاء ليعلو هذا الاتساخ تدريجياً حتى الركبة وفى نفس وقت ملاحظته للاتساخ التدريجى لهذا البنطال الذى يشعر نحوه بارتباط حقيقى سمع جملة: «خواء الأماكن التى يرتبط بها تَوقُع الحيوية التامة، لعله زخرف وتبرج بتكوين رخيص». أومأ ماتياس روت بابتسامة تشجيع إلى الطالب صاحب هذه المقولة وقد ترك لمتعته العنان، وكان لا يزال يبتسم بعد، فهذه الصياغة كان يمكن استخدامها فى مجالات عدة وكانت منعشة دائمًا، أما قراره الذى اتخذه تواً بزيارة هانز وجيزيلا فقد كان يخصهما بالدرجة التى يتوقع

بها أن يقضى على مثل هذه الجمل حتى وإن لم يكن هناك مجال للتعويض عنها بأخرى أهم منها، لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يصاب بخيبة أمل؛ لأنه لم يأمل فى شىء قط، ولا حتى فى الحيوية التامة، حتى إمكانية أن يكون فى هذا الوقت مع جيزيلا لهُنيهة وحدهما لا تزعجه. فالأمر لا يتعلق بحديثه مع هانز أو معها أومع كليهما، فقد تفهم أن الناتج مِن كل تلك الصور لا يكاد يُذكر مبدئياً.

كان كل ما يحتاجه مجرد تغيير من الطلاب المتدربين والطالبات اللاتى يشتغلن بالتريكو ذوات ابتسامة الرضا التى لا تكاد تظهر. وكذلك التغيير من سكنيه اللذين قضى فيهما شتاء مليئًا بالعمل، متعكر المزاج إذًا فقد غير الاتجاه وضرب بقدميه فى الطين مراقباً - دون أن يرفع ناظريه - اندفاع الثلج الرمادى على ساقيه إلى أعلى ولم يفكر فى شىء محدد عندئذٍ. «خواء الأماكن!» قالها مرة بصوت عالٍ وضحك ثانية، يستطيع الآن أن يضع بقعًا متضامة من الثلج خارج منطقة المرور فى وسط المدينة بجوار الآثار المتداخلة لكعوب الأحذية. بقع بحجم كف اليد أو بحجم الكتاب أو بحجم الأطلس أو بحجم المكتب أو بحجم مضاعف لحجم حدائق البيوت الأمامية، فاض به الكيل فجأة ورأى أنه من الأفضل أن يعود إلى بيته ولكن هاهو الآن بأقدام مبتلة يشعر بجوع حقيقى بالقرب من منزل صاحب المغسلة المزهو بنفسه، وهو ما دفعه بعد هذا التغير المفاجئ لأن يتحول نهائياً إلى

هانز . «خواء الأماكن»، لم يشك أبداً أن جيزيلا ستستقبله على الأقل بدفء وقليل من الطعام والشراب ولكن قبيل البوابة التى تفصل الرصيف عن شارع "كيزفيج" راوده الشك أنها قد تكون لم ترجع بعد من دورات إعداد وتدريب المربيات أو الدراسة كما تود دائماً أن تسميها، حسناً فلتمولها إذًا مع توافر ثروة والديها وبغض النظر عن فرص العمل سيان حتى لو عملت فى هذه الأثناء أم لا.

أما ما أفزعه فهو تخيل أن يكون البيت مظلماً دون أن يلوح أى شعاع ضوء واحد فى الأفق، ياله من لحظة بشعة، فمضى سريعاً من الغضب. نعم، تماماً هذا ما قد يصيبه. بيت صديقه فى هذه المدينة الذى له عليه حق الاستضافة الكريمة ـ هذا ما ينبغى أن يقال، هذا البيت الذى يشع فى هذا الوقت بغزارة من شبابيكه الكبيرة ، يشع ضوءًا ساطعاً أو مكتوماً بالستائر يلقى به على الطبيعة البكر المغطاة بالجليد، هذا البيت المحاط بسور من حديد مصبوب صباً تاماً بتأثير الحرارة، هذا البيت الذى يتوسطه فانوس يضىء جزءى شارع «كيزفيج» وهو واجبه. ماذا لديه غير ذلك ؟ ماذا يرجو غير ذلك؟ لقد سار على الطريق الطويل الرطب فى وضوح نحو هدف مسالم، هدف ليس شيقا على الإطلاق ولا يحمل أى نوع من الإثارة، لا ينبغى أن يحدث أكثر من أن يكون فى النهاية هذا البيت المعروف له والمضىء كما ينبغى له بالكهرباء مثل كل البيوت هنا بمثابة مرفأ ليلي

للعائدين إلى بيوتهم متعبين.لتصبح هذه البيوت العتيقة بالذات، هذه القلاع البرجوازية الفخمة فى ثباتها الذى لا يهتز فتصبح فوراً قصوراً مهترئة جداً، تصبح أطلالاً بشعة للأرواح المعذبة إذا لم تكن فى هذه اللحظة مواقد عظيمة مبهرة بين السماء والأرض.

فى غضبه لم يرقب سيقان بنطاله خلال الأمتار الأخيرة، ولكنه وصل الآن والبيت مضىء، ليس من شبابيكه المطلة على الشارع، بل بفانوس شارع «كيزفيج» والمصباح الصغير المعلق على الباب، ومضى كل شىء كالمعتاد! دَق الجرس فأضاء نور آخر من مدخل الباب ورأى من خلال زجاج الباب جيزيلا بثوب داكن تحملق فيه ثم باندفاع من تعرف عليه تقفز الدرجات الأربع هابطة إليه وفتح الباب الثقيل وعلى الفور بدا له الأمر وكأنه لا يدخل فقط إلى النور بل أيضاً إلى الدفء، صعدت جيزيلا السلم بجسدها المتدثر بالصوف وشعرها الأحمر المرفوع إلى أعلى دون أن تتخطى أيًا من درجاته، واحد .. اثنين.. ثلاثة.. أربعة وسريعاً ما جلس بدون حذاء بجوار جوارب هانز على كرسى فى ركن المطبخ وأمامه قدح من القهوة الساخنة كان جاهزاً لدى جيزيلا، يكاد المرء يظن أنه له ولكنه كان قدحها هى، فقد عادت هى نفسها منذ عشر دقائق فقط، عندما راقبها من مقعده المريح لبعض الوقت بينما تعد له هى ساندويتش السجق، بدت له أنحف قليلاً عن ذى قبل، وكان وجهها

بالجانب أكثر توتراً ربما كان مستثاراً فقط إثر زيارته غير المتوقعة واقتحامه لساعة احتسائها القهوة منفردة.

يبدو أنها كانت تشرب فى قدح من البورسلين جالسة فى هذا المقعد تقرأ الجريدة المفتوحة، وحينما مد يده إليها أقبلت عليه ودفعت إليه بالصحن ثم شربت من قدحها وضمته بيديها قبل أن تجلس، ما أشد رغبته الآن فى أن يتقاسما الجريدة ويقرءاها على الوسائد القديمة وهما يرتشفان القهوة، بالطبع لم يكن شيئًا كهذا بالوارد لدى جيزيلا وهو ما كاد يترك انطباعاً بعدم الاهتمام اللطيف ببعضهما البعض لديها، بينما ينتظران هانز دون أن يُظهر أحدهما غير ما يُبطن. التزم الصمت أثناء تناول الساندويتش المحشو بسخاء ثم سألها إذا كانت لا تزال تملك قطعتها الذهبية، على الأرجح ليقطع الصمت المحرج بينهما، فقفزت بدون أن تلتفت لمحاولته التهدئة من روعها وعادت مسرعة بحقيبة أوراق ـ إنها تملك حقاً حقيبة أوراق، أسَّرها فى نفسه بتأثر ما ـ وأخرجت من محفظتها قطعة الذهب المبتلة بالعرق أمسكت بها أمامه ـ مثلما تستعرض السيدة بارتيلس أحياناً دفتر التوفير الخاص بها ـ على أية حال كان لزاماً عليه أن يمسك بها لثانية أو اثنتين بعدما تساءل عنها لمجرد أن يقول شيئاً بعدما أعادها إليها، فقد جلسا الآن ثانية بجانب بعضهما وبينهما أحد أركان المائدة ـ وإن شئت الدقة ـ فى

الزاوية اليمنى بجانب بعضهما. ثم وقعت القطعة الذهبية من بين يدى أحدهما لم يستطع فيما بعد أن يتخيل لمرة أخرى ممن ؟ فانحنيا كلاهما إليها وارتطما هما الاثنان أو أحدهما بقدح القهوة الصينى بينما يقومان ثانية، لتنسكب بقية القهوة على المفرش الأحمر؛ فالتقطت جيزيلا القدح المتدحرج ووضعته على المائدة ولم تنبس بعدها ببنت شفة، جلست دون حراك منحنية على المفرش محملقة فى البقعة التى بدأت فى الانتشار فى النسيج المتين، أخذت البقعة تتمدد فى كل الاتجاهات بشكل متساو وتكبر رويداً رويداً، استغرقت فى ذلك وقتاً طويلاً ولم تحرك جيزيلا ساكناً.

لقد أعجب ماتياس روت بأنها قمعت متراخية فطرتها بأن تنقذ ما يمكن إنقاذه وركزت جل اهتمامها على دراسة عملية امتصاص السائل وتشبع النسيج المثيرة والتى قد لا تلفت النظر ولكن لا يمكن الحد منها، أجل، بيولوجياً، أجل قدرياً. فى بداية الأمر لم يكن لديه كل ما لديها من صبر. كان من رأيه أن العملية قد تمت ولم يتفهم لِم لا تزال متسمرة، منحنية على البقعة تسجل على ما يبدو تزحزح حدودها الضئيل، رآها بوضوح من الجانب لم تقم بأية ردة فعل بل أجبرته بالتالى أن يراقب أيضاً المكان الملوث بلون داكن على القماش، وعندئذ لاحظ بقعة العرق تحت إبطى جيزيلا، كما حدث فى الصيف، فى محل بيع الحيوانات عندما وقفا فى نهاية المطاف

أمام حيوان اللجوان الساكن ذاك الذى أعاد أخيراً طرفه العلوى من الهواء إلى جسمه ثانية.

الآن كان يشم رائحة عرقها، لم يعد يعلم أهو الحاضر أم الماضى وحدثته نفسه أن بقعة العرق التى اكتشفها حينئذ كانت موجودة بالفعل وما بدأت فى أن تتكون قبل ذلك، أى أنها كانت مختلفة عن هذه البقعة وبلا شك بدا له هذا الأمر ممكناً على حين غرة حين وجهت جيزيلا نظرتها الصارمة على هذه البقعة ليس لسبب آخر سوى أنه تذكر تلك البقعة الأولى الملتصقة بشدة على بشرتها وصدرها والمختلطة برائحتها.

ولكن قبيل أن يتعجب، قبيل أن يتمكن من التفكير فى أى شىء قد يطغى على الإدراك البسيط لهذا الوضع العجيب، يبدو أن جيزيلا قد حدست أنه بدأ فى الوصول إلى الوعى المطلوب، برأسها الذى لا يزال منحنياً على موقع الحادث بحيث إنه كاد أن يلمس بشفتيه المشط الصغير الذى يتخلل شعرها، وللتو فقد عَلِم لم يكن الأمر قد انتهى بعد، لقد شاهد البقعة وشم رائحة بقعة على الفستان الصيفى ورأى الرأس الأنثوى المنحنية والتى بدأت فى التحرر من تصلبها نتيجة حركة صغيرة بدأ الآن شىء آخر، ببطء شديد انتصبت الرأس وظل ساكناً، لو كان هناك صوت لما سُمع. بتردد شديد صوبت جيزيلا وجهها نحوه أثناء رفعها رأسها تدريجياً، لم ير وجهها قط من هذا القرب، حتى فيما سبق عندما كان يقترب منها فجأة؛

ليثير فى نفسها الذعر، وبدت عيناها عندئذٍ حتى ولو من طرف خفى تراقب البقعة أو ربما تكون مغلقة فقد كانت الجفون مغلقة قليلاً على حبتى العين ومرة أخرى كما لو أنها انتظرت أن يلتقط هذه الصورة لمقلتيها المختفيتين عن عينيه.

وبعد رفضها التام لأن تنظر إليه رفعت رموشها العلوية مرة ثانية ـ بعد أن تفهم الأمر– فتحت جيزيلا عينيها ببطء، هذه المرة بنظرة ثابتة مصوبة نحوه، وخطر بباله شىء لم يستطع أن يجزم حينها هل يعرفه من أحد الأفلام أم أنه سمعه من ماريانا؟ ثم حلم به بعد ذلك، بالتأكيد كان مشهدًا من فيلم ضابط ينظر من على ظهر جواده فى استعراض ما إلى فتاة شابة ترتدى قبعة كبيرة والفتاة تنظر إليه بلا اكتراث حتى خلعت قبعة القش كإعلان ليس خافياً على التلامس والجرح التاليين كما لو كان تلاقيًا كبيرًا للرموش أو فراشة تفرد جناحيها لكى تستعرض قوامها ثم تختفى الفتاة خلف القطعة المضيئة بل خلف اللوحة المضيئة، ولكن الأمر هنا كان معكوساً ، كان كل شىء معكوساً.

نظرت جيزيلا إلى وجهه.. إلى عينيه ووصلت نهائياً إلى هناك وقد احتاجت لكل أوقات معارفها، ليس فقط لهذه الثوانى _ لترفع رموشها مرة واحدة تأجلت بلا حدود _ لكى تنظر إليه، نظرت إليه بقدر من القوة وبقدر من الإرادة حتى أنه قمع بجهد جهيد

خاطراً بالالتفات كما لو كان أحدهم يقف خلفه وهو الذى تعنيه الحقيقة، تهرب منها وقد أرهقه ألا يفعل، كان لزاماً عليها أن ترى من هو أعم وأشمل منه ، من هو أكثر تعقيداً ، ماتياس روت ولكن بالعكس لقد وجهت نظرها إليه بالتحديد، لم تكن غائبة عن الوعى كانت تعنيه ولقد كف عن محاولة أن يبتسم ابتسامة متوازنة، فلم تكن جيزيلا تبتسم ولا هو أيضاً، كان عليه أن يحتمل نظراتها وعندئذ فقط، نجح فى أن يبادلها النظرات وأن يغوص مثلها فأصبح الأمر أيسر.

هذه الطبيعة الصخرية العارية.. هذا الصيف القاحل.. هذا الحجر القاحل، هناك حيث يتعلم المرء الرهبة لقد فهم فى هذه اللحظة وكان تأثيره كما لو أن والدى المرء وأصدقاء طفولته قد سلبوا منه؛ وليس هذا فقط بل كمن لم يكن له قط والدان وأصدقاء، وفى أثناء ذلك كان ينظر إلى جيزيلا وبعد أسابيع عديدة ظهر هذا الوادى أمامه من جديد ، رآه فى عينى جيزيلا، ذلك الطريق الضيق فى البداية، هذا اللهب القاحل، حافة الجبل الرمادية فى النهاية والحدائق والماء والغابة ونور الغابة وذلك النبات المضىء والأسوار المهدمة وبلاطات المنحدر ذات اللون الأسود، تلك القشور المزدهرة بعد تحللها، رأى نفسه واقفاً يجرى ويبكى فى عدة أماكن من الوادى فى نفس الوقت، كان بإمكانه أن يشعر فجأة بامتلاء الذات ثانية هناك ، امتلأت ذاته فقد كان موجوداً فى كل مكان فى واديه. كان هناك كما حبة البندق فى

قشرتها أو كهيكل فى تجويفه أو كماتياس روت فى موطنه، ولم يقل شيئاً لم يمد يده بعد إلى وجهها، لم يُقبل بعد شفتيها. لم يسألها بعد، ماذا تراقب بوحشية واحتفاء؟!

وكان بينهما رجاء غاضب ولكن من الذى طرحه؟ من منهما هو الذى طالب بشىء مُلح على ما يبدو يشعر به المرء كالدوامة أو كنوع من الضغط كتيار هواء أو كنقص فى الهواء. ولم يكن المرء يعلم أى المطالب يعرض فلم يبدُ ذلك مهماً بالنسبة له كان يكفى أن يشعر المرء بوجوده، لم يكن لديه الاحتياج قط لأن يفعل شيئاً، لقد غرق فى القنوط وربما كانت وظيفة المطلب المجهول أن يعتصرا معاً، رغم المليمترات الكثيرة بينهما مسافة لا تكبر ولا تصغر. رأى فجأة شفتى ماريانا أمامه وكان ذلك بسبب ابتسامة جيزيلا، كل مرة كانت ابتسامتها ـ أكثر ما يُثير فى وجهها ـ تذكره بماريانا، تلك الابتسامة التى تجمع كلتا المرأتين رغم اختلافهما، ولكنها كانت لدى ماريانا تمثل مجمل شخصيتها بينما لدى جيزيلا فما هى إلا خطأ غير مقصود لا يتناسب مع باقى شخصيتها، ولكنها كانت ابتسامة فى حد ذاتها منذ البداية يمكن أن تنفصل عن الوجه الذى تستكين عليه، تلك العلامة الغامضة الساخرة التى وضعها القدر لكى تجرده من قدرته على الدفاع عن النفس، بغض النظر إذا كان ذلك يرجع لخصوصية ملامح وجهها أو لانعدام الفكر لديه، كان ذلك ما وجه سلاحه نحوه ولو نظرت إليه

جيزيلا من قبل هكذا بهذه الابتسامة لو فهم أنها تعنيه لحدثت هذه الخفقات والنبضات الساكنة بينهما منذ أمد بعيد، كانت هناك ابتسامة نائمة تكاد تكون مستهينة وفى نفس الوقت متحفزة فى خبث تحت عينيها اللامعتين ، علامة ورمز تتصرف بهما معه أو ضده، وربما كان وجه جيزيلا مجرد رسول مُبلغ، لقد غلبته بهاتين الشفتين. لم يكن يفهم كالمعتاد هذه الابتسامة لكنها أصابته بسهامها تماماً والآن فقط، إنهما يتحدثان معًا، إنهما غالباً ومنذ وقت طويل يتبادلان أطراف الحديث، فى الواقع فقد تكلما ثانية لفترة وجيزة وراقبا صورة فى الجريدة كانت موضوعة مفتوحة، منطقة مظلمة قاطعت الخطوط المتساوية للصفحة.

كان يجب أن يزيح يد جيزيلا التى كشفت عن الصورة ثم غطتها إلى حد ما بينما نطقت هى وبسرعة كأن أنفاسها تلهث بكل الكلمات التى افتقدتها لمعارفها، لمسها بحذر، هذه اليد الصغيرة الغضة التى ما أعجبته من قبل قط، ولم يتخيل أنه قبل نصف ساعة أو ساعة- قد ضغط عليها بيده بقوة وبدون أدنى إحساس؛ ولأن هذه اليد تقبع متكاسلة على ظهره بجوار الصورة تعرضها بشكل عار إلى حد ما فقد استطاع أن يرى أمامه سريرًا عليه مرتبة وبعض الأسلاك وفى الخلف مائدة خلفها كرسى، بعيداً.. بعيداً تحت شباك صغير عال، وفيما عدا ذلك كانت الغرفة خاوية. «غرفة تعذيبٍ» سمع

صوت جيزيلا تقول ذلك، «يمكن أن يزورها المرء».
لقد قالت هذه الجملة ذات مرة سابقة ولكنه لم يستوعبها إلا الآن. يجب أن أرى مثل هذه الصور، ودائماً بإحساسى بالذنب ـ لا أعرف لماذا، فى رأسى صور عديدة مثل هذه وصرخات أيضاً، لم أكن شخصاً ممن يجلسون على الكرسى بجوار النافذة؛ برغم أننى أشعر تماماً كيف يكون تعذيب الضحية من السير بالمائدة من هذا البعد الرهيب للشباك، لست أنا أيضاً ذلك الذى يشى بالآخرين عند استجوابه وتحت تأثير التعذيب ولكنى لدى الإحساس بالذنب، ربما يكون ذلك بسبب النسيان.. نسيان أن المرء ينسى فى بعض الأحيان أنه ينسى هذه الغرفة" إنه يسمعها ولكنه يعتقد أنه رغم ذلك ما زال ينظر إليها أثناء ذلك الآن حينما تواصل : «ليس مسموحاً لى أن أتحدث مع هانز عن مثل هذه الصور، لا يستطيع أن يحتملها، عندما يأتى من العمل، لن يطيب له الطعام بعدئذ، لن يحتمل ذلك ولن يعلم بعدها لماذا يقوم بعمله».

فدار بخلده أن: ابق بعيداً ياهانز، بحق السماء لا تعد اليوم سريعاً إلى البيت !

عندما أشاح بوجهه بالفعل عن غرفة الاستجواب التى أصبحت متحفاً أكد لنفسه: جيزيلا ابتسمت قاومت الابتسامة و ابتسمت رغماً عنها مثله تماماً، لقد كانت الابتسامة أقوى منها ولم تقهر، ولم يتمكن أن يراها تتشكل وتتحدد، كان تشكيلها الدقيق مشوشاً

أمام عينيه، أما ما أحس به بشكل أقوى كما لو كان دخانًا متصاعدًا فكانت خطوط القوة من مصدر قريب، واختفاء الطبقة العلوية للبشرة خلال اتصالها بمنطقة الإشعاع ثم اعتقد أنه سمع صوتًا ما عند باب البيت ومن خلال الضباب لاحظ رعشة جيزيلا وكذلك صعود كثيف حتى أن كل شىء قد تغير، رآها الآن بوضوح تام فقد مزقت عاصفة خيوط الدخان وشتتتها ومن خلالها تحددت حالة الهواء ثم توقف الصوت واستطاعا أن يهدئا من روع بعضهما، لم تفته أى من إشاراتها فى هذا الضوء المتناثر، وضعت يديها على المائدة وبهذه الحركة الممتدة أصبح الهواء نفسه حاملاً لها، ومضى الوقت أبطأ حتى تسرب إلى داخل عقله وقد فطنت إلى ذلك، كانت تتحكم فى الوقت كان هذا سحرها الذى تقوم به جيزيلا بوعى تام بسلطانها، كان الناس دائماً يزعجونه بإيقاعهم الخاطئ، تمضى الأشياء بأسرع أو أبطأ مما يحب إذا لم يقاوم ذلك بعناء شديد، و لكن هنا كان كل شىء على ما يرام، فقد سحرت جيزيلا مقاومة الهواء وباعدت قليلاً بين أصابعها، ثم رفعت ذراعها وخفضته مقابل رأسها لكى تثبت أحد الأمشاط الصغيرة فى شعرها، سرى بينه وبينها لذلك نفس القانون؛ تساميا بفضل قدرات جيزيلا الخاصة فى تحويل الوقت وتحويل الهواء بنفس السرعة، بعد فترة وجيزة مدت يدها إلى الكوب ووضعته على شفتيها ثم رجعت برأسها إلى الوراء قليلاً، لقد نسيت أن القهوة قد انسكبت ولكنها أرجعت رأسها إلى الوراء لكى

تحصل على آخر قطرة من القهوة وبذلك فقد ظهرت حنجرتها العارية البارزة من ياقتها، وقد كان الأمر كما لو أنه مشدوه لكل حركة منها كما لو أنه يجب عليه أن ينظر إليها بلا انقطاع، كما لو أنها مخلوق نورانى، يشع النور من داخله، مخلوق ينبغى ألاّ يفوته منه أصغر الصغائر، مخلوق يتفوق فيه كل شىء لدرجة التفرد لأنه يلمع وحيداً فى محيطه المظلم، سمعوا الصوت لمرة ثانية ولم يعد هناك مجال للشك، لقد دفع هانز الباب فى المرة الأولى أو أنه استخدم المفتاح الخاطئ فبين الصوتين الأول والثانى ما كاد يمضى وقت والآن زج بالمفتاح الصحيح فى الباب.

كان ماتياس روت يأمل لو تستطيع جيزيلا أن تطيل الثوانى ولكنه رأى أنها تطلب منه ذلك أيضاً، كان جسدها ناعماً بالمقارنة بجسده، احتواها بذراعيه وساقيه، أمسك بها وأحس بكل شىء فيها فى نفس الوقت، صدرها.. ظهرها.. فخذيها، أمسك بها فقط وببساطة واشتم عطرها أسفل شحمتى أذنيها وما كان بينهما فراغ قط، فى كل مكان كانت هى أو كان هو. تكاملا بمميزات جسديهما بشكل بديهى وضرورى كما لو أنهما تدربا على ذلك لسنين طوال. هكذا أحس بلحمها على لحمه، طوقه لحمها ودفعه واستجاب هو بدقة عليه وبدون إرادة أو قرار، حتى أنه نسى الأجساد أو أنه الجسد نفسه كان بإحساسه وعقله وروحه المنعكسين بداخله من يعلم كل شىء بعيون مغمضة بلا فكر.

ولكنه تعجب فى نفس الوقت أنه أحس بجسد هذه السيدة كما لو كان يغسله ويحيط به من كل مكان رغم أنه كان هو الذى يمسك بها بين ذراعيه وبساق بين ركبتيها وبأخرى على عظمة ركبتها، تواجدا بنفس السرعة ونفس الإثارة، وقفا بين حقل أبيض وآخر أسود تماماً. كانا قد ماتا منذ زمن ولكنهما كانا على حافة لهب، بدءا الآن فى استلاب الحياة من بعضهما البعض الآخر، شم عرقها الذى يختلط بالعطر على شحمتى أذنيها، صعد هانز درجات السلم، واحد.. اثنين.. ثلاثة.. أربعة. ابتعدا عن بعضهما ورأى كيف تكسَّر ثوب جيزيلا من منتصفه من أثر ركبتيه وارتفع حتى أعلى فخذيها، ولكنها أبعدت ناظريه عن الثوب ثم تفحصته وجعلته يتفحصها قائلة: «بالعكس، الآن سنحتسى الشاى» بصوت لا أثر فيه لشىء ثم فتحت حتى قبل أن يلمس هانز مقبض الباب مبتسمة ، الآن مبتسمة لزوجها.

(من رواية رامى السهام الخيال، ١٩٨٦).

أهم متطلبات القص هو الاقتناع بوجود سر فى مكونات العالم فى أشخاص، فى الليمون والأوعية، عندئذ فقط تصبح الرغبة فى الامتلاك والمديح ممكنة؛ عالم بلا أسرار لا يقدم لنا إمكانية معايشة الحدود وهدمها ولا معايشة الغواية الحميمة، لأنه يكون عالماً واضحاً تماماً من البداية فقد يكون عارياً وقابلاً للتكاثر؛ لكنه ليس فى حالة الاكتشاف المنتشى التى تخلق درجة «أعلى من الجمال».

(من: تعليق على تانيا بليكسنز فى: مقالات حول الأدب- ١٩٧٨)

إنقاذ الحالة الوحيدة

أو

شهرة كل شخص

فى رواية «تجربة الشجاعة» شاطر نابوكوف أحزان البطل الشاب مارتين بمناسبة موت المغترب يوجولفيتش فى مدى إمكانية استبدال الأقوال المأثورة التى سطرها كاتب الخاتمة عن حياة الرجل العجوز السياسية والوطنية، كما حزن على أصالة المتوفى التى لم يرَ لها مثيلا فى أى مكان وغير القابلة للتبديل قط، فماذا يمكن أن نفهم من هذا؟ إنها الابتسامة الخجولة المفاجئة، زر المعطف المعلق فى خيط واحد، أسلوبه الذى لا تخطئه العين فى لصق طوابع البريد مثلاً.

إن نوعية الفرد التى تكمن فى النسيان والتسطيح والتفاهة تهددها نوعية التفاصيل، وهنا يكمن الاختصاص الأخلاقى للأدب، هذا النوع من الإنسانية

يمكن أن ينتظرها المرء منه: الاحتفال بتشكيل بنية هشة وفريدة وحيدة ذات ملامح رقيقة وضعت ضد التعميم، الاصطلاح والأيديولوجية، إنه طراز الكائن الحى غيرالقابل للتكرار حيال الزيادة اليومية الهابطة فى الكم، المتزايدة يومياً والتى لا يمكن أن نتجنبها.

أما النقطة الثانية فهى أن الأدب يقف - من وجهة نظرى - عند القضية التي يتجه إليها وليس بجانب «الصفوة» أو ما يخص كُتَّابها، أو موضوعاتها أو حتى قرائها، «فخيال الشاعر» ليس يمينياً كما قال بوتو شتراوس [١] متعجلا؛ بل تكفى مناقشاته لإحداث انقلاب غير منحاز لفئة أو لطبقة ما، وممكن أن يكون أصيلاً مثل خيال أصحاب القصص المقدسة فى الأرض بدءًا من هوميروس، مرورًا بهولدرلين [٢] ووصولا إلى هويكينس[٣] وخصوصًا الخيال الذى يحدس ثروة بوتو شتراوس: المشاعر الحقيقية لدى كل إنسان ويظهرها للنور ويجعلها على أرض الواقع باستخدام اللغة، يجعلها من لحم ودم، ينقذها.

بطريقة أخرى، وبالعودة مرة أخرى لنابوكوف، ففى اقتباس من سيرته الذاتية «الذكرى تتحدث» التي

---

(١) Botho Straub ولد عام ١٩٤٤ أديب ألمانى عرضت مسرحيات كثيرة له على خشبة المسرح الألمانى. (المترجمة).

(٢) Friedrich Höderlin ١٧٧٠ - ١٨٤٣ شاعر وأديب ألمانى (المترجمة.).

(٣) Gerard Manley Hopkins ١٨٤٤ - ١٨٨٩ شاعر إنجليزى يسوعى (المترجمة).

تعد تارة غير أدبية وتارة أخرى تعد كأنها أدبية ولكنها لا تحتوى على مواطن جمال، جاء التالى عندما سقطت إحدى الصفحات على انعكاس صورته فى المرآة: «...فى جزء من الثانية يخشى المرء أن يفشل العمل الفنى، ألا يشتعل الزيت المقدس وأن تنعكس صورة أوراق الأزهار بطريقة خاطئة، وهذا الزيت يجب أن يشتعل ذاتياً، ولكن كل مرة حدث فيها ذلك التوحد الرقيق، كان له وقع السحر تماماً مثل كلمات الشاعرالتي تمس ذكرياته أو تلاقى القارئ فى منتصف الطريق».

(من: ماذا يمكن ان يفعل الأدب؟ فى: القفز فى الهواء وفى العش، عن الأدب والفن- ١٩٩٥)

فيلى فينجز فى صيدليته:

أعتقد أن هناك اختلافًا طفيفًا وحيدًا كالذقن الملتصقة مثلا (مع اختلافين بسيطين فى الملامح، الأول يكمن فى الاستكار الشديد والثانى فى الرغبات المكبوتة والمتزايدة بسبب التزام النظام)، انحصار الشفة العليا يسار زاوية الفم.

١ ـ تذمر بسيط بسبب قوة العناد الدائم.

٢ ـ الرضا الملحوظ فى عينيه خلف النظارة.

٣ ـ الخجل، إذا وضع المنديل على الفم كل هذا جعلنى أتعرف على ملامح فيلى ذات الطابع الفطن من بين الكثيرين ذوى الوجوه المألوفة.

آنذاك عندما كنت أراقبه من خلف الزجاج منذ أربعة عشر شهرًا قبل تلك الليلة فى شهر مايو ابتسم لى ابتسامة عريضة وبشفاه رفيعة، ثم انحنى لى بطريقة تغلب عليها نشوة الأدب، عندما يكون فى متجره يضع على وجهه قناع العمل، ولكنه يصاب

بالإجهاد بعد لحظات ـ بالطبع ـ فيتوجه إلى الغرفة الخلفية ويلقى معطفه الطبى الخاص به على أقرب كرسي، وهذا يدل على أنه لم يكن لديه اختيار لينتقى من بين الأثاث - وهذه هى الحركات التي كان يقوم بها - ثم يتحدث مع الهدهد الذى يصطحبه معه كل يوم إلى الصيدلية.

هذا المعطف الناصع البياض والمبطن كان يجتذبنى أنا شخصياً، كنت أريد أن أقبل تصرفات فيلى وأقف جانبه مشدوهةً وأناديه: يادكتور. كم يتغير فيلى كثيرًا، وهو ما يتوقف على ما إذا كان يرتدى زيه الرسمي أو زيه الخاص، آخر مرة رأيته فيها وهو طفل صغير كان عاريًا، وحتى اليوم وحينما يرمي ملابسه فى الحجرة الخلفية، ربما لا يكمن الاختلاف فيما عرضه من قبل بعد ذوبان أعلى قمة حماية جليدية، وعلى كل حال فإن صيدليته تتمتع بشىء إلهى مثل كافة الصيدليات الأخرى، يكفى تلك الخفة فى حركة الموظفين حيث يبدون كالملائكة وهم يحلقون من دواء إلى دواء، ولا ينقص فيلى سوى المباهاة الحمقاء بمعطفه الأبيض، كما يبدو فيلى تأثرًا داخليًا للغاية بوجود ذلك المعطف حتى أنه حدد مكانه فى المتجر. وفى كل مكان يرتطم المرء بنبات أو بمرهم أو بشىء يشبه الحبوب ذى لون فاتح أو بنبات النعناع أوالكتان ذى الرائحة الفواحة والذى يتواجد وحده مثل الكتان المتفرد كالغسيل المتجمد فى الهواء، وهو مايبدو له الآن بسيطًا كل البساطة.

أما مع إنجبورج فالوضع مختلف؛ فأنا أتعجب لأنني أراها مع فيلى فى متجر واحد معًا، ربما لزيادة عدد المرضى مقارنةً بالموظفين؟ ولم تغلق إنجبورج معطفها الذى يشبه معطف العلماء لكي تظهر أنها فى عجلة من أمرها، وما تبيعه الآن لا يمكن أن يكون علاجًا يستلزم وصفة طبية، ولكن ربما تكون مستحضرات تجميل، وهو الأمر الذى يتطلب استخدام كافة الإشارات وحركات اليد والجسم، حيث يهتم هذا المكان بالصحة أكثر ما يهتم بالجمال. صحيح فقد لوحت لى بإصبعها بمهارة عندما أخذت تديره بالجزء الباقى من يدها أمام عينها لتشرح الأمر دون أن تدرك العميلة هذا، فإنجبورج متخصصة فى الأفعال الفورية.

استمرت فى حركاتها بينما كنت أراقبها من خلال الزجاج، وكانت إنجبورج تتعامل مع بشرة العميلة وكأنها مسألة عاطفية وكانت تطبق ما تقول على جسم ما، وكانت تقدم بعض النصائح للعميلة بأن تقول لها على سبيل المثال إن سر البشرة الشابة الدائمة لا يكمن فى الكريمات الأغلى فهى ليست الأفضل بالضرورة، كما أنها كانت قد أسرت لى مرارًا بأن قسم مستحضرات التجميل كان يمثل دخلا ضخما للصيدليات، ومن الناحية الأخرى كان العملاء يفضلون هذا القسم عن محلات بيع العطور وذلك بسبب التأهيل الأفضل للبائعين به خاصة على المستوى الطبى، ويكمن إبداعها فى أنها تقدم

التخصص فى مستحضرات التجميل وتراقب بجدارة ما إذا كانت هناك أشياء صغيرة غريبة، أو أشياء مطلوبة بكثرة مثل "كريمات إعادة شباب البشرة" فتلمسها بأصابعها و تستحسنها.

دخلت الصيدلية فى رهبة مع رجل آخر كان يحمل روشتة طبية وكأنها كارت دعوة. ولم أستطع أن أمنع هذا، فقد اتجه الرجل نحو إنجبورج التى ودعت عميلتها باهتمام، وكان فيلى أيضا على ما يبدو مشغولا مع سيدة عجوز لوقت طويل. ومكثت فى الخلفية، بينما جلست المرأة على كرسى أبيض صغير لكى يقطر لها فى عينيها من القطرة التى اشترتها. وقد علمت بعد ذلك أنها أخرجت هذه القطرة من حقيبة يدها. ثم صاحت فى الغرفة قائلة "احترس يادكتور.. عيني" وهزّ الدكتور رأسه مدافعا عن لقبه الذى لا يستحقه، وقد أعطى السيدة منديلا وفقا لرغبتها، أرادت السيدة أن تقول شيئا بعد أن انتهت إنجبورج من عملها فى الوقت الذى دخلت فيه أم معها طفل صغير، ولم يكن لدى فيلى الوقت لكى يتبادل معها النظرات أو حتى كى يلقى عليها نظرة، ربما فات على فيلى أن أكون أنا العميلة الموجودة فى الخلف عند أقلام أحمر الشفاه والتى لم تتذمر من التجاهل.

أخذت السيدة الجالسة على الكرسى تحملق بتمعن ولكن باشمئزاز تام وبدون تعليق فى الطفل الذى كان يرتدى قبعة مهرج مثل تلك التى كانت فى

العصور الوسطى، ولقد تسرب إلىَّ انطباع ما بأن فيلى يحاول - بينما يقدم لها يد المساعدة - أن يوضح أن هذا العمل لا يندرج ضمن أعمال الصيدلة إطلاقا، فقد فشل فى أن يظهر موهبة فى القيام بأحد تلك الأفعال الفورية، بينما تثق السيدة فيه ثقة كبيرة، أما إنجبورج التي كانت تحضر القطن الطبي، والحفاضات، وكريم تسلخات الأطفال وفرش أسنان الأطفال فقد وجهت نظرها فى اتجاه السيدة، وكانت نظراتها لفيلى أقوى من نظرات الطفل، وبنفاد صبر.

داخل صيدلية «إسكولاب» وبسبب تنسيقها الداخلى كنت أشعر بالراحة وذلك لأنهم كانوا يتقبلون وجودى دون مراقبة، لذا فقد وزنت نفسى بالطبع فى تلك الأثناء وأخذت أحد أقراص الحلق مجانًا مثل الطفل وفى حمايته بشكل ما، ويحتوى أثاث الصيدلية الداخلى على تفاصيل تعود إلى الماضى، على دولاب متعدد الأدراج ذى طراز يذكرك بزمن الأجداد، أوانى طبية بنية اللون تميل إلى اللون الذهبى موجودة هناك أعلى الأرفف، والأوعية الفخارية ذات الأسماء اللاتينية والأزهار المرسومة عليها والتى تقضى بالفعل على أى مرض.

لقد تولى فيلى إدارة هذه الصيدلية من سلفه، وبسبب هذه الأشياء درس علم الصيدلة، وفى مرحلة طفولتنا كانت لنا صديقة هى ابنة صيدلى، كانت بدينة وذكية وتدعى أليكا تسيمرمان، وما لايعرفه فيلى حتى الآن أنها عثرت على جهاز يساعد على

ضخ اللبن من صدور الأمهات، آنذاك لم يكن لدىَّ ما يؤهلنى لاستخدامه، لكننا قمنا بتجربته، فكان يشفط ويدغدغنى، وخجلنا من أنفسنا وضحكنا كثيرًا ثم تناولنا الآيس كريم، ربما كان المتجر يندرج ضمن المبانى المحمية بوصفها «آثار» وقد بيع مؤخرًا فى صفقة واحدة لمتحف المدينة. كانت معاطف العاملين فقط هي البيضاء وكل شىء آخر كان ما بين البني الداكن والنحاسى، أوالبنى الفاتح والذى يبعث نوعًا من التفاؤل وكأنه خليط من النباتات، وقد نال هذا المتجر إعجاب فيلى أكثر من جمع الطوابع أو الريش، فهذا المكان يعد مكانًا للتخزين قبل أن يكون مكانًا لنقل الأشياء، ومنذ أن امتلك هذه الصيدلية أصبح لا يستسيغ الصيدليات الأخرى ذات الطابع الحديث أو العمل بها، فهى تذكره دائمًا بأصالة الماضى، وهو مايبعث فى نفسه السرور بكل تأكيد فلقد أحب إنجبورج ذلك؛ لأنه كان يحتاج لأن يكون لديه صيدلانية ويرغب فيها.

أما عن أحوال فيلى قد استشعرتها عميلته بحاستها الأنثوية، ولم تفلح إنجبورج أن تتدخل فى هذا المشهد، أرادت السيدة أن تشترى لاصقة للروماتيزم والتحضير الخاص لمرهم ضد جفاف الأنف كما أشعرت العميلة فيلى ببريق الصيدلية العريقة، ولم تتنازل عن فيلى ولم تدعه يلتفت لنا حتى ذلك الحين.

لا لن تتنازل عن فيلى لنا، فيلى الذى كان يعرض لها زجاجة صغيرة ذات سدادة حمراء وسألها هل هذا هو المقاس المناسب أم لا؟ ثم بدأ فى التحضير وبقيت أيدى فيلى مختفية خلف البناء الجانبى لكى يتصاعد أثر الشعوذة عليها، وشعرت السيدة العجوز بخطر ما عندما مرت فتاة صغيرة جميلة يبدو عليها رغد العيش فى المكان الخلفى من حجرة البيع فأغلق فيلى المعطف وتهيأ كمن يقابل العملاء بكل حماس، أحست السيدة بأن فيلى سيتركها ليتوجه إلى هذه الشابة الصغيرة، فأدارت ظهرها لهذا الجمال المقترب وسألت فيلى ناظرة فى عينه: د. فينجز، ما رأيك فى زهرة الأنريكة؟" "نعم.. اسمها الأنريكة، كانت الناس تتناولها من قبل لتخفيف الآلام." وسألته عما إذا كانت هذه الأعشاب مازالت نافعة؟ قال فيلى بما يظن أنه دبلوماسية: " سوف تشعرين بتحسن عند استخدام اللاصقة." ولكنني أدركت أنه أخذ يصغي لكلمة أنريكة وهى تخرج من فم السيدة لمدة دقيقة كاملة.

لقد تعرف علىّ فيلى، فقد أزاح نظارتة أعلى حاجبيه العريضين، تعبيرًا عن سجنه المؤقت أو ربما عن الإحراج الخفيف؛ لأنه استغرق الوقت الطويل ليصل إلى هذا الاكتشاف. مدير المحل الكبير.. فيلى؟

وأحست السيدة بتشتت انتباهه فسألته: «هل يبدو المخ مثل قطعة عين الجمل؟» فأجابها فيلى: «ومخى أيضًا» ثم أحضر لها علبة المرهم الصغيرة، فقالت له:

«نعم ولكنه بالطبع لا ينسي كثيرًا مثل مخي» وقد يكون لديها الحق أكثر مما تظن، ذكر فيلى لها قيمة المبلغ الذي يجب أن تدفعه، وقد بدأت المرأة البحث فى حقيبتها بتكلف وتأوه مبالغ فيه، بصيغة أخرى كانت تقول: " أنا هنا يا دكتور" أما أنا فعلى العكس من ذلك كنت أقف أراقب بشغف كبير كيف انشغلت إنجبورج والفتاة الأخرى مع الزبائن وكيفية تنظيم وتعبئة الزجاجات فى أدراج صندوق الإسعافات الحديث التى كانت تفتحها وتعيد غلقها مرة أخرى، فيندفعون بمرونة كبيرة إلى الأمام والخلف، ففى مطبخ إنجبورج تعمل كل الأدراج تحت أمرها وكأنها تعمل بزيت يسير وفق رغباتها الخاصة. وأكدت المرأة قائلة: «فى القريب العاجل سوف يكون تحليل البول جاهزًا» وتركت فيلى ينظر فى محفظتها و يأخذ منها ما يشاء قائلة: «لقد اغرورقت عيناى بالدموع بسبب قطرتك هذه». مثل هذا الصيدلى من الطراز الأصيل تمنحه ثقتها التامة به حين وداعه بكل سرور.

وقال لى فيلى مؤخرًا إن كل المؤشرات تدل على أن إنجبورج فتاة جذابة رقيقة. تبالغ فى زينتها فلا تلائم ذوقه تماما كما أسَّر لى فيما بعد ـ و أثناء ذلك كان اعتناؤها المستفيض بالعملاء وبالخزانات ،لتتغلب على ضيق الوقت والاستعجال، نعم لقد كنا على رأس الألفية وهى تستطيع أن تنطق جميع أسماء الأدوية المختلفة بأكملها حتى لو كانت تحتوى على امتدادات طويلة لا لزوم لها ولكنها الدقة العلمية، عندما

استعدت السيدة للذهاب طلبت من فيلى أن ينظر إلى الميزان لمساعدتها فى معرفة وزنها، حينئذ بدأت آخر قطرة من صبر إنجبورج تنفد. وبعد أن قام فيلى بتحويل قراءة وزنها إلى الرطل سألته السيدة: «هل يوجد لديكم أسعار مخفضة لبعض الأشياء مثل الصيدليات الأخرى؟» وعندئذ أعطتها إنجبورج قائمة العروض الخاصة فى يديها وقلمًا رصاصًا بالمحاية ودفترًا صغيرًا، ومنديلا للنظارة وشمعة على شكل بيضة بالخيط، وقد أمسكت إنجبورج بيدها وأخرجتها بعنف للخارج دون أن يطرف لها جفن وكأنه اهتمام ظاهرى بها. هل يجب أن يعنينى هذا المشهد؟ فكان واضحًا أن فيلى الذى أصبح لديه وقت الآن كان يريد أن يتجه نحوى، وهو الأمر الذى يشكل إحراجًا بالنسبه لى، ما وددت أن أتجاهل وجود العاملين بالمتجر، هل كان يجب علىَّ أن أكسّر التقاليد؟ وعند كل إقامة لى فى مدينة فيلى كنت أقصده بدون تأخير، فهل أستطيع الآن أن أخفى نفسى؟. خرجت من الحجرة الخلفية فتاة أخرى ويعلم الشيطان ماذا كانا يفعلان هناك، لقد زادت فرصتى، ياإلهى..! فى وجود الكثير من النساء سوف يكون وجود فيلى مزعجاً، كنت أتمنى أن يفرح بوجودى ولو قليلا، كان فيلى يغسل يده خلف الأرفف عندما رجعت إنجبورج عند باب المتجر وحيتنى.

لقد رأيته أمامي بمعطفه الأبيض مستمتعًا بشعور الاغتراب المعتاد.. هالة الكتان، الأشياء المجهولة، عدم

إمكانيــة اللمس، الأشـيــاء النـاقــصــة فـى كل مـكان، الهندمـة فـى كل مكان، والـتـفــرد، يقف عــزيزى فـيلى خلف هذه الهلوسة.

شـعـر فـيلى بأنه فى حـاجـة إلى خلع مـعطفـه، ولاحظت ذات مـرة كيف كـان ممسكا بزجـاجـة عـلاج الكحة فى يده اليمنى مبتسمًا، وعندما تحدثت إليه قال إنه تقمص شخصية أحد الفلاحين الفقراء والذى أصـبح بعـد ذلك من عـبـاقـرة الاقـتـصـاد فى البـلاط الفـرنسى، ثم قال فـيلى حـرفـيًا: «أنا كنت راعى بقر إيطاليًا».

توجــه نـحـوى الآن وهـو يطلق تفــســيــرًا ويســوق مـعلومـات: «دينوفـلاجيـلات يسـتعبد البلاوالجه، هذا يزن ١٣٢ رطلا، أمـا الحـقـيـقي فـيـبلغ طوله ٣٥ ملليـمـتـرًا فقـط» وفجـأة بدا عـمـره وكـأنه أصـغر بعـشـر سنوات وهو يرتدى القـمـيص والبنطال دون المعطف، وكالمعـتـاد فى بداية كل مـقـابلة يثـرثر فيلى كى يتـغلب على خجله، لذا لم أستطع أن أتقدم بعبارات المجاملة، وفى تلك الأثناء سـألني هـو بصـوت يغلب عليـه نبـرة المنتصر: «ما رأيك فى برغوثى »؟

أخـذت أبحث بعينى ودون قـصـد فى الجـزء المفتوح من قـمـيصـه، لكن فـيلى مـد فـمـه من فـرط الرضـا قـائلا: «لا.. انظرى بالخـارج إلى تلك العـلامـة الجـاذبة للنظر» تسـاءلت أنا: «العـلامـة الجـاذبة للنظر؟» إن حــرف الـ «A» الأحـمر ذا الزوايا المتعددة والذى يعد

أول حرف فى كلمة «صيدلية» باللغة الألمانية - فى كل المدن يعد بالنسبة لى علامة مميزة ومحببة إلى قلبى. فهو يذكرنى تمامًا بحرف الـ «W» الأحمر فى اسم فيلى، تماما مثلما يثيرنى رمز القرنين المميز لمكتب البريد فوق الأرضية الصفراء أى كانت المفاجآت التى يجلبها ساعى البريد، ولم ألحظ برغوث فيلى إطلاقا على الرغم من أننى وقفت أمام اللافتة لبعض الوقت، حيث بدا أنه خاب ظنه فىَّ وفى البرغوث وقال: «هل يمكن أن تغفلى مثل ذلك الوحش؟» فقد أدركت أن فيلى فقط هو الذى يكمن وراءه، بدلا من ذلك الكائن الجبار (صورة ملتصقة على ورق كارتون بين علب الأدوية كما لو كانت حصوات فى الصحراء) وكان هذا هوالخطأ الكبير فقد كنت أعلم شغف فيلى بديكور نوافذ العرض، كان من الأفضل أن أقيم نافذة العرض أولا، وبعدها فيلى بوصفه صاحب الفكرة ومخرجها.

لم يذكر فيلى معامل تكبير حجم العلامة لى ولكنه قال إنه يجب على الإنسان أن يقفز مسافة ٣٠٠ متر إذا كان يرغب فى محاكاة قفزة البرغوث، هذا الكائن غير المتصور والذى نمى فى الكون كالعملاق له تأثير مثل ماكينات الحرب أو كجهاز المطبخ ذى الأشواك القاتلة. ويمكن أن تكون أيضًا كفريق من الجنود بينهم مسلحون فى المارش العسكرى، وأينما تجول العين كانت هناك دائرة بلهاء بلا منظور مصنوعة من مادة واحدة، قال فيلى:" يكمن تفسير ذلك باختصار فى أن الإنسان يجب أن يقوم بعمل خدعة مؤكدة وبعدها

يترقب نتائجها وبالفعل فقد اصطف بعض المارة بجانبنا، وأخذوا يتأملون تحفة فيلى قبل أن يغادروا المكان.

«البرغوث فكرة حسنة، إنها فكرة جيدة حقًا يافيلى» قَبِل فيلى كلمات المديح مِنى باحتفاء ساخر وقال: «أشعر بالإطراء لأننى أحب الاستماع إلى تلك العبارات» ولكني سألته: هل سيأتى لك الناس بروشتات العلاج من أجل ذلك ؟ «فهز فيلى كتفيه بلا مبالاة و قال «ربما». «قد لا يتخيل الناس أن يكون هناك كائن خرافى أو أسطورى تحت المجهر.» ثم أخذ يتتبع المارة ببصره، لابد وأنه كان يتخيل كيف يواصلون الإعجاب ببرغوثه داخل عقولهم، آه يا فيلى! إن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يكون شيئًا جديدا بالنسبة لهم.

قال فيلى: «هو حل مؤقت فحسب، فيمكن أن نستعين بكل المهملات الرخيصة الناتجة من صناعة الدواء كلوحة تعرض أمراض سرطان الجلد، كافة الأمور المتعلقة بالصداع، وأزمات الدورة الدموية، وهناك العديد من الشركات، التى تقوم بإعارة ديكورات حقيقية، بل إننى منذ فترة وجيزة جلبت حيوانات أليفة ذات فراء كمثال جميل ومعبر، وكانت فى حالة جيدة» يا إلهى.. فقد كنت أستطيع أن أتخيل فيلى وهو يتفنن فى الوصف ساعات طويلة وكأنه مدير حديقة للحيوانات الصغيرة، وأتعجب عما إذا

كان هناك مكان قد تبقى لأى دواء؟ أضاف فيلى: «إننى أراقب الناس من الداخل، وقد تستعجبين إذا قلت لكِ من الذى يهتم بهذا؟ بل إن الناس تجعله موضوع حديثهم. ليس فقط بين أم وأولادها».

بالطبع عرف فيلى فيما أفكر، لقد ربت على ذقنه وابتسم بغتة قائلا: «طبعًا.. أشعر أنا بدورى بشىء من المتعة، وقريبًا سأمتنع عن الاستعارة وسوف أستأجر مجموعة من الطيور الجارحة، من صقور الليل والنهار، كما أريد أن أزود المكان أيضًا بأرضية طينية مثل أرضية الغابة، سوف نرى، وإلا متي يتمكن أحد من رؤية الحيوانات ذات الريش والمخالب الجميلة وهى تقبع هادئة أمام عينيه؟ والقشور وتنويعات الألوان؟ تلك الأمور التى كنت سأندفع نحوها لو كنت طفلا ولم أكن لأتركها أبدًا، ولكن هذا ينبغى ألاَّ يتم بطريقة نمطية مثل أغلب الناس، فإما أن يوجد آلاف من مغارات الغابات وإما أن يكون هناك ضوء. " لو كان حذائي مريحًا أكثر من ذلك لكنت أنصت إليه أكثر».

إن أكثر شىء نال إعجابى فى نهاية موضع إقامتنا الحالى، ليس شيئاً معروضًا وظاهرًا للعيان، وكان خافيًا بشكل قاطع نتيجة لتحرك إنجبورج وموظفاتها الجميلات وهن يصدرن تيار الهواء الملىء بالحيوية ومن كيفية عرضهن بنشاط لدواء طعمه غير مستساغ، خلف المعمل الصغير كانت هناك حجرة

ينتشر بها عبق القهوة وتبدو وكأنها مطبخ. ويمكن للمرء أن يجلس مستريحاً فى هذا المكان الضيق على عكس السيرك الصحى الموجود بالصيدلية فى الأمام والذى ينتهى هنا بتنهد وحسرة خلف هذه الحواجز، ما أجمل أن يمر المرء على المتجر أولاً وإلا فإنه لن يدرك الفرق ليتحسن الأمر بعد ذلك، حيث يؤدى هذا المكان إلى مكتب فيلى، حيث لا يوجد مكان سوى له هو شخصيًا وللفاته المهمة وشخصية قادمة للتو: أنا، كنا وحدنا وقمت بتحية الهدهد، كما صب فيلى لكلانا كأسًا من الكونياك.

وفى مكتب فيلى والذى لا يعلم عنه العميل شيئاً، سيخلع المعطف الأبيض المخصص للتواصل مع الجمهور، وقد بدا لى أن الخصوصية أوعدم التبلد ليس لهما مكان هنا.. جسد فيلى الثابت، رموشه السوداء الكثيفة، والشعر الكثيف الموجود بكثرة على صدره الظاهر بلا اكتراث، لا شك أن إنجبورج أيضًا قد دخلت هذا المكتب كثيرًا لتنجز جزءًا كبيرًا من الأعمال المكتبية فى الدفاتر الكثيرة، ولكن هذا لم يغير فى الأمر شيئًا لأنها ترتدى الجينز، تلك الجاذبية السهلة البسيطة، وخصلاتها القصيرة ؛ تارة صفراء وتارة حمراء، فهى فى الخارج ربة منزل دائمًا وفى الداخل هنا فهي سيدة أعمال تعمل دون كلل ودون إرشادات النوتة الموسيقية وكأنها تعمل فى حجرة معيشتها.. أُقصد هنا: إن ضيق الحجرة لا يمثل عليها أى ضغط.

رفع فيلى لى كأس الكونياك وأقسم قائلا: «أنا سعيد.. أنا سعيد لأنك هنا» وقد أكد هذا، كعهدى به حتى لا يترك للإلحاح متنفساً، ولكنه أيضًا ولمزيد من البرهنة يلمس ذقنه التى تعد بالنسبة لى أقوى من التجاعيد القاسية جدا التى تجعل العين تنظر إليها كعرض مرضى غريب، وبهذه الطريقة قام فيلى بربط ملامح وجهه بالانضباط العسكرى، أهو تأثير مدة خدمته فى الجيش الألمانى منذ ثلاثين عامًا؟. ولقد صمتنا دقائق عديدة، مما أحدث دوياً وانقباضًا بالتأكيد، وفى أثناء هذا كرر فيلى قوله: «نعم، أنا سعيد» ونالت هذه الجدران الأربعة المشكوك فى أمرها إعجابه مثلى تمامًا، فلقد أصبحت حجرة المكتب الآن بمثابة كهف فى الغابة أو كطابق فوق شجرة نتسلق عليها واحدًا تلو الآخر.

(من رواية منديل الجيب» . 1994 Das Taschentuch)

السيدة أينتس

«يا للهول! إن توقيعك سيدة أينتس يبدو منتصبًا كـرقم الواحـد!» هذا مـا قـاله مـوظف البنك دمث الأخلاق بلطف صباح اليوم. «سبق حقيقة أن سمعت مثل هذه المزحة مرارًا بشكل أو بآخر». قالتها الأرملة العجوز أينتس لرجل كان يعمل لديها منذ سنوات عديدة نقاشاً، وهذا الرجل لم يعد شابًا ولكنه رغم ذلك يصغرها بالفعل بعدة سنوات، وقد قام الرجل بإجراء فحص للمطبخ الخاص بها استعدادًا للإصلاحات القادمة له، ثم احتسيا معا القهوة والويسكى، وفجأة تابعت السيدة أينتس حديثها قائلة: «أنا لاأحلم!» وتساءلت قائلة «وربما أنت أيضًا؟ فأحيانًا ما أقول لنفسى: احلمى الآن بالورود، احلمى بقطع لذيذة وسمينة مملحة من فخذ الخنزير ولكن لاشىء مطلقًا! لا أحلام وغالبًا لا نوم أيضًا، وأنت؟ هل تنام جيدًا؟ ولهذا فدائما ما أحلم فى وضح النهار، فالمرء لابد له من أن يعيش ولو لمرة تجربة مثيرة، أن

يقوم برحلة ممتعة لإحدى عواصم العالم، وهو ما لا يرتبط مطلقًا بالنقود! «إنه أمر سهل التحقيق للغاية، فعندما تريدين ذلك، تستطيعين بكل سهولة السفر إلى باريس، وسأجتهد فى أن أحصل على يوم إجازة لتوصيلك بنفسى إذا كنت تودين ذلك." كان هذا القول خاصًا بذلك النقاش الذى كان من حين لآخر يلعب الشطرنج مع السيد أينتس فى سنوات عمره الأخيرة، ولم ترد السيدة أينتس، ولكن رد الفعل الوحيد الذى أبدته تمثل فى أنها حركت الملعقة فى فنجانها بشكل متبرم وقامت برفع منكبيها بعجرفة واضحة، وكأن تحقيق مثل هذا الأمر غير مكلف بالمرة! ذلك المغفل لا يدرك شيئًا، والآن وقد رسم هذا الغبى الذى لا يفهم ماذا تعني تلك الخيالات، آمالا عريضة، تريد هى الذهاب إلى باريس اللعينة، حقًا صحيح أنها كانت تصغي لحديثه دون اهتمام كامل، ولكن ماذا عساها أن تفعل في أمسيتها الطويلة المملة؟ وقتئذ يتحمل المرء ذلك المغفل طيب القلب ويقوم أيضًا بفعل مستحسن في هذا الصدد، ذلك الصامت، ليته يخفف بعض الشيء من سكونه ويدفع للتحدث، ليته يشعرها بأنه قادر على مساعدتها، هل فعلا لا يرى شيئًا أكثر رجولة من ذلك في العالم؟ باريس! وعندئذ لاحظ لأول مرة أنه لا تزال توجد أشياء أخرى بخلاف فرشاته وألوانه! «هل أنت حقا بفريق المرتلين؟ أنت تعرف إذًا "إيما سوماك» الهندية البدائية، إنها بصوتها المرتفع الحاد بشكل لا يصدق

مثل العندليب، والذى يماثل صوت طائر برى يمكنه أن يهد الجبال! ولكنها كانت غير محظوظة، إذ طردت من قبيلتها، فقد وثقت بالعالم الخارجي الغريب، فكانت ملعونة إلى الأبد «وهنا لاحظ النقاش هارتكويف ابتسامة رضا على شفتى السيدة "أينتس"»، ابتسامة غريبة لا تتناسب مع فحوى جملتها - «إن شجاعة هذه المرأة الصغيرة لجديرة بالإعجاب حقًا!" بحذر قالها النقاش، فهو لم يكن يعرف بالضبط من أين تهب الريح هنا. "نعم.. بالتأكيد شجاعة، وقد كنت كذلك أيضًا حينما كنت فتاة صغيرة» باستمتاع قالتها السيدة «أينتس»، فهى تحب التحدث عن أى شىء يربطها بشبابها المنصرم، ثم قامت بتنحية فنجانها جانبًا بعض الشىء. هذه السيدة الصريحة والتي تعد غاية في الوقار، على حد قولها، تمقت الثرثرة التي قد تؤدى بعدها ببضعة أيام إلى ارتكاب بعض الأفعال المعيبة بسهولة شديدة وبدافع من الفضيلة المحمودة.

لاحظ السيد «هارتكويف» الذى لا تفوته فائتة بعجب شديد كيف أن السيدة «أينتس» التى استرجعت فجأة صورة الفتاة الشابة التي كانت عليها فى يوم من الأيام البعيدة، بابتسامتها الناعمة الهائمة، محملة بالأشواق الممتعة والمرتبطة بعمرها الحالى، تلك الأشواق التى تزعجه برغم كتمان السيدة "أينتس" إياها، فهى ترسم أمامه مخلوقًا شهوانيًا، لكن هذا المخلوق لا يظهر شهوانيته بأى حال من الأحوال، فهو شهوانى ذكى ومخلوق مغر وجرىء في نفس الوقت،

وذلك كله يثير تعجبه أيضًا، ففي الزيارات السابقة عندما كان الحديث يدور حول العادات التي يسلكها أولئك الصغار، الذين يعيشون في الوقت الحاضر، كانت السيدة "أينتس" تؤكد بعزم لا يقهر على العفة والطهارة التى ظلت تتحلى بهما قبل زواجها، فلم تسمح بأن تمس أبدًا قبل الزواج، وذلك رغم كل المغريات التى كانت تقدم لها، أما اليوم فقد كانت وبشكل جلى مبتهجة فى عمرها هذا ، تبدو كالحوراء أو كالجنية التي تظهر في الأساطير الخرافية غاية في اللطف وفي الجرأة، وقد قامت تلك المخلوقة الأسطورية بالتطور والنشوء أمامها.

«سيظل اليهودى يهوديًا»، هكذا غفلت السيدة «أينتس» وقالت عن زميلاتها اليهوديات الجميلات والذكيات بشكل يحسدن عليه، ثم تراجعت عن إباحيتها الجنسية وكأنها قد أفاقت أو استردت وعيها فجأة، وقد تغيرت معالم وجهها مرة أخرى تمامًا كما حدث عندما تحدثت عن «إيما سوماك»، فهى لم تقصد شرًا البتة ومع ذلك توقعت زجرًا خفيفًا من قبل السيد «هارتكوبف» حيال ذلك الإثم الذي اقترفته. «ما هذا سيدة أينتس؟ إن لله فى خلقه شئونًا!»، قالها السيد «هارتكوبف» بنبرة مستاءة وآسفة، ومن ثم خفضت السيدة أينتس رأسها وعضت شفتيها أسفًا «إن الظلم الذى وقع عليهم لن يمكننا استدراكه أبدًا»، قالتها السيدة «أينتس» فجأة ولكنه كان على يقين بأنها فى أول فرصة قادمة ستقولها

ثانية، «سيظل اليهودى يهوديا» «إن المرء لن يغفر لنا ـ نحن الألمان ـ أبدًا» كررتها السيدة «أينتس» وهى نادمة لقولها ذلك، وكان السيد «هارتكوبف» يعلم أنها ستجتهد لتتذكر الحقائق أكثر من أن تتذكر العفو والغفران، حيث إن الحقائق كانت بالنسبة لها أكثر ظرفًا، كم من مرة شهدت هذه الطاولة أحاديثهما معًا عن شرور الأقارب وأفعالهم التي طالما تسامحت عنها السيدة "أينتس"، وقد كانت تسرد ذلك باستياء وثورة متأججة غير متوقعة منها، إذ أنه لم يعهدها كذلك أبدًا.

وتمعن السيد «هارتكوبف»، وهو مستمر في الإنصات لها كدأبه دائمًا، في الحركات الغريبة التي تقوم بها السيدة «أينتس» بجانب خدها أثناء احتسائها الشراب ولا تزال السيدة "أينتس" بالنسبة للسيد «هارتكوبف» غير واضحة تمامًا، وإنما واضحة وشبه غامضة فى بعض الأحيان بشكل ملفت، وهنا أثناء جلساته معها حيث يهون عليها في سويعات الثرثرة، تلك الساعات الطويلة لديها، فما زالت على تعلقها القديم بزوجها المتوفي السيد «أينتس»، كما تنتحل السيدة أينتس ألوانًا من الحجج والأعذار التي لا تجرح كبرياءها حتى تجلس مع السيد «هارتكوبف» ليخفف عنها و يعزيها بعض الشيء.

قالت السيدة «أينتس»: «على أية حال يجب أن أنظف الأرضية، وأنظم الكتب وأضبط المقاعد، تخيل

لو أن بعض اللصوص سطوا على منزلى، فماذا عساهم أن يقولوا عند النظر إلى الأرضية!» ثم رفعت فنجانها مرة أخرى، وكان من المفترض أن تحتسى بعضا من مشروبها ولكن ما زال الفنجان بعيدًا عن فمها، وما لبثت أن تفوهت بعبارة أخرى «ليس معنى أنني لم أنجز العمل في الحديقة بعد، أنني صرت امرأة عجوزًا، فما بلغت من الكبر عتياً بعد ويمكنني استخدام المنجل القديم، ذلك الشىء المتهالك، في جَزّ العشب أمام المنزل، ولكن لا، بالرغم من ذلك فأنا أريد منجلاً جديدًا، فذلك الجديد سيكون آليًا ويصدر أزيزًا فظيعًا».

ثم قامت السيدة «أنيتس» باحتساء شرابها، وأثناء تجرعها وضعت يدها اليسرى بجانب خدها، في البدء بشكل متحرك ثم أطبقت يدها لتجعل أصابعها تتفتح بشكل تدريجى الإصبع تلو الآخر، الخمسة أصابع جميعها، كل منها ممدود كالواحد، حتى صارت مثارة تمامًا، وبعدها بدا شكلها دقيقاً عندما نحت الفنجان عن شفتيها وأراحت رأسها للخلف، فبدا ذلك كإشارة للاستسلام والدفاع، كيمين صدق وأيضًا كلوحة تستدعي التوقف أمامها، تلك اللوحة المصنوعة بيدها العارية وهى لا تفهم منها شيئًا مطلقًا، وقد تم ذلك كله بعينين مطبقتين بشكل محكم ومائل إلى الحزم، أكثر من كونه لطيفاً.

(من: الخلوة ورسولها - ١٩٩٦)

فيلى فينجز، وقد ضاع كل شيء

أطلق صرخة وتركنى ثم سقط أرضًا، وقد أفزعنى ذلك بشدة لدرجة أنني صرخت أنا الأخرى، فلم يسبق له مطلقًا أن تركني وأنا معه وتهاوى أرضًا بمثل هذه القوة، وكانت الأنابيب ممدودة بطول الطريق، فربما يجرى الجيران بعض التعديلات بالوصلات التي لديهم. وأغلب الظن أننا قد ضللنا الطريق، فقد كنا نتبع أشجار الكستانيا على جانبى الطريق. وبالقرب منا توجد حفرة خاصة بأعمال البناء، تمت محاصرتها بشريط أحمر وأبيض، حتى تظهر للمرء فلا يسقط بداخلها، وعندما تهاوى فيلى لم يسقط داخل هذه الحفرة، وإنما سقط برأسه بحركة لا يمكن التنبؤ بها، حيث كانت حركة قوية ونشطة، بل حركة هوجاء وعابثة، على الحافة الحجرية بجانب الطريق، حيث صار الطريق المخصص للمشاة ضيقًا جدًا بسبب هذه الحفرة، وربما لذلك فقط؛ سقط فيلى على تلك الحافة الحجرية.

انحنيت على ركبتى بجانبه وأرهفت السمع، فلم أسمع إلا أنينًا ضعيفًا. تنفس فيلى الصعداء بشكل باكى ومتوجع وربما بشكل راضٍ، بل بشكل عاشق للذة، وكان يتجه بوجهه للجهة الأخرى، جهة الأسفلت، ويبدو نائمًا ومتخذًا وضعه المميز للنوم، هل يفترض أن أوقظه من سباته الآن؟ إن الصوت الذى أحدثه ارتطام رأسه بالأرض كان واضحًا لدرجة أنه كان مسموعًا بشدة مثل ذلك المغنى الذى أسمعه وأراه بوضوح والذى يقترب منًا الآن وهو يتأرجح ويتمايل ثم توقف وتهيأ للاستلقاء بجانب فيلى.

سألته المساعدة رغم أنه سكير عربيد، و لم تأتنى الجرأة على تغيير وضع فيلى، فكان من المفترض أن يتجه مسرعًا إلى كابينة التليفون لطلب النجدة، فهنا يصعب الحصول على أية مساعدة من المنازل المجاورة، وحملق في الرجل ثم ضحك قائلا: «إنه سكران، شرب حتى الثمالة، هل مات الرجل أم نائم فقط؟ إنه يحب الخمر كثيرًا مثلى تمامًا.. هل مات أم قتل؟»، ثم استراح الرجل في جلسته على الأرض؛ بينما فيلى لا يتحرك، فجسست نبضه برفق ربما يفتح عينيه الآن ويبتسم بجانب فمه ويمر كل شىء بسلام، لم يسبق لفيلى أن فقد وعيه بشكل كامل هكذا وأنا بصحبته، ولم أكن أعرف إن كانت هذه الآن واحدة من حالات الإغماء أو فقدان الوعى أم ماذا. فقد كنت أشعر فقط بثقل جسمه الذى لا حول له ولا قوة، وقد تأثرت كثيرًا لذلك لدرجة أننى كنت على وشك البكاء، عندما

رفعت ذراعه بحرص وأدرت ذقنه برفق ناحيتي، فصحت بأعلى صوتي ناحية المنازل والرجل مستنجدةً. ولكنى لم أقف، حيث لم أجرؤ على هذه المجازفة، أما السكير فقد زحف مغادرًا وهو يهمهم قائلا: «تخلصى منه في هذه الحفرة، إن كان لا نفع منه»، ثم بدأ بالغناء ثانية، إننا نبدو؛ أنا وفيلى والرجل، وكأن ثلاثتنا وبصحبتنا أشجار الكستانيا قد اندفعنا إلى غرفة فى مصنع تتردد في جنباته هذه الأغنية التى كان يتغنى بها الرجل.

ناديت بألفة وود، «فيلى»، ولكن هذه المرة لم ينجدنا أى مخلوق.. هل كان مرض فيلى، الذى عاد مرة أخرى في صورة انتكاسة، في حالة أكثر تدهورًا مما تصورت؟ وهل كان هذا سببًا فى أنه في النهاية كان يتظاهر بأنه الصيدلي؟ ولم تواتني الشجاعة أن أتركه بمفرده كما لم تمر أية سيارة فى هذا الطريق، وما زلت على ظنى أنه مجرد انهيار عادى، ففيلى بمخاوفه والتى يمكن أن تدركه برغم حركة المرور، لا شيء به إلا أنه من المؤكد قد فقد وعيه ولكن لوقت أطول قليلا من المعتاد!

تكشف أخيرًا أن فيلى قد أصيب إصابة قاتلة إثر سقطته على رصيف الحافة الحجرية، وأن كل ذلك قد أصابه بحالة دوار عادية لا أهمية لها تمامًا، و لم يفق فيلى بعد من إغماءته، إن نزفًا مخيًا وتوقفًا كاملا للوظائف الحيوية بالمخ نتج عن شج رأسه. مات

فيلى بعدها بساعات قليلة بالمستشفى بعد أن كان غائبًا في إغماءة عميقة.

فوقنا زقزق أول طائر، مجددًا فكرت فى ذلك، هل يناشدنى؟ هل يناشد «هيلدا فينجز» فقط؟ أنت أيها الطائر بصوتك الضعيف الملتمس! فيلى وطرفة عينه الجميلة. فيلى وحفله وقد طلبنا منه كل شىء بالفعل.. نعم، و لكن ماذا أراد فيلى نفسه؟ أعنى ماذا كان يريد بالضبط؟ لماذا اجتهد وكد في السير بعربته؟ أو لماذا كان يسرع فى مشيته؟ ما فائدة الكعكات والأدوية التى كان يسعى لشرائها؟ لماذا كل ذلك؟ ما الطائل من ورائه الآن؟!

رقد فيلى بسلام شديد بينما نحن فقدنا كل شىء على هذا الرصيف، والآن فقط وفى مؤخرة رأس فيلى تحسست وأدركت جرحًا، وقد أدركت السبب، فبجانب فيلى كانت تبرز قطعة غير مستوية من الأرض، ومن حين لآخر كان يمكن أن تجد أيضًا فى الحى الذى يقطنه فيلى مثل تلك الحفر والأحجار والأنابيب بجانبها، ملونةً لتبدو واضحةً للمارة. ومن هذه الناحية أمكن لفيلى هنا في هذه المدينة أن يشعر بالراحة وبأنه في موطنه، وهو بجانب هذه الأكوام من الحجارة والهضاب المكونة من الحصى والأشرطة الملونة، التى تحدد الطريق وفوقنا أشجار الكستانيا المحملة بالثمار الناضجة، التى لم أعد أرغب فى إحصائها مثلما كنت أفعل، والمتواجدة بالفعل على

جانبى الطريق، المزودة كل ثانية بطاقة جديدة، هذه القباب لا تزال متوهجة بقوة كدأبها كل صباح، فلم يحدث بها أى تغيير ولن يؤثر فيها إن كان فيلى يرقد تحتها أم لا، وإن كان يرقد تحتها وهو غافل كل الغفلة أم متعمدًا وقاصدًا ذلك.

وأنا.. أنا التي بقيت ملتصقة بالقرب من فيلى، وأمضيت معه طوال اليوم، لم ألحظ شيئًا ولم أعرف أنه في ساعاته الأخيرة، بالرغم من أنه كان لا يفر من أمام المحررين الذين لا يتوانون عن ممارسة عملهم وحياتهم بطريقة روتينية ومملة، لكنه كان وبكل تكتم على أهبة الاستعداد لاستقبال موته.

كانت الدقائق تمر سريعًا فى هذه الليلة الرهيبة والتى كان يتوجب علىَّ فيها أن أبحث عن نجدة، ولكني كنت كلما أرغب فعلا في النهوض بقدمى العاصيتين، كنت أتخاذل ثانية، واعتبرت هذا إنذارًا لي بأن أظل بجانب فيلى مثابرة، وبجانب رأسه الذي يرقد على حقيبة يدى، بجانب وجهه الشاحب النائم الذى يصير أكثر شبابًا كلما مر الوقت. وفى هذه الليلة الذابلة ظهر الكلب الصغير وهو يجرى بأطرافه المرفرفة، ثم توقف مندهشًا فزعًا، وظل لبرهة متشككًا أمام هذه المعالم غير الواضحة وظل فى حيرته وبلبلته يصدر صوتًا مشاكسًا ضعيفًا، ولم يستلزم الأمر سوى أن أناديه، وبعدها تأكدت ثقته وتعرف على فيلى وهو مسرور للغاية، ودار حوله

فالتصق بجانبه وتشممه ثم دفعه برفق بفمه، لكى يعتدل فيلى منتصبًا ويربت على رأسه بحنو، ويأخذ فى تدليله كما كان يفعل من قبل، لكى يثبت له أنه هو الصديق الوفى للكلب الصغير.

توقف الرجل الذى كان يتبع الكلب أيضًا وهو مندهش، و لكنه توقف على بعد، وبشدة أمر كلبه أن يعود، لكن بالطبع ضاعت كل مساعيه هباء على الأرجح أن المرء يمكنه الآن بسهولة وسرعة التعرف علينا في ضوء الفجر، لكن الرجل كان يبدو مرتابا ومتشككا إن كان الأمر يتعلق الآن ببعض السكارى سيئى الخلق نتيجة لبؤسهم وشقائهم، وربما يحاولون الآن فى طريق عودتهم خداعه، ولكن كيف يمكننى بعد أن ظللت منتظرة لوقت طويل أن أتحدث بعقلانية؟ ولدهشتى انطلق صوت مقرقر وانتحاب جريح من حلقى. من المؤكد أنه قد أدى إلى خداع الرجل أكثر، ولكن لم يستمر ذلك بالتأكيد سوى لبضع لحظات. «هل يحتاج زوجك مساعدة»، سألنى الرجل، وسمعت أيضا: «يا لمشيئة الله!»، وأيضًا «مازال الكلب صغيرًا». وبينما كان الرجل بقدر ما استطاع من قوة متوجهًا لأقرب كابينة للتليفون حاملا الكلب على ذراعه، قبّلت أنا وجنة فيلى الباهتة وكأن النهاية محتومة، وهذه المرة شعرت وأنا ساخطة بالنصر، حيث إن فيلى لا يملك الآن أن يعترض على تقبيل وجنته هذه المرة.

وفي سيارة الإسعاف، حيث لم يكن أحد يعرف بعد ما سيئول إليه أمر فيلى، أخذت أفكر مرة أخرى

في هذه الجملة- «إن حياته السعيدة لزائلة!» أو: «إن حياتك السعيدة لزائلة!»، هذه الجملة التى تقال عند التسبيح، والتى لا تزال السيدة العجوز «لوكس» تقولها، هذه السيدة التى كلما اشتد عمى عينيها، صارت أكثر لطفًا.

لكنى أرى أمامى وبجانب جثة فيلى.. أرانى أنا وفيلى و نحن جالسان، مرة مع أمه ومرة أخرى مع أمي فى السوق، التى تقام كل أسبوع أمام ياكوب، التاجر التافه الفقير الذي كان ناشرا خرقة على طاولة أمامه ويصيح مناديا بأسماء مثل: "بنفسج فيينا «ورد باريس»، «ليلك رومانيا»، وأرتجف غبطة مع كل تسمية يطلقها الرجل، وأنا أشعر بالترف والسعادة أمام عواصم العالم العظيمة وأمام هذه الرغبات، والتى تتمثل أمامى هنا فى شكل قطع من الصابون المشربة بالشمع، وقد تمكن تأثير مادى قوى للغاية، ولكن بطريقة لا يمكن إدراكها، من البائع الذى كان قد أصبح فى ثورة عارمة حتى عقد الخرقة التى تخفى الكنوز بداخلها، بشكل صورى، ذلك البائع قدم كسبًا وعرضًا مذهلا وبأبخس الأثمان، وهو اثنان من الماركات فقط، وقد أدى ذلك إلى ارتكاب ما يخالف العقل والمنفعة الشخصية بشكل شديد مما نتج عنه ندم سريع، ولكن بعدها وبسرعة غاضبة قام البائع بجمع ثلاثين من تلك الأكياس حتى يشبع رغبات عملائه الثائرين.

وحـان أجل «فـيلى» عندمـا عـرض البـائع قطع الصـابون فى أشكال الحـيـوانات، ثم لم يتـبق المال الكافي لشـراء هذه القطع ولكن هيلدا فينجـز اشتـرتها له، ومـا كـان عليـه سـوى أن يعـاهدها بـأن يسـمح باسـتـخـدام قطع الصـابون هذه للغسيل في أى وقت كان، في البداية أخذ معه قطع الصـابون المجمعـة فى هذه الخرقة وكأنها نهب للأحجار الكريمة وقد أخذها بالفعل معه إلى الأبد.

مـا أغـريهـا هذه القـطع المتـمـثلة في شكل الإوز والأحـصنة ووحـيـد القـرن وهـى تذوب فيـمـا بعـد بين اليدين ومرة لأخرى تبدو أكثر شبهًا لبعضها البعض وأخيرًا صـارت كـاختزال لصـورتها الأولية، مثلها مثل أولئك الذين يسـيـرون علـى شـاطئ الأوسـتندى، والذين يظهـرون فـى البـداية ضـاربين إلى السـواد وهـم في مواجهة الشمس ويقتربون بشكل مبهم و يكونون قمة فى الوضوح، وكيف أنهم يصيـرون كلمـا ابتعدوا أشياء صغيرة و يضمرون فى الأفق البعيد.

(خاتمة رواية: منديل الجيب. ١٩٩٤)

ولكن فضلا عن ذلك وبشكل أكثر عمومية، فإن الأمر يدور هنا أساسًا حول الإنسان بشكل شامل، يدور حول التميز والمعالم والجسد والأصالة والابتكار الذى يميزه أو يميز الأعجوبة التى يمثلها كل إنسان، نحن بصدد الشخص المتفرد المفضل والمنتقى من الحشود التى لا حصر لها، تلك الحشود التى يمثلها ويعد ممثلا عنها، نتحدث عن عدم إمكانية تكرار وضع هذا الشخص المتفرد النادر، وعن الألعاب المثيرة للدهشة والانبهار التي يقوم بها بأصابعه، نتحدث عن تفرد العينين وعن طبيعة الفرد ووعيه، إن الأمر يتعلق بعلية كل إنسان، كبيرًا كان أو صغيرًا، رجلا كان أو امرأة، معروفا كان أو مجهولا؛ والذى من المفترض أن يضع فى حسبانه كل الاعتبارات التى من الممكن ألا يحصل عليها أبدا أو قد يمنح منها القليل فقط فى حياته العادية، حيث يتوارى وتتثبط همته من الكميات الهائلة من مناطق المشاة والإحصائيات وعدد سكان الأرض والحسابات المتوقعة للنتائج الأخيرة والكوارث.

(من: الإصبع الأخير لليد اليسرى. لكريستا بيدربيك. فى: الخلوة ورسولها- ١٩٩٦).

أساطير خاصة وصغيرة

تلك الوجبة في المطبخ (١)

لم تعد كارين تانك تنظر إطلاقاً بالمعنى الدقيق طوال سيرها فى الطريق من وسط المدينة حتى هنا، إلى طاولة المطبخ التى تجلس عليها الآن، دون أن تبكى أبداً، وهى ما زالت ترتدى معطفها وقد ضعت رأسها على رسغها، فقد كانت تعرف الطريق عن ظهر قلب حتى فى نومها، كان كل ما عليها هو أن تتوخى الحذر عند بعض المواضع غير الممهدة، وهكذا وجدت نفسها فى النهاية أمام باب الشقة، ثم فى الردهة، حتى وصلت إلى المطبخ، حيث جلست لوقت طويل كما لو كانت نائمة، إلا أنها هبت واقفة وصنعت لنفسها قدحاً من القهوة مرة أخرى دون أن تنظر لما تفعله، فكلها كانت أمور تمرست عليها مائة بالمائة، كما تعرفت فى حملقتها هذه على نبتة فى قصص موضوعة على حافة النافذة، ورأت أنها كادت تذبل، وهكذا تناولت كوباً من الماء وروت النبتة بجفاء، كما

راقبت كذلك أو تصنعت ذلك على الأقل، بينما تسرب الماء خلال مصفاة القهوة، راقبت تربة النبتة وهى تمتص الماء وقالت للزهرة: يالك من خنزير مسكين ! ما الذى بيدك فى مواجهة هذا! إلا أنها اقتربت قبل ذلك بالغلاية الكهربائية بمائها الساخن وأمالتها على قصيص النبات وفكرت إذا ما كان عليها أن تغلى النبتة بدلاً من أن ترويها.

ضغطت كارين تانك جبهتها مرة أخرى على رسغها بشدة لدرجة أنها عندما رفعت رأسها ثانيةً كانت ساعة يدها قد تركت علامة مستديرة على أرنبة أنفها، وما أن وضعت فنجان القهوة إلى جانبها حتى عبأت المطبخ رائحة البن، وهى تلك المرأة التى عملت سكرتيرة فى مدرسة للتعليم الأساسى بعد طلاقها مباشرة، وتركتها ابنتها لتنتقل إلى السكن مع صديقها بمجرد بلوغها سن الثامنة عشرة، تحسست هذا الموضع بأصابعها ثم ألقت بعد هذه المأساة الجديدة وبعزم أكثر ألقت برأسها على خشب الطاولة دون مراعاة للمفرش الأزرق ذى اللآلئ البيضاء ولم تحرك ساكناً حتى سحبت يدها أخيراً من تحت رأسها فى اتجاه ذقنها الدافئ المستدير.

وبعد برهة رفعت يدها الثانية من بين جبينها والمفرش ذى اللآلئ - وأصبح وجهها هكذا منسبطاً تماماً على الطاولة، وهو الأمر الذى لم يكن مريحاً بسبب أنفها مما يعنى أنها لن تحتمله سوى لمدة

قصيرة - وأخذت تتحسس بيدها الطاولة، ولم تكلف نفسها عناء البحث عما تريده بنظرة على المكان، ولكنها كانت تعرف بالتأكيد أنها سوف تعثر عليه فوق لوح الطاولة، لأنها كانت قد ألقت هناك بكيس صغير مجعد، وما أن لامست أطراف أصابعها شيئاً حتى قبضت عليه بيدها وألقت الكيس البلاستيكى فى أقرب زاوية بالمطبخ بشىء من قلة الحيلة ولكن بكل قوتها حتى أن الرمية كانت تخلو من المهارة من فرط القوة، وعندما حدث ذلك انتصبت السيدة فى جلستها لتصب القهوة.. جلست مثل الشمعة فى انتصابها تنفست ثم شربت رشفة من القهوة، ولم تتحقق من موقع سقوط الكيس سوى الآن، لكنها لم تحرك ساكناً عندما رأت تلك اللفة تقبع فى ركن القراميد وهو ما يبدو أنه ملأها بالرضا، لا، ليس ذلك، بل بالشماتة، ولا سيما تلك النظرة إلى كتلة الشقاء الكائنة أسفل، والتى لم تستطع أن تتحرك وتترك ذلك الموقع من جراء نفسها بالطبع، فقالت محدثة اللفافة البائسة: «هذا هو العقاب! إنه انتقامى من أجل طريق العودة إلى المنزل هذا. إنها معجزة أننى وصلت إلى هنا ! لو لم يكن اسمى على الباب، لساءت الأمور».

دست يدها فى جيب المعطف وعندما فتحت قبضتها عثرت على قالبى سكر وفاتورة دفع لم تتحقق منها، بل العكس تماماً، فهذا تحديداً ما كانت ترغب فى تفاديه! أن تقع عيناها على الرقم المطبوع، وبدلاً من ذلك مزقت الفاتورة إلى قطع صغيرة، صغيرة قدر

المستطاع، ثم قالت إلى قطع الورق الممزقة الكائنة إلى جانب الفنجان: «هكذا يصح الأمر، لقد كان عليَّ أن أشترى.. أشترى مثل المجانين، هكذا يحدث الأمر! تبذير من أجل لا شيء، ولكن فات الآوان.

أزاحت البقايا جانباً بكوعها، ورمت الكيس الكائن فى الزاوية بنظرة خاطفة، ثم قفزت فى النهاية وأمسكت به وأخرجت مقصاً من درج الخزانة ثم عادت لتجلس مرة أخرى وهى ترج الكيس المكتوب عليه اسم المحل Karstadt، وأخرجت محتوياته، لتظهر قطعتان من قماش الحرير الأسود اللامع مثل كائنات حية، على المفرش، وضعت «كارين تانك» المقص الأسود على النسيج الصغير المدلى منه قليلاً، ويبدو أن المواجهة، تلك المجابهة الخطرة كانت تستهويها، برغم أنها لم تغير ملامح وجهها بشكل لافت للنظر، إلا أنها كانت تحتسى القهوة بشىء من المكر والترقب مبالغ فيهما، تلك القهوة التى شارفت على الانتهاء فجأة أطبقت على المقص وفصلت علامة الثمن من قطعة الملابس الداخلية أخيراً، رغم أنها قبل ذلك ظلت توجه طرف المقص بشكل مدمر إلى القماش، قرصت بالمقص بطريقة شديدة العدوانية، ثم أزاحت قطعتى الملابس المزينة بالدانتيلا إلى داخل الكيس ثانية وألقت به باحتقار كما فعلت سابقاً، ولكنها تابعت طريق طيران الكيس هذه المرة حتى استقر فى الزاوية، وصاحت فيه: «لقد أفلتم مرة ثانية أنكم لا تستحقون ذلك. بما ستفيدنى الملابس الداخلية

الجميلة؟ ما النفع الذى يعود علىَّ من كل شىء إذا كان يبدو جميلاً فى اليد ولكننى بداخله، أى عندما أحاول قياسته، أبدو قبيحة، قبيحة بطريقة لم أعهدها من قبل، الآن فجأة، وبهذه الهلاهيل على جسدى، أبدو قبيحة ومنفرة بهذه الخرق البالية التى نهديها أنفسنا فحسب بكل خط وخيط فيها».

أخرجت قطعتى السكر من جيب معطفها، بعد أن أصبحتا قذرتين بعض الشىء، ثم أسقطتهما فى الفنجان، لعلهما بذلك تجدان مأوى جيدًا. ثم سكبت القهوة، التى أصبحت شديدة التحلية، فى البالوعة وخلعت المعطف ثم ألقته على أقرب كرسى، وعندئذ اقتربت للغاية من لفافة الملابس الداخلية فرفعتها بطريقة شبه آلية، رفعتها عاليًا وتشممتها وقالت: هه! باستهجان شديد أخذت تتفحصها سريعًا، فيما يختص بتصنيع كلتا القطعتين، تلك الفانلة وذلك السروال الداخلى، جاء ذلك التفحص على غير الهوى، وكانت هى ترغب فى الإغواء، ترغب فى أن تترك الأمور تصل إلى حد محنة التمزق، بل إنها كانت ترغب فى إظهار ذلك التمزق على الإطلاق، ولكنها تجنبت مرة أخرى النظر إلى تلك الملابس الداخلية الرقيقة التى لم يبد عليها منذ البداية أنها مصنوعة من أجل الغسالة الكهربائية، بل لأمور أخرى مغايرة تماماً، وتعمدت أن تمسك بقطعة من الدانتيلا، بنوع من التشبث، أمسكت بها بصرامة وقسوة فى مواجهة قطع الغسيل الأخرى التى أخذت تتضاءل وتتضاءل

وتزداد نعومة لتنزلق من بين أصابعها، لكن ذلك لم يغير فى الأمر شيئاً حيث ظلت الملابس الداخلية فى مكان فى الزاوية – «يا له من فشل، هذا الوجه المنعكس فى المرآة، بين الخرق البالية المعلقة فى كل مكان، إنه بمثابة دش بارد، يعلم الله - حيث الإنسان فى البداية يفقد التركيز فى هذا الزحام، ويبحث كالمجنون عما يحتاجه، ويكاد يصطدم أثناء ذلك بالنضد، ويزحف على الأرض حتى يتمكن من العثور على المقاسات المختفية، ثم ينهض ويكتشف ذلك العبث ولا يتمكن من الفرار منه؛ لأنه مُغر وغاية فى الجنون ثم يرى ذلك الوجه، ذلك الوجه البائس والطاعن فى السن وهو يعتلى مرايا الأعمدة وفى يده هذه الملابس الداخلية الفاخرة، ولكن ما الذى يهمس به فى داخله ببلاهته تلك؟ ولا سيما الآن! ماذا إذا تخلى عن هذا أيضاً ! » همست بتلك الكلمات موجهة حديثها إلى زاوية الملابس الداخلية الساكنة.

دارت حول المائدة وأخذت تراقب الزاوية ثم غادرت المطبخ ولكنها سرعان ما عادت وهى تحمل زجاجة صغيرة فى يدها، ثم أمسكت بالكيس البلاستيكى وتركت قطع الملابس السوداء تنزلق على المفرش، وبدا عليها الارتياح عندما جلست، وبوضوح كما كانت تراقب المقص من قبل فقد أخذت تراقب ذلك الشىء الجديد الآن، ولا سيما قنينة العطر، التى كانت بمثابة الخصم للملابس الداخلية، ثم احتست فنجانًا آخر من القهوة وهى تخطط لأمر ما كما لو

كانت الزجاجة تقلق الملابس الداخلية من جراء نفسها، وعندئذ بدأت فى رش الملابس بالعطر دون أن تلمسها، رشتها بغزارة حتى أن الفانلة والسروال الداخلى كان يمكن أن ينعصرا كارهين، ولكنهما اضطرا إلى ترك الأمور على حالها، غطتهما بستار من ضباب وبدأت تقول فى تلك الأثناء: «تلك الفتيات، التلميذات، يرهقننى إذا سقط منهن شيء لا يتكبدون عناء رفعه ويتجاذبن الشماعات، وينبشن فى البضاعة بعبث: ألا يمكن أن يحدث لهن شىء ؟ هل هن دائماً على حق؟ هل يعرفن كل شىء، ألا يستحيين؟ كما لو كان هذا معلقًا هنا من أجلهن فقط!» تشممت الملابس الداخلية وقالت مرة أخرى ولكن بخبث شديد: "هكذا أفضل!

كانت الملابس ملقاة أسفل أصابعها تستعرض نفسها بما تحويه من دانتيلا وقماش لامع، أخذت تنقر بأصابعها حولها بعض الشىء، وحاولت أن تكسو وجهها بملامح متجهمة، إلا أن يديها بدأت تدمنع بالقميص كل ما كانت الأصابع ترغب فعله، حيث أخذت تنفرد وتنثنى، تشد وترخى، وتتلاعب كما لو كانت تريد أن تجرب أوضاعاً مختلفة تبين بها ذلك القماش الحريرى المكشوف، لقد كان هذا القميص فعلاً مجرد زينة، نوع من إظهار ما هو جذاب ومغر، أضاءت المصباح المعلق فوق الطاولة، والآن، فى الضوء ظهر التأثير الحقيقى الذى كان مقصوداً ومستهدفاً له القماش، ولا سيما اللمعان والنعومة، كما ظهر ذلك

الرسم الذى يتكون من غصون وأزهار رقيقة والذى كان يغطى قماش كلتا القطعتين، تلك الرسومات التى كانت تبرز فى اللمعة السوداء المحيطة بها كما لو كانت مغطاة ببودرة سوداء، انقسمت «كارين تانك» فى هذا الموضع لأول مرة، حيث كانت تتعجب بهذه الابتسامة البريئة من اللباس الداخلى القصير، الذى لا يربط بين جزءيه الأمامى والخلفى سوى أربطة مخاطة، فقالت وهى تومئ لأحد: «إنه شىء للحالات الخاصة، يا سيدة تانك، ليس للاستخدام اليومى، ليس للأيام الباردة، أيها السيدة المحترمة، ولكن ألا يجب أن نفكر فى لحظات البذخ كذلك؟ كما أنه ليس للغسالة الكهربائية ولا البهدلة، ولكنه شىء يمكن أن تدع الآخرين يشاهدونك به فى الفرصة المناسبة تعرفين يا سيدة تانك، السيدة المحترمة والعميلة المبجلة، تعرفين بالطبع الخطيئة الصغيرة، أرى ذلك على وجهك.. هاتان القطعتان الصغيرتان هما- أنت تعرفين ذلك- الخطيئة السوداء مجسدة».

توقفت عن ذلك وطوت القميص والسروال الداخلى معاً، برقة كما لو كانت ستضعهم فى الدولاب أو أنها سوف تحزمهم فى حقيبة حتى تذهب فى رحلة أو إلى قلب مغامرة ما تفحصت اللفافة المسجاة وتحسستها ولمستها بكلتا يديها، ثم بدأت تتحدث إلى القميص والسروال: لقد كان الأمر مجرد فضول لقد كدت أشعر بالنشوة عندما شاهدت تلك الأشياء على جسد المانيكان الأبيض، لم أهتم بها لفترة ما ولكن

الآن وفى الربيع حيث كل تلك الأشياء الكثيرة المفاجئة شديدة الخفة، يا لها من رفرفة جميلة ! ثم كنت فى حاجة إلى حمالة صدر، لذا شرعت فى النظر إلى تلك الأشكال وفجأة أصبحت حالمة كما لو كنت أسير فوق السحاب، كنت فى حاجة إلى شىء للذكرى، إلى تميمة أستطيع أن آخذها معى، لم يكن هذا الجنون وهذا الشعور يمكن شراؤهما بالمال: ولكن أصبح ذلك ممكناً حيث أمكننى إخراج قطعة النقود الورقية من المحفظة لأحصل مقابلها على شىء ساحر ومعجزة، فى البداية شعرت برضا تام أو لنقل إننى كنت طبيعية، ليس ذلك أو ذاك بل كنت كما أنا فى العادة، كنت أريد شراء زوج من الجوارب بسرعة، فهى لا تبعث على أية أفكار، كما كنت أبدو كالمعتاد، بخير، وكنت راضية عن نفسى تماماً. هكذا بدأ الأمر وانتهى بشكل مغاير تماماً.

والآن قد ظهر كل شىء وانكشف، أخذت تتحدث وهى مبتسمة إلى الملابس الداخلية الصامتة واللينة، ثم قبضت عليها وألقتها فى الهواء ثم تلقفتها وألقت بها مرة أخرى فى شغف وولع كبيرين كما لو كان جسدها متصلبًا من فرط الإثارة الجنسية والشهوانية، وبعد ذلك لملمتها باحتقار فى أحد الأركان مثل الخرق البالية من شدة المتعة، هكذا، كما ينبغى أن يكون الحال.

ولكن لماذا أخفت على المطبخ أنها، آه، أنها بعد شراء الجوارب خرجت فى ذراع زوجين غريبين؟ رجل

لعله فى الخمسين من عمره، رشيق شعره رمادى مسترسل ووجهه وردى اللون تتدفق فيه الدماء من فرط الغرام، يحتمل أن يكون فنانًا ناجحًا، وسيدة صغيرة السن للغاية لا شك أنها تجاوزت العشرين بالكاد، ذات شفايف مكتظة وجسد ممتلئ، ولها سيقان وأرداف نساء الجنوب إلا أنها كانت محشورة فى فستان ضيق جداً برشاقة، كما لو كانت لا تدرى بما يدور حولها، ولكنها كانت ممشوقة ويملؤها حب للإعجاب الذى يبديه لها الآخرون وهو ما يزيدها جمالاً ورونقاً ومعها ذلك الرجل الشغوف المحب والذى ظل رغم كل ذلك الافتتان أيضاً محبا كذلك لهمس كارن تانك، وكل شىء كان محل يأس، كما ينبغى أن يكون _ دون تناقض _ كما كان مخططًا له ؟

ألا يندرج ذلك من ضمن، ألا يندرج ؟

فهو لا يتناسب، ولا يشرح أى شىء، بل هو يزعج فحسب، لأنه فائض عن الحاجة، وعارض؟

(1990)

(فى: تيارات تعصف هنا وهناك Hin-und herbrausende Züge

حكايات- ١٩٩٣).

صاحبة الدار

هل تسمعون ذلك ؟ إذا كنتم لا تسمعونه فلا يهم، ها هو ثانية : «فايه فايه فايه»، فايه، فايه، فايه !»

لابد وأن نمر بذلك كل ليلة، كل ليلة يتعين علينا أن نتحمله، حيث يأتينا أكثر من مرة همساً، فحيحاً، بكاء أو صراخاً.. ألن تتحملوه؟ إن الأمر رهن التعلم حيث يمكن الاعتياد عليه فى ظل ظروف معينة، بل يجب أن نكون شاكرين لأننا لسنا كائنين فى الخارج فى ذلك السكون الحديدى الخطر إلى حد ما، حيث يسود السكون الأبدى فى لحظة. هل أنت أحد هؤلاء الذين يقفون كثيرًا على الرصيف رقم (١٤) ينتظرون القطار البعيد؟ هل يبدو عليك أنك من ذلك النمط الذى يقول الناس عنه إنه مثل قالب الصب من قمة رأسك حتى أخمص قدميك؟ ألوانك، أسلوبك الشخصى بأكمله، كافة ظلال الألوان بين الرمادى والأسود وقارك ورباطة جأشك، ذلك التركيز الشديد الذى يعتلى قسمات وجهك ومشيتك، لا أثر لذرة غبار عليك

حتى عندما ترتشف القهوة بسرعة من قدح من الورق المقوى وتقضم الكرواسون وأنت ترتعد بوقار من شدة البرد، أنت بارع وتتحكم جيداً فى غرائزك وتفعل ذلك بشكل عارض، أما حقائبك فهى داكنة الزرقة أو سوداء تجرها عجلات بالطبع، «رررررررر» تدفعها بجرأة صوبنا حيث يبدو أنها مسألة فى دمك.. ممتاز! كما أنه يعبر عنك بشكل متكامل أين يتم تصنيعك أنت وأمثالك، وإذا جاز القول أيضاً، أين يتم توريدكم بهذا الشكل الجدير بالثقة؟

فأنت تحفظ جدول الإعلانات وتستمع إلى كل التعليمات، إنها أعمالك.. فأنت تحملق فى الحظائر التى تخرج منها القطارات مسرعة والتى تختفى فيها ثانية: رررررررررر هكذا تتدحرج جيئة وذهاباً تلقى نظرة على لعبة الروليت تلك التى تمثل إعلاناً لكازينو المقامرة؟ هاها، تلك أيضاً تتدحرج ولكن فى حركة دائرية مستمرة، مثل الساعة، ساعة الحظ المريبة.

وتشاهد ارتعاش الأضواء بوجل ولا تريد أن تتواجد أسفل هذا النظام، فتكتفى بالحملقة فيها فى غياب عن الوعى، هناك حيثما توجد استدارة ثم توقف، حيثما يوجد دوران ثم ارتعاش ثم توقف، دائماً فى مكان، هكذا انطبعت صورتك وفى يوم ما ترغب فى اختبار فرص فوزك مرة واحدة فى الواقع.

ليس من المحتمل، فعندما ثبتوا هذا النوع من أشكال الدعاية لم يكن نمطك هذا موجوداً فأنت تترك نفسك فى شكل من عدم الاهتمام وأحياناً مع

شىء من التركيز على الإلهاء وصرف الانتباه حتى يتحرك القطار ويلتقطك معه، وهكذا تذهب أنت.. نفس مبدأ حقيبتك، حيث تدس بها الملابس ويغلق الياى وتندس داخل الزى الفضى فوق العجل لتنقل إلى مكان بعيد ليكون أخلافك أصحاب المربعات التى تتحرك على عجل يقفون بالفعل ليخرجوا من القطارات ويدخلوا فى قطارات وهم يجرون الأوعية التى تصدر صوت قرقرة، أما أمثالنا فلا يمكنهم أن يتخيلوا أن يكون الوضع هكذا دائمًا، هم وحقائبهم وأنه لن يلتفت أحد للأمر حتى وإن اختفى بعض منكم بكل بساطة حيث إنكم لم تصبحوا أقل على الإطلاق، فأمثالنا يتزايدون فى المقابل بشكل قوى ومرغوب فيه، بالطبع يوجد هنا رصيف رقم (١٤) وكذلك أشكال أخرى ولكن أنت.. أنت وحدك من يحدد الأرض ويسيطر عليها.

أمثالنا يجب أن يختفوا من هنا وهكذا نتلاشى أكثر فأكثر، وهذا هو ما نفعله على أية حال، نحن العناصر ليس مرغوبًا بنا فى هذا المكان، حيث إنه بالكاد لا يزال هناك الفضلات الحقيقية من تبغ «أنو»، فلماذا نتواجد نحن إذًا؟ حيث تتخذ الإجراءات لإزالتنا ولكننا ما زلنا هنا رغم ذلك، دون أن يلحظنا أحد، نبدو كما لو كنا منتظرين بلا متاع، قد يكون هذا مثيرًا للشك ولكنه لا يستحق العقاب، قد نكون الأقارب الفقراء لأخوة أثرياء توجهوا ليكونوا فى استقبالهم، أم لا ؟ فنحن نجلس ومؤخراتنا تكاد

تتجمد فى خبايا القضبان الحقيرة لتتابع شهيق القطارات وزفيرها، القطارات فى ذلك التيار الهوائى والحركة الحديثة، بين وحشة الوحدة وثنايا النفق، ننتظر بشىء من الولاء كما لو كانت موطننا وليست مجرد إحدى الإمكانات القليلة كما ننعم بسقف نحتمى تحته، حيث تشكل شمسنا الضعيفة بارقة الأمل الذى يلوح فى الأفق.

أما أنت فتسحرنا وتبعث فينا الملل ولكنه الشعور الوحيد ذلك الذى نتدارسك به على سبيل التمويه طوال ساعات، مع بعض اللحظات للاستراحة بالطبع، وهو ما يعنى أننا لا نراقبك أنت بل إننا نراقب بشكل أكبر، بل على الإطلاق حقيبتك فى انغلاقها على نفسها الذى يشكل صدًا للآخرين فيه شىء من العصبية نراقبها وهى تتبعك بعجلاتها الدوارة مثل الكلب المخلص ولكنها فى الواقع لها تأثير البطارية الكبيرة التى تمدك بالطاقة المطلوبة للوجود، ونشعر بالرغبة فى قطع ذلك الحبل الذى يصلكم فقط من باب الدعابة، فنحن أطفال مهملون أصبحنا كبارًا قبل الأوان، نحمل زجاجة نبيذ تحت أذرعنا ونسمع تلك الأصوات المزعجة فى آذاننا، ولعلنا نتذكر شيش إحدى النوافذ وقد انعكست عليه صورة زرافة صغيرة تعلو فوق مئذنة زجاجة تركية فى مشهد نسائى.

ونحن لا نعرف بالتحديد إذا كنا نحقد على أمثالك، نحن ذوى الشعر المشعث والفراغات السوداء بين الأسنان، وذوى العيون الغائرة، نعم! فنحن نحصل

على متاعنا من أمثالكم بعد أن تتفحصونا وتقذفوا إلينا ما ترغبون فيه، كثير منا كان يحمل كل متاعه وما يملكه ويجره فى عربة أطفال، أم عربة تسوق قديمة قبل أن تعرفوا أنتم الحقائب ذات العجل بزمن طويل، إلا أنكم ليس مسموح لكم، أنت وأمثالك أن تتهادوا هنا على الرصيف رقم ١٤ جيئة وذهابًا معكم حقائبكم تجرونها خلفكم بلا شفقة بينما نحن.. لا، بحق السماء.

تمثل المحطة لنا مقر إقامة، وهى ليست محطة انتقال مزعجة، فنحن نعرف كل بقعة هنا، نعرف ملامح الباعة وأسماء بضاعتهم ومزيج الروائح المنبعثة من الجرائد اليومية المختلفة، ويمكننا بنظرة واحدة أن نحدس تخيلات نسائكم المعقمات، عندما تمرون أمام وجوهنا، تلك الأغنية القديمة؛ تحلم النساء بالرجال الأقوياء الذين يجوبون البلاد أو بحياة صاحبات بيوت المتعة ويقبلون ذلك بوصفه واقعًا، بل واقعًا اجتماعيًا ! ولكنكم أنتم من يتعين عليهم التعامل مع تلك الفراخ وليس نحن، إننا تجاوزنا ذلك منذ أمد بعيد.

هاهو ثانية ذلك الصوت «فايه فايه فايه» إنه لا ينقطع.. نعم، قرص لعبة الروليت كل منًا يتذكره، ولكن بطريقة غريبة، أليس كذلك، ويكاد كل منًا لا يذكر الحائط الكائن تحته الذى يحد منطقة الرصيف بأكملها. فالجميع يحملق تجاهه عندما ينتظرون، ولكن الحائط يبقى غير مرئى.. فما سر ذلك؟ هل هو ذلك اللون الأصفر الباهت لبلاط القراميد، أم النوافذ

العميـاء، أم هى البوابة المتهالكة والمسورة عديمة الفائدة، ألا تذكرنا بواجهة جهاز راديو عتيق وضخم، مثل تلك الأجهزة الكائنة فى إحدى زوايا الحانات التى لا ينفذ إليها ضوء الشمس والتى تمتلئ بالدخان؟ ألا تذكرنا على وجه الخصوص بالستائر القبيحة ذات اللون البيج؟ قد يكون هناك جبال من الملفات المهجورة تحوى معلومات حصل عليها البعض بابتزاز مؤلم، لكنها كائنة خلف هذا الحائط.

وعندما يفكر أحد أنه قد يبدأ هنا المدخل المؤدى إلى عالم مفقود فى قلب هذا الملأ، فلا يستطيع أن يشيح ببصره عنها، وهذا هو ما حدث لنا جميعاً وقد كانت توقعاتنا تستحق هذا العناء.

فى أحد الأيام، فى وقت مبكر بعد الظهيرة، فى تلك الساعة الباهتة والقاتمة انفتح الباب الكائن أسفل لافتة قرص لعبة الروليت وخرجت منه كما هو متوقع بالطبع سيدة شابة فى خطوات كلها طاقة مثل راقصة إسبانية، لينبعث تيار من الهواء النقى، وروائح العشب والرمال، وذكرى لصياح صقر عالياً فى الهواء، كانت سيدة لها شعر نارى منسدل حتى كتفيها.. يا له من وجه ناصع البياض تزينه أرق شفاه! وقفت هناك وهى منتصبة وممشوقة القوام فى فستانها البنى المائل للحمرة ومعطفها ذى اللون النارى المتطاير فوقه.

هنا.. كان هذا هو ما حبسنا له أنفاسنا، ولا نعرف له سبباً، لابد وأن جسدها كان فى مثل بياض

وجهها، كان هذا واضحاً لنا جميعاً، وعلى الفور كانت تفوح منها رائحة عطر سرت فى اتجاهنا عبر السيور ثم ابتسمت لنا.. نعم، ابتسمت لنا، ويا لهما من حاجبين لونهما بنى فاتح يكاد يكون ذهبيًا ! ثم وضعت أصبعها على فمها وبعدها مسحت بيدها على شعرها المسترسل الذى أخذ يلمع بشكل مغاير، يقول البعض إنها إذا دست طرف لسانها بين أسنانها فأنت لعلك تعرف كيف يكون وقع ذلك علينا.

نحن الرجال.. أليس كذلك؟

ولكن بعد ذلك حدث ما لا يصدقه عقل، حيث لوحت ! وقف الجميع على الفور وعندئذ هزت رأسها الجميل وأشارت إلى واحد فقط بذلك الأصبع الرائع، فى ذلك الوقت من اليوم، حيث لا توجد أحداث هنا، فإذا بها تجذب وتأمر، أما ذلك الذى اختارته فقد عبر السيور دون تردد وقفز فوقها ولم يلحظ أى شخص دوننا ذلك.

وماذا فعلت هى عندما كانَ لديها ؟ لقد لمست ذراعه بكل تلك الحيوية ونفخت كما لو كانت تريد أن تزيح الغبار عنهما ثم فتحت صاحبة المظهر الرائع والملتهب الباب واختفت خلفه وهو معها، وبالطبع لم يجرِ أحد منا خلفه، فقد جلسنا كلنا كمن أصابهم الشلل، وفى المساء زحفنا إلى أماكن نومنا المختلفة وقد غرق كل منا فى أفكار غريبة، ولكن فى اليوم التالى وفى نفس الموعد انفتحت البوابة الصغيرة ثانية

كما كنا نتمنى دون أن نصدق إمكانية تحقق هذه الأمنية.

لم تخرج هى منه، بل هو وحده لم يكن فى الواقع أكثر نظافة أو تغذية عما كان عليه قبل أن يختفى، إلا أنه رغم ذلك كان يصعب التعرف عليه فقد كان سعيداً بدرجة لا يخطؤها أحد، كان الصبى مثل المنتشى أو من هو فى حالة سكر، لم يقل كلمة واحدة، بل اكتفى بابتسامة شماتة وجّهها لنا جميعاً. أما نحن وأمثالنا فقد عرفنا على الفور، بل فجأة ما الذى حدث، فقد كان ذلك بادياً عليه تماماً وكان هناك دون ذلك شىء يبعث على الضحك، حيث إن رائحتها كانت تنبعث منه ! فأخذنا نتشممه بسعادة مسبقة لينطلق بالطبع نفس الصوت ثانية «فايه، فايه، فايه».

حدث كل شىء فى تلك الأثناء، أنت ترى بالطبع كم هى مملكة رائعة تلك التى بنتها لنفسها خلف حائط الروليت الباهت، تحوى غرفًا فخمة، بينما نحن مضطرون لقضاء الليالى بطريقة أكثر بساطة طالما أنها لم تنادِ علينا، ولكننا نقضى تلك الليالى ونشعر بالحماية ونحن بقربها، نتطلع باستمرار لإشارة منها، يقول بعض من قضوا الليالى لديها إنها عن قرب ليست كاملة، وليست رقيقة وساحرة كما تبدو عبر الرصيف لأول وهلة، ولكن ذلك لا يشكل فارقاً فنحن نتبعها حيث الوسائد والسعادة، بمجرد أن تلوح لنا، مرة هذا ومرة ذاك هذه هى قواعد اللعبة وقوانينها، هى التى تحدد وهى التى تمنع، أما نحن من لم يقع

عليهم الاختيار فنغرق فى سحر المساء عبر البوابة لنخرج منها قبل انبعاث ضوء الصباح مرة أخرى دون أن يكون هناك حاجة لنا، وهى لديها ملابس لنا جميعاً أى شىء يصلح لنا منها، ملابس رجالى عصرية وجيدة للغاية، وخاصة بيجامات كما أن الطعام لديها شهى للغاية، بل ولديها شمبانيا، وكافيار وفواكه مثل تلك التى يمكن شراؤها من أغلى المحال، كما لديها الأدوية والمجلات الرجالية الخاصة بكل مناسبة حميمة.

فى البداية كنا نتعجب بشأنها وطيبتها المبالغ فيها وملابسها اللامعة ذات اللونين الأحمر والأخضر التى تشبه ملابس الحشرات والنمش الذى يغطى جسدها بأكمله، وكنا نتساءل عن مصدر ثرائها وذلك المعين الذى لا ينضب، فنحن ننتظر حتى تتخيرنا، لأننا نعرف أننا سيأتى علينا الدور مرة أخرى بعد تلك المرة المنسية فنذهب صباحاً كالمعتاد لقضاء أعمالنا المتواضعة ونظل قرب الرصيف ١٣ و١٤ أكثر من ذى قبل لنجد لديها مأوى فى الليل.

كان الكلام معها نادراً، فهو أمر ليس بالمهم حيث كانت تتلعثم وعندما تنظر مبهورًا إلى شفتيها شديدة الحمرة والحيوية يزداد الأمر ... سوءًا، ولكن لا يهم فأمثالنا يصبحون لذلك مفتونين بها أكثر من غيرهم. ها هو.. هل سمعته؟ «فايه، فايه، فايه، فايه، فايه فاهين» ولكن هذه المرة همس يمكنه كذلك أن يطلقه فى صوت عويل وبكاء.

لقد لاحظنا بالطبع أن الأشياء التى تهديها لنا لا تشوبها شائبة، إلا أنها لم تكن أبداً جديدة وهى عادة مغسولة، إلا أنها مستعملة، وهو ما يعرفه أمثالنا، كما أننا فى النهاية توصلنا إلى سرها وهو ما حول حياتنا إلى جحيم من ذلك الوقت ولكنها لم تكن لتتسبب لأحد منا فى متاعب، حيث كنا على استعداد لأن نموت من أجلها، من أجل ملاكنا الجميل، الخطير.

حدث ذلك عندما كاد أحدنا أن يقضى أسفل عجلات القطار مما تسبب فى مشاكل كثيرة مع الموظفين فى المحطة حيث ظهر أحدهما فى تلك اللحظة على الفور رغم أننا نكاد لانراهم على الإطلاق، ويبدو أن القطار كان يسير بسرعة عالية صوب المحطة وهو يتوجه إلى الخلف حيث اعتدنا نحن على أن نجتمع، وقد تحاور القطار القضبان فى حينه نجح أحدنا بجهد كبير فى أن يتسلق خارج تلك الحفرة والتى ادعى أنه سقط فيها، ورغم ذلك رأى البعض فى ذلك ذريعة كافية لإقصائنا عن المحطة، لولا أننا كنا نمتلك تلك الحقائب التى ندحرجها لتصدر صوت قرقعة.

وعندئذ عرفتنا هى على ذلك الطريق الكائن أسفل لوح لعبة الروليت حيث هناك طريق يؤدى إلى مصعد صغير وخفى خلف كشك المشروبات والحلويات الذى تعرفه أنت بلا شك، إلى نفق قديم أسفل الأرصفة حتى هنا، ظل هذا النفق مهجوراً منذ مدة طويلة، ولم

يعرف بأمره سوى صاحبة الكشك وإلهتنا، فقامت كلتاهما بتهريبينا عبره.

لذا تساعد صاحبة الدار الجميلة من حين لآخر فى العمل بالكشك عندما يكون هناك ضغط شديد وهى متنكرة بالطبع، فهى تغطى شعرها بطاقية وترتدى مئزرًا أبيض غير متناسق وتظهر بعينين مجهدتين، أما نحن فليس مسموح لنا مخاطبتها لتذهب هى بعد ذلك لقضاء أعمالها المفزعة.

ولا شك أنك قد عايشت هذا، فهى عندما ترفع أهدابها ليرى أحد الرجال عينيها ذات اللون الرمادى الضارب إلى الخضرة والتى يبدو بها شيء من الحور فيعتبر تلك الثوانى بمثابة حظه الأكبر، بينما هى تعاسته الكبرى.. هل تبتسم ؟ فلتبتسم إذًا حيث إنه مفهوم بالطبع أن يكون ذلك الرجل هو أحد هؤلاء الذين يجرون حقيبة ذات عجل، له نفس القالب، بين العشرين والخامسة والأربعين من العمر، ويرتدى نفس الألوان المتحفظة وسرعان ما يختفى كلاهما فى المصعد ومنه إلى النفق، يحتمل أن الرجل يذهب معها وقلبه يخفق ولا شك أنك تعرف ذلك أفضل من أمثالنا، أما هى فى المقابل، فماذا عساى أقول لأجمل الأمر، فهى تذهب بدم بارد وبلا مبالاة نعم، نعم، فلتضحك فحسب.

سأقول لك ما هذا الذى تعنيه تلك التأوهات والصرخات «فايه فايه فايه» فالرجل يحلم كل ليلة ببيته القديم، حيث طردته زوجته ورمت به على

أطراف الغابة بمساعدة محاميها «تسفاى فايدر فيج تسفاى» إنه عنوان بيته وماضيه ليتحول إلى رجل يحمل حقيبة، قوى الإرادة تماماً مثلك، إلى شخص مثل هؤلاء الذين نراهم على ملصقات الدعاية الانتخابية ليطلق صرخات حنينه وقد سقطت منه أسنان عديدة فى تلك الإثناء ليطلق الألفاظ فى الصرخة بشكل صحيح ولكن الأمر سيان الآن فلن يعيده أحد إلى هناك.

إنها جميلتنا التى تتلعثم فى الكلام التى ما زلت أنت فى انتظارها، أليس كذلك؟ تلك التى علمت وقد اشتاطت غضباً أن أمثالنا هنا لا تريد أن تعبر مجدداً فى ردهات العاصمة العالمية شديدة النظافة، نحن لا ندرى من أين أتت ومنذ متى تقطن تلك القباب السرية، ولكننا نعرف حق المعرفة، أنها يمكنها بجمالها الخلاب هذا أن تحيا بأمان مع رجال أثرياء، إلا أنها وعلى حد قولها تصاب برهاب المكان لذا تعجبها وجوهنا غير الحليقة أكثر من وجهك أنت أيها الرجل الطيب حيث إنها ترى أنه كلما كان من الضرورى أن يختفى أمثالنا، فلعله من الأفضل أن يذهب بعضكم هل فهمت؟ فمحتويات حقائبكم تبقى لنا أنت نفسك ... هل يجب أن أزيد فى الإيضاح ؟ هل تريد مغامرة تلطخك تمامًا وبكل حذق؟ فأنت لست على الطراز الذى تحبه هى، سوف تزاح عن هنا وتختفى بلا أثر، وهذا هو ما سوف تنادى به هى على الفور هل تبتسم بسخرية هذا ما يفعله أمثالك جميعاً، حتى يتم الأمر.

آه.. لن يستغرق الأمر طويلاً، حتى تأتى وهى تتخايل.. آه، صوت الطرقعة الذى تصدره حركة الردف الأيسر الرائعة أسفل الرداء الرائع، ذلك الوجه الرقيق تلفه خصلات الشعر الأحمر الملتهب المموجة مما يشعر أى شخص، نحن أيضاً نتمنى الاقتراب منها أما أنت أيها العجوز، فعليك أن تتخلى عن ذلك عندما تعطيك الإشارة، عليك أن تتبعها حتى الحجرات الخلفية الفاخرة ذات الوسائد.. آه !هل تسمع خطواتها؟

وهناك شىء آخر يجب أن يقال فى عجالة، إنها قاتلة بحق الكلمة، وهذا هو ما اتضح لنا بكل أسى، ولكننا لا نخشاها فليس هناك سبب يدعونا إلى ذلك وهى تسعى خلف نشاطها الدامى، وسوف تقتلك وهى مستمتعة فهناك إمكانات كافية للتخزين والإلقاء، كما تعبرون أنت وأمثالك عن الأمر عندما يتعلق بالقمامة.

نحن نشاركها المعرفة بالأمر بل ومستفيدون من جرائمها، ولكن لا يمكننا العودة لا أحد يريد ذلك حيث إننا فى غاية الإعجاب بأعمالها الإجرامية، حتى وإن كانت تقشعر لها أبداننا. لم يكن أحد ليستطيع القول كيف يمكنها أن تنجز الأمر بلا جهد وبلا اكتراث حيث إن نظراتها النفاذة وبشرتها البراقة وعطرها الذى تضعه ليذكرك بأعشاب المروج فى شهر نوفمبر لكنها أمور تبقى على حالها رغم ذلك، ولا يصدق أحد عندما يراها ويتمكن من لمسها بعد

ليالٍ كثيرة إنه يستشعر لهب روحها ويتوخى الحذر بقدرٍ ما نستطيع بأيدينا الخشنة التى لا نفع منها.

ها هى تظهر وهى تدس طرف لسانها بين أسنانها ها هى تعطيك الإشارة لقد حان الوقت وها أنت تجر حقيبتك خلفك وتتجه نحو ليلة الحب شديدة الخصوصية، كم هو صوت حذر الذى تصدره الحقيبة!.. هل تسمعه ؟ ر ر ر ر ر ر ر ر ر ، فاو فاو فاو فاو، ر ر ر ر ر، فاو فاو فاو فاو فاو ! " ياله من منظر ساحر ذلك الذى تخلفه أنت وحقيبتك وراءك، إنه منظر، أقسم إنه لا يقاوم !

ألا تبدو رائعة وفاتنة؟ إن الحياة الحادة والمتهادية بنفسها هى التى تتبدى من داخل الخلفية ذات الخرق البالية، لتظهر بزيل الشعر المتوهج الحمرة، وهناك نصيحة أخرى لك، لم يرها أحد أبداً وهى تأكل أو تشرب.. آه، وتلك الوسائد الطفولية على شكل شفاة، وقد اكتست بأشكال القبلات، تلك الوسائد المتعطشة للانتقام، كما تنبض بالسعادة.

(من: حيل الفنانة اللامعة- ٢٠٠٤)

أساطير.. حكايات وتحولات

قوة الازدواجية فى المعنى

فى مركز للتسوق أسفل قبة مضيئة

يبدو أننى كنت فى حالة مزاجية غريبة للغاية أثناء وجودى فى مركز التسوق قبل أن أرتطم مباشرة بزوجين لا أعرفهما، ولا أعلم كم من الوقت استمر هذا الأمر، نظرت إلى ساعتى تشير إلى السادسة تماماً! ثم نظرت إلى دمية رجالى مثل تلك التى توضع فى نوافذ العرض، كانت ترتدى القطعة السفلى من الملابس الداخلية ذات ثلاثة ألوان، الجزء المقوس الذى يبدو أشبه للحقيقى فى الوسط كان أخضر، كما فصلت الجوانب الصفراء اللون تلك الخيوط ذات اللون الأحمر المرح، وأحسست بحزن ينتابنى ولم أعرف سبباً لذلك.

«عصفورى الصغير ذو الحلقة الحمراء»

يغنى عذاب.. عذاب.. عذاب

إنه يغنى للحمامة الصغيرة على موتها

يغنى عذاب.. عذاب..

أخـذت هذه الأغنيـة تتـردد فى رأسى، وعندئذ انحنيت على ركبتى وشعرت بألم شديد فى جسدى، ثم سمعت صوتاً بعيدًا يقول شيئاً مثل:

تشوكرث.. تسيكرت.. تسيكرث".

« يالهـا مـن بلاهة..! يالهـا مـن بلاهة..! ظلت هذه العبـارة تتـردد فـى الوقت ذاته أو بالأحـرى فـى الواقع على مقربة شديدة منى ولكن الرجل الذى انحنى معى على الأرض من جانب اللياقة واحتضننى سهواً لم يكن هو من قالها بل أنه ابتسم، دون أن يفتح فمه ودون أن يرفع حاجبيه، مما جذبنى إليه على الفور، وقبل أن أتمكن من التثبت من أننا فى وضعنا الراهن هذا كنا فى نفس الحجم، استمتعت بذلك الانطباع قبل أن يزول، حيث وجدت نفسى بسرعة البرق بين ذراعى مجرمًا وسيمًا.. هل كنت أتمنى ذلك طوال حياتى؟

إلا أننى كنت مخطئة بشأن الحجم والطول وهو ما اتضح بعد لحظات قليلة، ولكن لم يكن الأوان قد فات بعد ولننفصل عن بعضنا البعض! هكذا يبدو مجرمو أمريكا الوسطى اللامعون، هذا هو ما فكرت فيه، الشعر مشدود إلى الخلف بعيد عن الجبهة وممشط جيداً، بشرة الوجه مشدودة على العظام، رابطة العنق ذات اللون الفاتح، القميص أسود قاتم، مما ينم عن الخطورة، وتنبعث منهم رائحة طيبة، غرد العصفور

الصفير الكائن بميل فوقى وقال : «فلتنهضا أخيراً! »
دفعتنى أياد مجهولة شعرت بها على ظهرى
وساعدتنى برفق كى أعتدل، أخذت العيون الباردة
المواجهة لى تتفحصنى مباشرة، نظرة كنت أنتظرها،
إلا أنها اخترقت رأسى ببساطة لتنفذ من حائط
الجمجمة الخلفى.

وعادت الأصوات تفرد مثل الناى فوقنا.. عالياً
فوقنا: «يالها من بلاهة..! يالها من بلاهة» وهكذا
توجهت بوجهى من الأعماق إلى ذلك الشخص
المنتصب بجسد مشدود وهو يرتدى حذاء طويل
الرقبة مصنوعًا من جلد الثعبان، ولا سيما صوب فمه
فى المقام الأول، ثم هبوطاً إلى معطفه البنى، وصعوداً
إلى فمه حيث نظرت عالياً كما لو كنت أنظر أعلى
شجرة، وكنت لا أستطيع أن أصل إلى أبعد من ذلك
فى الوقت الحالى، لم أتخط تلك الكتلة العرضية
الحمراء الداكنة. «هيا، إذاً!» أخذ يطلق صفيره، كان
له خطم سمكة جميل، متورم وصارم، ذلك الذى
أمرنا، أما العيون فلابد وأنها كانت لضفدع يتسلى
ولكن هناك ما أغضبه سراً ـ وكان هناك شىء ثالث
ولكنى لم أفهمه بعد، ذلك الذى ركعت منحنية أمامه،
دون حذاء، هذا هو ما فطنت إليه الآن فقط، حينما
وضعت كعب قدمى على بلاط الممر البارد بمساعدة
هذا الرجل الذى كان قد انتصب واقفاً مرة أخرى
لتوه، وهو الأمر الذى فجر داخلى شعورًا بالذنب لا
أعرف له سببًا. يبدو أن الناس قد التبس عليها الأمر

واعتقدوا أنه شعور بالخجل، كان هذا الرجل الذى أصبح طويلاً للغاية يرتدى بذة ذات خطوط داكنة.. لم يفاجئنى هذا بالطبع، كما لم يفاجئنى أنه انحنى إلى الخلف ثانية وغمغم بصوت حاسم ومألوف ليسألنى عما إذا كنت قد أصُبت، أما السيدة التى كنت قد انتزعته منها لبرهة فقد دفعت حذائى الذى انخلع منى بمقدمة حذائها ذى الرقبة الطويلة لتقربه منى، واحد، اثنان فإذا به يندفع نحوى، لم يستغرق الأمر طويلاً حتى اعتدلت فى وقفتى واستطعت رغم الآلام المبرحة التى شعرت بها فى ركبتى أن أنضم إليهم وأندمج ثانية بين الناس دون أن ألفت النظر، إلا أننى لم أكن مهتمة بالناس جميعاً حيث لم يكن يعنينى سوى إثنين منهم.

نظرت إلى السيدة بدافع الأدب وكذلك حتى لا يفتضح أمرى، أصابنى الخرس منذ البداية لشعورى بأنها تحملنى ذنب هذا الحادث، إنها حادثة، لم أعرف كيف حدثت، ولكننى لم أقل : «معذرة»، بل انزلقت كلمتان من شفتىَّ دون أن أتحكم فيهما، حيث خرج ما يعتمل بداخلى، ولا سيما كلمتين لهما توابع كثيرة- «هذا جميل» انعقد حاجباها فى تقوس نصف دائرى فوق عينيها، وكثيرًا ما كنت أتخيل هذه الأقواس الجامدة فيما بعد بوصفها الأفواه التقليدية التى نرسمها على وجه التوائم المتشائمة، ولكنها كانت تصلح كذلك لتكون أفواها لأخين من التوائم المتفائلة إذا أعدلنا من وضع الرأس، كان كلاهما ينظران إلىَّ

وينومانتى مغناطيسياً - بدون مبالغى - ولكن السيدة كانت تثبتنى فى مكانى وقالت بفمها غير المألوف، ذى المعالم الواضحة والمزين بطريقة مستفزة: «هكذا، إذًا!» كان وقع كلامها أقرب إلى الاتهام بعد مرافعة ذنب موجزة، ولكن النبرة كانت سببًا لنوع من الضجر.

- هل كانت هى الرغبة الدفينة فى الغفران التى ارغمتنى على تكرار قول: «حذاء جميل ! ؟» وكنت فى تلك الأثناء قد استخلصت أنها لابد وأن تكون أكبر كثيراً من الرجل. هل كنت أطلب العذر بسبب هذا الاكتشاف المتعجل وأنا أحملق فى الحذاء ذى العنق الطويل المصنوع من جلد الثعبان؟

حركت قدمها اليمنى حركة سريعة إلى الأمام بها شىء من الاستهانة، بدا الأمر كما لو كانت تريد أن تركلنى بشدة فى قصبة ساقى، ولكنها قالت بلطف وفى شكل هادئ، كما أخذ صوتها يزداد ودا، إن هذا الحذاء لا يعد شيئاً وإذا كنت أهتم بهذا الشىء فهى تمتلك أحذية أخرى تكاد لا ترتديها والتى يفترض ألا يرتديها شخص آخر.

استمعت بإنصات إلى ما هو جذاب وله وقع الهديل فى صوتها، وهو الأمر الذى لم يكن يعنينى فى شىء بقدر ما كنت أهتم بأمر الرجل، الذى كان واقفاً هناك ولم أكن أتطلع فى وجهه لعلهما تفاهما فى أمرى، هذان المتلهيان؟

ولم يجد أحد غيرى كلمة الخلاص حتى وإن كان من قبل الصدفة مجموعة أحذية تضم بعض القطع الفريدة؟ لابد وأن بها نماذج نادرة، كان هذا هو ما ذكرته على سبيل التخمين وبكل أدب، وكان لابد وأن أتحدث بأدب، وأضافت: أنه علىَّ أن أزورها إذا كنت أعرف كيف أقدر هذه الأنواع. ورفعت حاجبيها لكنهما لم يتخذا الشكل الهلالى المسطح ثانية، خرج العصفور الصغير ليأمرنى من أعماق حدقتيها، وأخذت أتردد واتأرجح وأترنح بركبتى المتألمة، لم يقل أحد شيئاً وهكذا أرغمت على اتخاذ القرار دون عبارات المجاملات التى من شأنها أن تتفادى الأمر حين قفز المجرم أمامى بابتسامة مميزة وقال: «إن الأمر يستحق» والآن فقط تمكنت من رؤيتها، تلك الجبهة العريضة التى اعتلت الوجه ذا العظام البارزة. فأومت له. أما هو فقد غمز بكلا عينيه بسرعة فى رقة لها كثير من المعانى، لا شك أنها مصطنعة، ولكنها الملاطفة المفتضح أمرها من جانبى التى سلبتنى رغم ذلك المقاومة والرغبة. وفى تلك الأثناء، بل فى الحقيقة قبل وبعد ذلك كان ينظر بلا مبالاة دون أن يطرأ تغيير على وجهه، وكانت تلك اللامبالاة قد اختفت لثانية واحدة. دست مرافقته يدها فى جيب المعطف لتعطينى بطاقة تعارف صغيرة وقالت إنه كل ما على أن آتى بالمركب عبر نهر الإلبه وكانت تتوقف لتنظر إلى البلاط وعضت على شفتيها. وذكرنا أسماءنا لبعضنا البعض ولم يتذكرها أحد منا، ثم

نحنحة ثلاثيــة، ليس إلا ثم لم نسلم على بعضنا بل انحنينا قليلاً. وسـرعان مـا ابتعدا وسـمعت عن بعد ولأول مرة ضحكتها الرنانة، مثل رنين الصافرة العالى استـمـعت إلى ذلك ووعـدت بزيارتها هناك فى البلد القديم.

ولكن متى ؟ ولكنى متى ؟

(بداية رواية جسر الشيطان- ٢٠٠٠)

إن كل شىء غامض، مزدوج المعنى أو ثنائى المعنى يتمتع بسحر وبإغواء فاحش، ليس سحر الأشياء الخطيرة المهددة بالموت، بل إغواء الأمور الخطرة إلى حد ما، وأحياناً الأمور غير الجادة، ودائماً إغواء الأشياء المثيرة للاهتمام التى من شأنها أن تسبب الدوار أحياناً، والتى هى خبيثة بدرجة قليلة، وهناك دائماً الظاهر وشىء متعارض معه تماماً ولا يعرف أحد ولا يصل إلى حل نهائى من مكان هو وأين تتواجد الأرضية الراسخة للحقائق. وتقول كل المسميات إنه دائمًا ما يكون هناك تقديران، معنيان، وتوضيحيان، ولا سيما الجانب المحترم والنزيه والآخر غير النزيه، وأمور كثيرة تؤيد كلا الجانبين وإلا لما كنا نستطيع أن نتحدث عن ازدواج المعانى، التى لا تسمح بتأكيد نهائى أو اطمئنان ختامى حيث إن التساؤل المتبادل لا يتوقف وهو لذلك يعد الخصم الساحر لكل الأصول الثابتة.

(من: غمزة عين الآخرة: ازدواج المعانى فى الأدب فى: ازدواج المعانى. مقالات وقصص قصيرة- ٢٠٠٢).

مارلون براندو

قال إليا كازان المخرج الذى يعرف مارلون براندو حق المعرفة إن أفضل رداء وأهم صفة تمثيلية لهذا النجم هى ازدواجيته! حيث إن بريق براندو أنه دائماً خيِّر وشرير فى الوقت ذاته، رقيق وقاس حتى حد المغالاة، بل إنه «نسائى» «ورجالى»! كما أن الممثلين الذين حاولوا تقليده سرعان ما انحرفوا إلى وجهة الأحادية، حيث إنه لدى براندو لا تختلط أشكال المغالاة أبداً من أقصى الرقة إلى أقصى أشكال العنف، أقصى الحب والكره، فهو يبقيها متفردة بوصفها طاقة قادرة على الخير مثل الشر بنفس القدر، وهى كامنة فينا جميعاً، ولكنها تظل خافية فى العادة، مكبوتة، متوازنة ظاهرياً ويسهل نسيانها، ولكن براندو يبرزها لكنها فى وجهه، إنها تلك القوة التى يمكن أن تعنى كلا من التدمير والإزالة إلى جانب التجديد الجذرى على حد سواء، تعنى دماثة الخلق والخيانة، أحدهما يوازن الآخر ويثبته. إن إمكانية

دوافعنا السلبية والإيجابية من حيث المبدأ لا يمكن أن ينكرها أحد لصالح إخبار وتبسيط أيديولوجى، ويعبر كل هذا عن نفسه دون طرق ملتوية، أى فى شكل سحر مباشر.. سحر شخصيته، إلا أن تأثير براندو ليس شيطانيًا، إنها ارتعاشة الوجنة التى تعتلى وجهه بشكل شبه متكاسل، فكلنا مولوعون بالأيديولوجية انطلاقاً من الرغبة فى الراحة حتى أن الجوانب غير المروضة والتى لا تقدر فى طبيعتنا، والتى تشكل حذرا لنا وفى الوقت ذاته أيضاً تشكل نجاة لنا هى طاقة تنظمها الحسية و«النهضة» (...) فالعالم فى أدواره مكثف بشكل تقليدى وغير أخلاقى، ولكنه ساحر يسلب العقل وهو يبقى أقطاب وجودنا فى الذاكرة، هو يصبر عليها، ويشع بها.

(من : مارلون براندو. فى مقالات عن الأدب. ١٩٨٧).

لورد جيم

إن جيم هو بكل بساطة ازدواجية معبأة فى حد ذاته، وهذا وحده ما يفسر الافتتان والشغف الذى يمارسه على المؤلف والراوى فقد وصفه كونراد فى تتابع رواياته بين أبطال مريبين، ولا سيما كودتس الشيطانى فى رواية قلب الظلمة Herz der Finsternis وبين نوسترومو الإنسان المتعثر، ولا سيما بوصفه الأكثر طفولية ولذلك الأكثر طرافة إذا ما نظرنا إليه بلا قلب وأشار إليه بجملة.. لا أحد منا ! حتى يحقر من شأنه وبصورته فى هيئة شيطان، أو بالأحرى من أجل منع الإقلال من هجمة من خلال تصويرات نفسية وفلسفية معروفة، وهو ما يعنى تماماً تحطيم ذلك التوازن المستفز الدائم الاتزان، الذى يسرى على شغف مارلو كونراد؛ لأن رواية اللورد جيم لم تكتب من أجل توضيح شخصية ما نحب، بل من أجل خلق نموذج خاص، تماماً كما تتمخض الطبيعة عن مخلوقاتها سواء كانت خيِّرة أو شريرة، ولكنها حقيقية

إلا أن جيم ليس خنفساً أو عود عشب إنه غير كامل ويمانى، يتميز بالعصبية، ويرتجف من الملامح ولكنه لا يمكن فك رموزه بوصفه مخلوقًا لا يمكن الاقتراب منه حيث يختفى أسفل الجهاز القابل للفحص شىء دائم الإبهام، طبقاً لوجهة النظر التى مفادها أن «الشخصية الخاصة ما هى إلا قناع مضحك وواضح لشىء مجهول ولا أمل فى تغييره» (خطابات مجلد(١).

(من: لوحات حامية ونظرة محرمة حول عمل جوزيف كونراد «لورد جيم» فى ازدواج المعانى مقالات وقصص قصيرة- ٢٠٠٢).

فندق الغابة الدولى..

معذرة.. لن أتمكن بكل ما أوتيت من عزم أن أدرك بواطن الأمور أبداً، فما الذى يجذبنى؟ وهو سؤال بلاغى فحسب، ما الذى يجذبنى حقاً وما الذى أحظى به عندما أقبل العرض، أو بالأحرى أتبع الإحساس بأننى أحظى بالتعزية والمواساة، حتى وإن لم يكن هناك أى احتياج للمواساة قد سبق، وهو ما يمنحنى ذلك الشعور الجارف الذى يطلق عليه الناس «ارتياح» أو عدم تحرج وهو كذلك عكس «العاطفية» ؟

ما الذى يدفعنى عندما أسمح بذلك، أن أتبع بلا أدنى مقاومة قيادة يفرضها طريق صغير ومتعرج فى جزء عادى للغاية من الغابة؟ حتى أنه كان ذلك بمجرد النظر انطلاقاً من قطار يسرع فى الاتجاه المقابل صوب هدفه الثابت، حيث أجلس أنا ليتم نقلى ضمناً دون أن يتغير فىَّ شىء ظاهرى، ولا سيما إلى واقع أشمل وحقيقة ما بكل جرأة، حيث أنتقل إلى منطقة خضراء خالية من الأشجار الكثيفة وأنا أقضم قطعة

من الجـاتوه لأنام طوال عـشـرين دقـيـقـة إلى جـانب «ترموس» القهوة وعلى مرأى من عصفور الزريق، كما لو كنت فى حجر إبراهيم أو آدم وحواء.

وما الذى يجذبنى مرة أخرى لأتحول من الطريق السريع المستقيم الذى يؤدى واجبه إلى أرض الغابة التى تظهر على الجانب بما فيها من جذوع أشجار متساقطة، وإلى بقع النباتات التى أزهرت مبكراً، وإلى باكورات نباتات السرخس حتى وإن كان هذا الطريق المذكور لن يضيع بكل تأكيد داخل ظلمة الطبيعة، ولاسيما أنه سيعاد إلى الصواب والرشد فجأة بعد خمسمائة متر من الحقول والأسفلت والمناطق الصناعية؟

هل هى أنقاض منطقة الرور التى أضفت اللمسة الأسلوبية على شغفى بوحدة الطبيعة الذى رسخته فى الأساطير فى زمن ما بعد الحرب البعيد؟ وأنا أعنى هنا الصورة المناقضة والمركزة؟ مثل تلك التى يقول عنها لودفيج تيك فى روايته الأسطورية إكبيرت الأشقر :

«يا وحدة الغابة، التى تسعدينى، غداً مثل اليوم ...
، ... كم أنت بعيدة ... ، وسوف تسعدينى ثانية»
ولاسيما بغناء عصفور فى ثلاثة تنويعات بصفاقة وبدون أى فن، فأنا على أية حال كنت بين الخامسة والثالثة عشرة من عمرى أقتفى أثر بقايا كل حديقة صغيرة مغطاة، كل موقع جديد لبقعة بها منظر خلاب

مكسو بالعشب، والتى كانت غالباً ما يطلق عليها زهرة المرعى رفيعة الأوراق المصابة بالآفات، وذلك بين المنازل المهدمة فى منطقتنا آنذاك، كما كنت أعلن ملكيتى المطلقة لها فى جلسات ما بعد الظهيرة السرية أثناء الاستراحات السريعة قبل وبعد المدرسة حيث اختلطت فى تلك التدفقات الشديدة للأزهار القليلة اليانعة فى الأطلال، الروائح المعهودة للقمامة والجيفة المتعفنة والتى تتصاعد بحسب المناخ، ولكننى لابد وأننى كنت آنذاك أهوى التصور المثالى لرائحة الغابة الحقيقية مثل روائح الفطر وورق الشجر والعفن والعشب داخلى، وكنت أتخيل حتى النهاية هذا الشىء الذى أدركته حقًا مع الروتين اليديهى لإحدى معتنقى مذهب اللذة إذا كان الأمر يتوقف على ذلك.

أعنى أن القليل من الخضرة يكفى لاستحضار أكثر الصفات راحة لغابة كثيفة حقيقية هذا هو الحال اليوم حيث كانت تكفى الكلمة الأسطورية «بيت الغابة» أو كلمة «غابة الربيع» لتسحر وقفتى الثرية بالأشجار فى شهوتى واندفاعات (أيشندروف) وتملؤها بالظلال والعطر والبريق حتى هذا يكاد يكون لم يتغير وصحيح أننى لم أر نشوة الأوراق التى تملأ لوحة بأكملها فى رائعة ألترسدورن «القديس جورج» إلا بعد تجارب عديدة خاصة مع الغابة، ولكن ألم يكن الإعجاب بالأسقف المغطاة بورق الشجر وثقوب جذور الأشجار الكائنة فى رسومات ريشتر الأسطورية حدث مواز لرؤى الواقع؟ توقع أنها، تكثيف متبادل.

إلا أنه هناك شيء ثابت بالنسبة لى، طالما يمكن لشيء أن يعتبر بمثابة اختصار لتركيبة الغابة المتواضعة، ولا يهم إن كان فى منطقة غير معروفة أو مألوفة بالنسبة لى، يتوقف لدى على الفور الإحساس برهبة المكان الغريب، وهو الأمر الذى يتمتع بميزتين أولاهما أن هذا الوطن المختفى أسفل الصورة النمطية "للغاية الألمانية" التى تتعرض للسخرية فى عجالة من كل الجهات، هو مسألة محلية متنقلة ودولية، يمكن أن تتواجد فى كل مكان، كما لو كان يمكننى أن أصطحبها معى أثناء رحلاتى فى شكل شعار انتخابى مقنع وثانيتها أنه يكمن فى تلك القناعة على ما يبدو المقوم الأساسى للصلاحية، أو شعور بالغابة لم يتقلص فى كل مكان على الإطلاق بما يحويه من سعادة الروح وهدوء الأعصاب، وهو الأمر الذى لا يقتصر على النماذج الأولية لطبيعة أشجار البلوط والدردار.

إن ثلاث أو أربع شجرات من شأنها أن تحدث نشوة قوية، كل ما عليك ألا تبدأ على الفور وبشكل آلى فى الشكوى عند المقارنة مع الصورة الأصلية.. لا، يجب أن نرى الفكرة فى صورتها المختزلة وهى تلتمع وتتنفس على الأقل للحظة، ولا سيما بكل مذاقها من التوابل وضيقها النباتى المُلطف والمقلق فى الوقت ذاته.

ما الذى يزيد من أهمية المحميات الطبيعية؟ خاصة منطقة غابة المستنقعات والمروج المعادة إلى

الطبيعة بمحاذاة نهر الإلب من مدينة هامبورج، والمسماة «كلوفنستين» والتى كانت تردنى إلى صوابى ثانية عند حالات البلبلة والشكوى من «العالم النشط» (أيشندورف) وثقل ظل حركة الثقافة فى الرأس والقلب.

ولا يستبعد كل هذا بالطبع نقد حالة الغابات الكثيرة بأى حال.

ولا شك أن الحنين إلى التسلية والترفيه على الأرضية الخضراء ذات الطحالب فضلاً عن السحر فى طرق ضوء مائلة واستخدام تام للأوركسترا محتوى الغابة ليست أمورًا عقلانية.

ويجب ألا تكون كذلك إلا أنها كذلك!

(فى ازدواج المعانى: مقالات وقصص قصيرة- ٢٠٠٢)

الطبيعة.. الطبيعة !

هل يشعرون أحيانًا بالتأثير المتوالي للفزع، فجأة على شواطئ البحار، في الغابات، في الجبال، عندما تُكشِّر الطبيعة عن أنيابها لأن روحها قد أزهقت، ولأن الأمر سيان ـ وهذا نوع من العقاب لنا ـ سواء تم إفناؤها أو ترويضها أو نهبها؟ ما هي سوى جماد، مادة تشعر ببعض الألم، مثلنا نحن، مثلنا نحن.. بارتباك وذعر يهرب الصاعدون إلى أعالي الجبال من قممها، لكنهم لم يتصوروا الأمر هكذا. هل كان پان(*)، وهو ابن (الإله) هيرمس وحوراء ـ لاندري بالضبط ـ «مخلِّص المؤمنين العظيم» الذي صُلِب على الرغم من أنه كان يمثل كل ما مالدينا ، إنه پان الطيب .. پان العظيم كما يصفه ريبيلي (Rebelais)، هل قتله البشر حسب قانونهم وأصبح موته وحشة كبيرة تسيطر على كافة المخلوقات من بعده؟ وعندما يسمع ـ پانتاجرويل (Pantagruel) أننا نرثي پان ـ لكن

(*) إله الرياض والرعاة عند الإغريق.

أين القرون وسيقان الكباش التي تشبه قرون وسيقان الشيطان ـ باعتباره سيد الكون ومخلِّصنا وبأن جميع مخلوقات الطبيعة الطفولية الصغيرة، خاصة الحيوانات تصرخ ألمًا على موته، يذرف من عينيه دموعًا في حجم بيض النعام.

(من رواية جسر الشيطان (-Teufelsbrück 2000)

الغابات الاستوائية المحتضرة

الإسقاط لأسفل، الحفيف العاصف الأخير لعمالقة الغـابة الاسـتـوائيـة ، جنس منقـرض، تنقل الجـثث الملسـاء المخصية مجهولة الملامح ذات الفـائدة التي تم إخـراصـهـا للأبد في شكل أبـواب ونوافـذ.. خـشب استوائي قـاس من مـاليـزيا وصـائدو أخشـاب التصنيع والبلدوزرات والمنـاشـيـر الكهـربـائيـة لألوية قـاطـعـو الأخـشـاب أفـزعـتني في وجـودي الحـالم المتـأرجح المتحرك للأمام في قـمم أوراق الشجر، وهـي تفزع بدو الغـابة في بحـر الغـابات الاسـتـوائية المظلم السـحـيق. لأيام وليـال طـوال يسـتـمـر انـتـشـار النيـران لاجـتـثـاث الأشـجـارفي أمـريكا الجنوبيـة من أجل الحـصـول على المراعـي الضـخـمـة للحـيـوانات التـي سـيـتم ذبحـهـا مستقبلا.

إنهـا الغـابات الفـانيـة بالقـرب من خط الاسـتـواء، تتكمش الـغـابة الاسـتـوائيـة في مـاليـزيا، افـتـرسـهـا نهم الأغنيـاء الآنف للأخـشـاب، ونهم الـفـقـراء لأخـشـاب

التدفئة، ونهم الفقراء المتزايد بسرعة فائقة للأراضي، النهم الاستراتيجي للحصول على الأراضي للشركات الكبري اليابانية والأوروبية والأمريكية، يلتهمون كلهم الغابات التي كانت ملكًا للحيوانات. أرى تقارب حدود الغابات المدارية الممطرة والجافة وقد انهارت الدورات المائية الكبيرة بها ـ لقد أخليت المخابئ الأخيرة لتصبح كرة أرضية صلعاء خالية من شعر الإبط والعانة، تم حلقها تمامًا لتكون صلعاء بلا مخابئ للأسرار أو روائح لما هو عضوي. إنني حيوان متسلق من غابات أمريكا الجنوبية بين أوراق عمالقة الغابة الاستوائية، إنهم يسرقون النوم من عيني، ويحولون الكوكب بأكمله إلى يقظة دائمة الصخب والهدير، إنهم يهوون على المظلات الحامية لنا من الكون يقطعونها، يبيدون الغابات النائمة المثمرة ويتحدثون أثناء ذلك عن مواقع الإنتاج والمواد الخام.

لقد كانت مواقع الإنتاج والمواد الخام في أصلها هى الغابة المجتثة المستأصلة التي تم إبادتها والتي كانت آخر منفذ ليقظتنا، لطفولتنا، التي كانت ملاذًا أخيرًا، أرض الميعاد، المجهول الذي لم يتم اكتشافه بعد في الإضاءة الدائمة، المجهول في طي الكتمان، لقد كنت أشعر بالأمان أثناء نوم الغابة الاستوائية، في الغابة الاستوائية النائمة، أن أكون بريئة في براءة، عزلاء آسرة. المستعمرون الذين يقومون باجتثاث الغابة بقسوة وعنف ومكر والحاصلون على الامتيازات لذلك في أغلب الأحيان يدفعونني بعمق

إلى منتصف ليل الغابة الاستوائية، وكلما كان العالم أكثر اتساخًا زادت حاجتي الخانقة إلى غسل يدَيّ أثناء النوم.

عمالقة الغابة المغلوبون على أمرهم في قوتهم يشبهون عجز الجواميس البرية أمام رصاص البنادق، إنه الحفيف الأخير بأوراقهم، يتساقطون بضجيج على الأرض العذراء.

إنه عُري مثير للسخرية لبدو الغابات وهنودها الحمر وأقزامها في الأراضي التي فُضّت بكارتها، أصبح الجامعون والصيادون محاطين بدائرة الضوء، أعينهم وجلودهم لم تعتد الوجود نهارًا خارج حدود الغابات المطرة الدائمة الخضرة، عوائق واهية قاصرة في الصفقات الدولية، في الاتفاقات التجارية الأوروبية والآسيوية، أصبحوا بلا حول ولا قوة مثل طبيعتها الخضراء وثروتها الحيوانية وزائدة عن الحاجة في ديناميكية الحاضر الدائمة السطوع.

يتم إيقاظهم لإهلاكهم من أكواخهم الخشبية بالأشجار وشبكات النوم المعلقة، النبال وأنابيب إطلاق السهام السامية وكرة القذف، سم ثعبان الشجر الأخضر وأبخرة وإفرازات؟ جذور وقشور الأشجار لا يخشاها المعتدي الواقعي المتغلغل.

المحاربون ذوو اللحى، الأبطال الخضر تم إسقاطهم، وفي سقوطهم يجرفون معهم الأضعف منهم، الذين يهلكون بطريقة لا تليق بهم في ميدان

القتال، فلا وجود لقبر ولا بعث متكرر في الأنقاب الرطبة للغابة الاستوائية السابقة كما حدث لأسلافهم.

بم تفيد الحماية الناجمة عن التأجيل ، الموت الظاهري للبطء اللانهائي ، قناع الفراء الأبرش باللون الأخضر، ماذا تفيد أسلحة التسامح والصبر عبر آلاف السنين؟ نبحث عند شروق الأيام المشمسة المروعة عن الشقوق وتجاويف الأشجار، نهرب من بقع الغابة الجرداء، نور العقلانية، نور الموضوعية، ارحمنا! ولكنه لا يرحمنا، لايقصدنا نحن، وإنما يتقدم بلا اكتراث للأمام.

(من رواية امرأة في الوسائد - ١٩٩٠)

لا حاجة الآن للتظاهر أو الخجل، فأنا أريد أن أعترف لكم بكل صراحة بأنني أحيانًا لا أتنفس ليلا من الغيظ، وأنني أقفز من فراشي برأس ساخنة عندما أتذكر كيف يغلقون بتفاؤل منطقة موليندورف أو مولينكامب، ماذا كانت تدعي بالضبط، مس من الجنون في جبال الألب، يقضون بنشاط وفساد على المحيط الكبير بينما يقومون بإتلاف أعصابنا _ نحن الحالمين-مكتوفو الأيدى، يقول أحد مديري الودائع" إنه قد حان الوقت لإحداث بعض الحركة في القطيع".
حان وقت السقوط في الهاوية، وهو لايهتم أبدًا بكيفية جمع الأموال، ما يهمه هو السيولة المالية، أن يكون المال قد جُمع بطريقة اقتصادية، وهكذا أشهق أنا بائعة الحُلِيّ المغلوبة على أمرها في طلب نهاية العالم.

(من رواية جسر الشيطان ٢٠٠٠)

في ٢٠٠١/٥/٩ جاءني طلب من رئاسة تحرير القسم الثقافي لإحدى جرائد يوم الأحد الألمانية الكبرى لكتابة مقال من بين سلسلة من المقالات التي سيتم نشرها «على الصفحة الأولى لتخفيف حدة الأخبار السياسية بقيام أحد الكُتَّاب المشهورين بكتابة نص قصير يختص كل مرة بموضوع مختلف يكون محط اهتمام الكاتب، ويفضل أن يكون له علاقة بموضوع من موضوعات الساعة. ويمكن أن يكون النص تعليقًا أدبيًا أو قصصيًا شخصيًا أو مزيجًا من الاثنين ١٦٨٠ حرفا- الأجر (١٠٠٠) ألف مارك.

وكما ذكر: مطلق الحرية في اختيار الموضوع! فماذا كان الموضوع المفضل لدي في ذلك الحين؟ قمت بإرسال النص التالي وبرجاء عدم إحداث أي تعديل فيه بأي حال من الأحوال قبل إبلاغي مسبقًا.

«الأماكن الخلابة

عندما وصلت إلى هامبورج للمرة الأولى وسمعت عن الخطة التي كان قد تم تنحيتها جانبًا لتحويل نهر

الألستر الداخلي إلى موقف مركزي للسيارات، وقد ظننتها نكتة جعلتني أظل أضحك طويلاً، ثم وصل إلى مسامعي لاحقا طلب مشابه أمكن صده وبصعوبة لمخططي المرور في المدينة البلجيكية أوستيندي (Ostende) حيث كانوا يريدون تحويل ميناء اليخوت الموجود بوسط المدينة لنفس الغرض.

والمراد بالطبع في التحويل الجزئي لنهر الألب الضحل بمنطقة الموليندورفر لوخ والمنطقة المحيطة بها لصالح تصنيع الطائرة العملاقة إيرباص ٣٨٠ هو تحقيق ركن «صناعة القيمة المضافة»، وعلى ذلك تعتبر بالطبع مختلف الحجج لمحاولة إنقاذ المشهد الطبيعي برمته مقابل توفير(٤٠٠٠) أربعة آلاف فرصة عمل غير أكيدة مائة بالمائة (وهو من العوامل التي تجعل من ملف مثل ملف صادرات الأسلحة ذاته ملفًا شرعيًا) تجعله نوعًا من أنواع سب الذات الإلهية.

وعلى الرغم من كل ذلك، لا يتم إدراجها هنا حماية لأسعار الأراضي أو الصحة أو البط النادر، بل الحقوق المشكوك فيها لجمال محلي خالص سيتم تخريبه تخريبًا لارجعة فيه. إن الشعر شيء جميل وجيد، ولكنه يبدو هنا في غير مكانه الصحيح؟ بالطبع.. المحميات الطبيعية والجمال هما شيئان غاليان بالنسبة لنا في الأماكن التي لا تسبب فيها إزعاجًا لأحد، وفي تلك الأماكن الجميلة يجب الاهتمام بدعم منا طبعًا ـ بالمباني التاريخية والأماكن

الجميلة الطبيعية الرائعة، وويل لمن يدمر لنا مثل تلك الكنوز الطبيعية أو الثقافية بسبب التزمت. طالبان!! لكن ركن القيمة المضافة هو الساري هنا بالفعل وقد يكون «جنون الخبراء الفنيين التكنوقراطيين» (مجلة دير شبيجل) ولكنه وجه الجد المقدس للحياة.

ولتقرءوا مثلا قصيدة بنزي بابلن (Binsey-Pappeln تم إسقاطها ١٨٧٩ للشاعر الكبير جيرارد مانلي هوبكنز Gerard Manley Hopkins) ! رائع جدا لكن يجب ألا تضعفوا أمام أى شىء!»

في الرابع من يوليو أخبروني بأن رئاسة التحرير رأت هذا النص «مهتمة بدرجة أكثر من اللازم بهامبورج لذا لم يتم نشره، ويسرنا تحويل أجر تعويضى لكم بمبلغ ٥٠٠ خمسمائة مارك على الحساب طرفكم."

(من متعة الحرج Die Lust an der Peinlichkeit: قصص عن المال Geschichten vom Geld.

في : ازدواج المعاني . مقالات وقصص قصيرة - ٢٠٠٢).

الأدب والوُريدة الجميلة

«هل استطعت أنا النظر إلى الضوء عندما كان ساطعًا وإلى القمر عندما كان ماضيًا حتى كاد قلبى أن يدفعنى لإلقاء القبلات إليه بيدى؟» أيوب، باحثًا عن الذنب الذى أدى إلى شقائه يمكن أن يتبرأ من «إثمه» هذا، لكن قبل أن نذعن للجنوح إلى السخرية من شكوك هذا النبى السائل المذكور فى الإنجيل فإنه يجب أن ندرك سريعًا أن قبلات الحب الملتهبة المرسلة باليد سواء إلى الطبيعة الكونية أو الأرضية، إن كان يمكن أن يخاطر بها أحد هذه الأيام، تعتبر خطيئة، وذلك باعتبارها أمرًا محرجًا من الناحية الثقافية والفنية ـ وذلك إن لم نعرضها بانكسار ماكر وتصنع واضح .

ولذلك ثلاثة أسباب على الأقل.. الأول: لا تفسح الطبيعة التى أصبحت فى موقف الدفاع عن نفسها مجالا للنشوة، وكما يعلم كل طفل فإن الغابات الاستوائية فى تناقص، وطبقة الأوزون تتضاءل

بسرعة أكبر كثيرًا مما كان متوقعًا، كما أنه فى خضم الاجراءات التقشفية للدول فإنه يُنظر إلى مطالب حماة البيئة المحلية والدولية باعتبارها رفاهية مكلفة، وينطبق هذا بالطبع بدوره على تنفيذ الحد الأدنى من الإجراءات التى تم الاتفاق على تنفيذها فى قمة البيئة التى عقدت فى ريو دى جانيرو.

الثانى: انتهى بالفعل زمن الطبيعة غير الإنسانية التى ظل الإنسان يغيرها دومًا منذ الأزل، لكن التى لم يقم الزمن بصنعها أو إنتاجها - ذلك إذا ما تركنا طريقة حياتهم الكارثية المتزايدة والتى مازالت منتظرة ومتوقعة مستقبلا - آخذين فى الاعتبار تعاقب وجهات النظر الفلسفية الجمالية عبر القرون فقد ولى زمنها بالفعل منذ أمد بعيد.

الثالث: يلازم الثقة فى وجهات النظر والآراء المباشرة فى زمن المحاكاة والتجارب الثانوية بالدرجة الأولى - حيث تقدم للحواس المبرمجة على ذوق معين بداهة - طلائع الطبيعة المناسبة يلازمها شىء غير عصرى مكروه، بل شىء شبيه بالشباب المتجول الهائم فى الماضى.

لقد انتهى إذًا عهد «مئات الآلاف من الوُريدات الصغيرة» التى تلقى حتفها حسب رأى الشاعر المجهول القديم عندما يحصد روحها القاطع لها فى «الحدائق السماوية» مغزولة فى سجاد ونباتات الأبدية الفائقة التنوع والذى تسكن عليه صورة مريم

العذراء المرسومة فى منحر الورد وحدائق الجنة منذ مايزيد على خمسمائة عام مثلما تسكن عليها الطيور والأزهار.

لقد ولى زمن «جائزة الألوان السماوية ، الأصفر بلون زهور التيليب والأبيض، الأجراس الفضية، الندفات الذهبية». لايهم إن كانت فى هذا الجانب أم فى الجانب الآخر من المنجل أو المحشة التى ستحصدهم لامحالة، بالطبع لن يكون ذلك فى متجر مستلزمات الحديقة، بل على العكس، لكنه سيكون بلا هوادة فى الأدب الذى يُوجِّهه الآخرون.

ولى عصر قصائد جان بول المليئة بالغبطة والدموع والشديدة التركيب التى تعظم الطبيعة، وكذلك قصيدة أيشندورف: «انصت إلى هدير النهر هناك والغابات كأنهم يرغبون فى التحدث معنا ولكنهم بحق لايستطيعون!».

بُعداً لقصيدة الشاعرة أنيتى فون دروستى هولسهوف: «أيها الهدوء العذب، أيتها السكرة العذبة فى العشب الذى تغمره نفحات الخضرة ، سيل عميق، سيل عميق ، غاية فى الثمالة والانتشاء ، وكذلك قصيدة الشاعرة الإغريقية سابفو» ينبثق الغناء الرنان للجدجد من تحت الأجنحة ،تسحر اللظى القابع بعمق فوق الحقول، وإذا كانت الأوهام والهلاوس والمواساة المنبثقة عن الطبيعة والمنظومة فى بيوت شعرية تنفع فقط كتاريخ للعالم يُحكى بحسرة،

كذكريات وقطع أثرية بالمتاحف وتحت رحمة البكاء الطويل على أطلال الأدب ستكون قد ماتت بالفعل، وسيدفن مع الطبيعة إنصافًا للحق الأدب المُهدى إليها، لأنها إن لم تحقق المنشود منها فى الحياة وردود الفعل المطلوبة ستكون قد لفظت أنفاسها الأخيرة.

والقول هنا أسهل من تحمل حدوثه، فكيف يمكن أن نزداد صلابة للعودة مرة أخرى إلى القمر ولأسفو أمام سطور مثل: «كل النجوم التى تدور فى فلك القمر الجميل يجب أن تخفى الشكل والهيئة الساطعة عندما يكون فى أقصى بهائه، عند اكتماله بدرًا حيث يتألق نوره الفضى مشرقًا على الأرض» ؟ ومازال الحديث مستمرًا عن القمر الدائر فى فلك الأرض الذى ـ حسبما نسمع ـ لم يعد كمًا متأثرًا بخطوات رواد الفضاء عليه، ليس كالوصف المذكور فى قصيدة تعود إلى عام ٦٠٠ ق.م. لكن فى قصيدة تعود إلى القرن التاسع عشر : «لقد كانت تلك هى طلعته الممدوحة المشتهاة، جَلِىّ، يعرض نفسه ببساطة، الذى جعلنى اتفتح ورقة تلو الأخرى وفرّق جفون غفوتى جفن تلو الآخر» : قصيدة شروق القمر Mondaufgang للشاعر البليغ المولع العاشق للظواهر الطبيعية جيرارد مانلى هوبكنز وبلغة حادة جافة باردة وإن كانت لاتقل حماسة يراقب أرنو شميدت فى المرايا السوداء، وهى قصة من الخيال العلمى فى زمن ما بعد الحرب العالمية الثالثة والتى ألفها فى القرن العشرين: «القمر هو كالصخرة الأخيرة فى قبة السماء التى أصبحت

مدببة بميل، وقد كانت قدرات المؤلف فى استلهام وصف الطبيعة بالنسبة له بالطبع هو معيار لتقييم الأديب، أما رور فولف فيقول: حاليًا يقف القمر على رأسه بالمقلوب والنبرات الباردة، الانكسار المتفتت الشديد البرودة العالق فى الهواء، وكأن السماء تُمزَّق وتُشق وتُركل برفسة واحدة. وبعد قليل الجانب الآخر من القمر: «ماذا حل به ؟ لقد بدأ بالغناء، بالغناء!» لكن هل انتهى الأمر، كما أسلفنا بالنسبة لغمزات القمر ونشوات الغابة والمروج؟

لقد أصبحت الطبيعة ـ بصرف النظر عن الاختلافات فى تعريفها بالطبيعة الخالقة (الله) أو الطبيعة المخلوقة (الكون) ـ مصطلحًا دقيقًا إذا ما ظننا أنه يتوارى خلفها الاقتراب منها بشدة معياريًا ومن قبيل الصدفة أو إمكانية الابتعاد عنها من الناحية إجمالا، فعلى مدى تتابع العصور تظهر المحاولات الفلسفية والجمالية والعلمية للاستحواذ على فك رموز الطبيعة كمحاولات مستبدة، بل كمحاولات لإقصائها وبترها والتى تتنصل منها الطبيعة دائما، لعدة أسباب أحدها أنه يمكن الاعتماد عليها لأن من سماتها الانتظام فى عدم الاستقرار ويصاحب ذلك ـ إن لزم الأمر ـ مراحل تدمير كونية مقصودة، وهنا يتضح فورًا أنه لا يمكن تلافيها سوى جدلى وإن لم يكن ذلك فى النهاية سوى أداة مساعدة، ومحاولة إنقاذ الطبيعة فى صورة الريف والحيوانات والسياقات التأثيرية المتبادلة يمكن أن تصبح أداة

المقاومة المؤقتة ضد قانون الطبيعة الأكثر قسوة المبرمج لإزالة الطبيعة الأرضية المتغيرة.

وحتى إن اقتصرنا فى التحدث عن الطبيعة باعتبارها هيكلا ملموسًا فإن الأمر لا يخلو من التناقضات، فقد تناولها شعراء سالف الأزمان، ولكن من منهم استطاع ـ بغض النظر عن الحقبة التى ينتمى إليها ـ أن يرى فيها شيئًا واضحًا! ومعرفة أبسط «وُريدة» ستظل دائمًا معرفة جزئية بعيدة كل البعد عن إجمالى المستفزات التى يمكن أن تؤثر فى مجموع الناظرين الذين يمكن أن ينظروا إليها، وهل يمكن اعتبار كلمة المعرفة فى الأدب هى الكلمة الصحيحة؟ بل إن الأمر يدور هنا عن الطبيعة باعتبارها منشِّطا عارضًا فريدًا للصور، إن الطبيعة تحمل فى طياتها الشىء ونقيضه، فهى منظمة وفوضوية، مسرفة ومقتصدة، شهوانية ومتدينة، محدودة بقوانين بدرجة متزايدة مما يجعلها تميل إلى الانحراف والخروج عنها، مباشرة وتتحدث بلغة الإشارة، متزينة، متظاهرة، ويتضح أنها مستودع لذكريات الطفولة، تمثل عزاء ورفضًا، كظاهر خالص وبناء واضح، صانعة للمزاج الحسن ومحطِّمة له، على سبيل المثال بتغيرات طقسية بسيطة، كمتحدثة وصامتة، كقدوة وأداة ردع، فهى تقذف أشكالا محددة وتبقى قريبة من جوهرها، لكنها متعددة المعانى دائمًا وتُحَوِّل من يظن أنه يستطيع وحده السيطرة عليها بوضوح سواء كان بطريقة عملية أم مجردة إلى

أضحوكة، بالطبع يمكن تشكيلها وصياغتها مؤقتًا وجعلها إلهة للانتقام أو جعلها أمًا أو آلة ، حسب الرغبة.

والأمر هنا ليس هو - كما أرى _ توديع الرؤى المستقبلية حول الطبيعة وإنما هو كسب رؤى جديدة، كما هو الحال فى الأدب نفسه، أليس التجاور والتردد السريع للنظرات إلى الطبيعة هو اللائق بها؟ أليس تنوعها اللانهائى، تركيبها وشمولها كطاقة ورياضيات وبناء جمالى وتأثير هو الأقرب لنا؟ لكن ألاّ يجب أن تتعدى جهود الأدب بالنظر لمظاهر الموت والفناء بالنباتات والحيوانات الموجودة فى كوكبنا التراشق بالرؤى المتعددة؟

فلا يكاد يخلو أى برنامج تليفزيونى عن الريف والنباتات والحيوانات فى نهايته من التنويه إلى ما تتعرض له هذه من مخاطر وتتحمل بذلك _ وإن كانت بطريقة آلية مبالغًا فيها أحيانًا- جزءًا مهمًا من المسئولية، خاصة عندما تكون النظرة الفاضلة المتفائلة على الطبيعة بعيدة قليلا عن الخضار غير المشع واللحوم الخالية من الهرمونات وحرية السياحة والحفاظ على تعدد أنواع الحيوانات، يجب أن يستمر الأدب هنا بشطط فى تحديد ذلك الشىء الآخر الذى يتعدى الاستغلال البدائى لها. (يقول أيشندورف» الغابة والغزلان كأن وجودهما لا يزيد عن استخدامهما فى التدفئة والطعام») ، ليس فقط فى

اللعبة العقلانية الهادئة فى إلقاء الضوء على الأشياء وإنما بجدية النظر إلى الأشياء بنظرة لا تخشى المبالغة أو الفزع.

لكن - ما ينساه الجميع كثيرًا - هو أن القمر و«المفاتيح السماوية» لا تُعطى بسهولة هكذا لأى شخص، حتى ملاحظة أبسط زهرة لها سببها وطقوسها السرية، فأكثر الأشياء قربًا للطبيعة - ما يسمى بمعايشة الطبيعة - يسرى عليها مثلما يسرى على الفن جملة سبينوزا: «إن الروعة لشاقة بقدر ما هى نادرة».

(فى: الأدب والوُرَيْدة الجميلة، مقالات- ١٩٩٣).

تم إعادة طبعها فى نسخة معدلة قليلا فى: حيِّل النجمة اللامعة- ٢٠٠٤ .)

الانسلاخ من القشرة الآدمية

الخلوة ورسولها، عن جيرتجن توت سِنت يانس

كانت أجمل فترات ما بعد الظهيرة الصيفية فى مرحلة طفولتى هى تلك الأيام التى كنت أقضيها فى ركن من الحديقة بجانب قطعة أرض بها أنقاض مع كلبنا الصبور «أليكس» وأنا أحاول إعادة تمثيل بعض اللوحات مثل جنوفيڤا فى الغابة والرهبان بالغابات الوعرة أو فى الصوامع، وقد كان كلبى يقوم عادة وبصفة خاصة بتمثيل دور أنثى الأيل أو الأسد.

ومازالت حتى اليوم تتراءى لى صور المهاجرين الفقراء المعاصرين التى كانت تظهر بالجرائد والذين لم يأتوا بالتأكيد بكامل إرادتهم، وكذلك صور نساء ورجال مسنين معهم كلابهم وقططهم وعصافيرهم ، كأنهم شعار للأسرة أوالمدن التى كانوا يقطنونها ، كرموز للأسر والمدن، وهم فى حالة عزلة وتعايش سلمى مع عالم الحيوان الرفيق بحالهم والذين كانوا دومًا حلفاءهم التقليديين.

إن «الحيوان الأليف» الذى وضعه جيرتجن بجانب يوحنا المعمدان وللأنبياء هو على عكس الشخصية المحورية وقدميها حمل رشيق يكاد يكون واقفًا فى وضع يماثل وضع لاعبة الباليه ، و«الخلوة» هى ربوع خضراء تطل على مدينة راقية ، ويوحنا نفسه لا يمكن تخيله كواعظ مُبشّرأو كرجل تولع به النساء بشغف مثلما فعلت معه سالومى لاحقًا مما كانت له عواقبه الوخيمة، فى لوحات جيرتجن هو دائم التواجد كطراز خاص من الرجال وقد كان بطله الدائم، ويتصور البعض أنها صورة الفنان نفسه، ذلك الفنان الهولندى ذو الثمانية وعشرين عامًا الذى توفى حوالى عام ١٤٩٠ والذى لم يعش أبدا فى غابة أو فى صحراء بل قضى حياته كرسام خاص فى وقف طائفة الجوهانيتر الكائن بحى هارلم.

التعليق على اللوحة (جيرتجن توت سنت يانس: يوحنا المعمدان فى الخلوة)

هل يمعن التفكير ؟ صحيح أنه فى القسم العلوى من اللوحة يسند ذراعه على ركبته ويلصق ذقنه ووجنته بكف يده ، وهو الوضع التقليدى للتفكير والتأمل الذى كان يتخذه فالتر فون دير فوجلفايدى Walther von der Vogelweide(*) لكننا لا

(*) ولد حوالي عام ١١٧٠ وتوفي ١٢٣٠ وهو شاعر الماني من اصل نمساوي اشتهر بشعر الحب ثم الشعر الديني ورسمت له لوحة شهيرة وهو يضع يده أسفل ذقنه يفكر ويتأمل. (المترجمة)

نرى ذكـاء يطل من خلف عـينيـه، هل هو نـائم.. أم يراقب.. أم يصلى.. أم يـأسى لحـاله؟ هل هو فى حـالة شـرود ونشـوة خـياليـة؟ لكّن العـينين الناعـسـتين لا تشيران إلى أى نشاط ذهنى أو شعورى بل تدلان على غياب ذهنى غير متأثر بالخمر، إلى فراغ صوفى، إلى متعة غيبوبية مؤقتة بدلا من الذهول والغشية التى ترى الوحدة فى وسط الطبيعة أفضل مكان لها، إنه الوجود الانعزالى الذى لايكمن فقط فى البعد عن العالم بل هو انعزال عن النفس، إنه انغماس مقدس فى الجدب والقحط المفرط والذى تجعله الذات المبجلة تقديسًا فى حد ذاته، وبما أنه الوضع المثالى لحالتى المفضلة فإن جيرتجن لا يرسم يوحنا أو نفسه فقط بل يقصدنى أنا أيضًا بعض الشىء.

والسمات المميزة للمعمدان، بغض النظر عن العينين فى غرقهما العميق فى الطرف الآخر من الجسد المنبوذ، هى الأقدام الخشنة المميزة وهى البناء الدنيوى، والبقايا المتبقية من حياة العمل الشاقة للخدم والعمال الحيارى المنسيين الذين يتسامرون مع بعضهم البعض، لكن لوحة يوحنا لا تقتصر فقط على معالم جسده بل تصل إلى أركان اللوحة الأربعة، فكل ما نراه يعبر عن يوحنا وكل ما نراه ـ بنظرة أكثر اتساعًا ـ هو الطبيعة. وقد تكون القدمان ـ وهى خادمه الوفى ـ قد بدأتا فى التحول إلى جذور متآكلة. العينان هما نقطتان ضئيلتان فى منتصف اللوحة، ولا تزيدان عن كونهما مضيقين أسودين، ثقبين يسهمان

فى الانخـراط فى الغناء ـ هويس ومعبر شخصى ـ بآيات الطبيعة اللحنية المنصهرة والذائبة فى مملكة حالمة من الطحالب والتى تشبَّه بها ذلك الجالس المرتشح بها فى ثوبه البنى بلون جذوع الأشجار ومعطفه الأزرق المختلط باللون الأخضر بحيث يبدو وكأن كل شىء يتنفس فى نفس الإيقاع ، جسده ، الحيوانات المصبوغة باللون البنى ، التلال الزرقاء التى تلوح فى الأفق البعيد والخضراء المرئية عن قرب.

والطبيعة المحيطة به لم تُنتدب لعرض حالته النفسية بل لتوحيد روحه مع أرض فردوسية من الضوء الهادئ الناعم (والتى ـ كما يقولون ـ لم يرسمها فنان آخر فى هولندا هكذا منذ عهد يان فان آيك) مع أوراق الأشجار المزخرفة والمرتفعات المنتشر بها الحيوانات الصافية البال.

دب.. مازال مخدرًا إثر تحوله منذ عهد قريب إلى الديانة المسيحية، إنسان خلال انسلاخه إلى مخلوق طبيعى يدمدم بكلمات تزخر بمدح الرب ؟ إنه بلا شك كائن يشبه الشبح برأسه الغائص فى جسمه ووضعه الجسدى الممهد السوى الذى لا علاقة له بأى مظهر من مظاهر القوة، كقطعة من الصخر، وعلى عكس الظاهر الذى ينم عن سكون سائد تشعر بقوة الترابط بين الإنسان والطبيعة، انتقال وعبور بلا تحفظ، تلاشى الهيئة الساكنة ظاهريًا فى الخلفية الطبيعية

العميقة، فلا يبقى ظاهرًا لنا منه سوى بعض الجلد السافر فى الوجه والأطراف، والملابس لا تؤدى هنا وظيفتها كسمة حضارية بل على الأرجح كفراء يغطيه.

يمكننا قراءة كل هذا دون أخذ المعنى الرمزى فى الاعتبار، ولكنها على الرغم من كل ذلك لوحة دينية حتى وإن كان التدين يلعب دورًا أقل وضوحًا من اللوحة التى تحمل نفس الاسم لمعاصره بوش [1] أو لوحة (صلب المسيح) لماتياس جرونيڤالد[2] المولود بعده بفترة قصيرة والتى يشير فيها يوحنا المعمدان بوضوح إلى مقتل المسيح، لكن يبدو أنه قد غاب عن بال جيرتجن فى رسمه ليوحنا ذلك المخلوق الأبيض الصغير بكل ما يحويه من رمزية مثلما قد غاب عن بال نفسه أيضًا، وفى محاولة للتعويض عن النزعة الدنيوية الغالبة على ورعه الدينى فقد قام الرسام بإضافة الهالة المقدسة على رءوس الحملان والرجل، هل يحمل أفق الطبيعة مثل هذه الهالة المقدسة الواضحة فى الشرق صباحًا وفى الغرب مساء؟

لقد فضل ابن الرب فى الإنجيل أن يمثله حمل وديع على أن يقوم بهذا الدور إنسان وجعل الأرض

---

(١) اسمه جيرونيموس بوش فان آكن ، ولد حوالي عام ١٤٥٠ وتوفي في ٩ أغسطس ١٥١٦ وهو رسام هولندي اشتهر بلوحاته الدينية في القرون الوسطى (المترجمة).

(٢) ولد عام ١٤٧٠ أو ١٤٨٠ وتوفي عام ١٥٢٩. وهو من أشهر الرسامين الألمان وأغلب لوحاته تحمل الطابع الديني المسيحي أو تزين الكنائس الكبيرة بها. (المترجمة).

بمثابة وسادة ناعمة لهذا الحمل، فكل من النبى يسايا ويوحنا فى الصحراء يستخدمان صورًا من الطبيعة عند وصف الاستعدادات التى تتطلبها الروح لاستقبال يسوع المُخلَّص. فهى يجب أن تتحول كما وُصِفَت فى الإنجيل ونحن نشاهد يوحنا هنا أثناء ذلك التحول.

العقل والروح يحتاجان إلى مظاهر وقوالب الطبيعة لكى تتراءى واضحة لنفسها باستخدام التشبيهات، فالطبيعة لاتحتاجنا لكى تصبح ميتافيزيقية ، بل نحن الذين نحتاج إليها. ولنغنم منها التشبيهات والاستعارات أيضًا.

(فى: الخلوة ورسولها. عن الإنسان والصور. ١٩٩٦)

مستلقية على ظهرى على حافة الحقول اليانعة، أرى فى قبة السماء النهايات الجديدة للقرى القديمة فى عالم بدون أوراق لكنه رقيق عذب من الظلام، لا شىء آخر بين السماء والأرض سوى هذا الضوء المعتم، إنها فقط القنابر، غير مرئية بإضافاتها الصغيرة، ومع تزايد الإضافة الحاسمة تنمو القنابر، تعلو الأصوات من داخل الحقول والمزارع وتزدهر منها وأنا معها، صرخة قنبر من حنجرتى، وأنا شفافة غير مرئية أتخلل الضباب المشمس، محتضنة الأرض فى هذا العالم الواقف فى هدوء، الذى يرتفع، يقترب من بداية السماء الشاسعة بأصواتنا، بصراخنا ، صراخ العصافير وصراخى ، نحن نرفع الأرض بقوة لأعلى، تقف على عواميد من الدخان لبرهة، الأرض.. الخط الأفقى البعيد.. السهول ترتفع بنا ومعنا، يجب أن نجرفها معنا، لاهدف لنا سواها، لاشىء آخر يدفعنا ويسيطر علينا، إنها المتعة التى تبتلع بلا معنى كل القوى، والرغبة فى زحزحة الطبيعة قليلا عن مكانها بلا شىء سوى الصخب.

منحدر للسكة الحديد زاخر بالسُعد الجاف والرياح والشجيرات البرية ونبات القراص تحيط به رائحة القضبان، إنه أيضًا مكان لبناء العش تحت أبواب السماء المفتوحة والتى سأنخرط فيه مع الألوان الصدئة للأعشاب والشجيرات الذابلة حيث أستطيع أن أتحول بالذهاب إليه أخيرًا، أن أستبدَل فيه مع شىء آخر والتى أنسلخ فيها من القشرة الآدمية، ويظهر ويتضح أنه ليس بإنسان.

(من رواية امرأة فى الوسائد- ١٩٩٠).

أما الآن فإنها فرحة الثقة بالنصر بعدم الانتماء إليهم ثانية، لافزع ولا تطاير لجسر جوى مفاجئ من الرمال المتناثرة، كيف أداروا ظهورهم للإنسان دون الإمعان طويلا فى الاستماع إلى إشارة الاستغاثة، تحرر من نفسه، تخلص من حيرة فترات النهار وآلام الرأس وضربات القدر! كيف يطيرون بكل هدوء عبر سطح البحر! أما النصر الذى تملّك الكونتيسة بكل هذه القوة الذى تستطيع الآن - متذكرة بدايته - الإفصاح عنه فاسمه: إننى لست إنسانة.

إننى لست إنسانة.. تهمس الكونتيسة فى أذن الطبيعة الصامتة فى صورة الرجل القوى البنيان إننى لست إنسانة! إنها تود أن تقفز لأعلى لفرط تأثرها بعد سنوات النسيان الطويلة.. لا، فى الحقيقة لم تكن أبدًا منهم! وفى الضوء الساطع لهذا الإدراك تذبل آخر بقايا التخفى وتسقط عنها عباءة ارتداء ثوب وقالب الإنسان، لا وجه للشبه بينها وبين هذا

الجنس.. لا أبوان ولا سن ولا فكر، لقد كانت مستطلعة فى وسطهم ليس إلاّ. لقد تركت الأمر وراءها، لقد تحررت من رائحة وزىٍّ ما هو آدمى.. من سيطرة ونفوذ شبح الجسد.. من المتعة المريبة لما هو ملموس.. طائر يضع صيده فى الماء، سمكة تقفز، موجة فائرة، نيران متوهجة، لقد كانت أقرب إلى كل ذلك وهو ماستكون عليه، تبحث بشغف عن وطن أكثر مما تبحث عن إنسان.

نيران متوهجة، تم اكتشافها ـ فى عمق التنكر ـ ذات مرة، لقد كانت هناك لأول مرة أعين رفضت أن تضللها الصورالنسخية، لقد كان ذلك أكبر خطرًا.. أعظم ألمًا.. أقسى حميمية لحياتها السريعة المحلقة، هذا الرجل الذى بعثرته الرياح منذ زمن بعيد، الذى شعر قلبه أكثر من غيره بأنها لم تكن واحدة منهم، الذى لم يرتد بصره عنها، حتى كشفت له نفسها، حتى باح مبتسمًا وبلا تردد أوتذبذب ما أخفته بخوف وقلق عن نفسها.

يبدو القارب الصغير وهو يتقاذف عبر صفحة الماء، قد لايتحركون من موضعهم ولكن لابد أن يكون طنينًا وانطلاقًا لمسافات هائلة، لكن الرجل القوى البنيان لا يحتاج لأن يحرك ساكنًا فالسرعة تأتى فقط من قوة السحر.. من الكهرباء.. من المحرك الثائر المندفع للكونتيسة، هنا حيث تجلس الروح عند الآخرين.

مازالت مزجوجة فى سجن الهيئة الآدمية المهلهل، لقد كان شيئًا غريبًا شبيهًا بشكل كبير بهذا الانطلاق الجنونى والهروب السريع فى أضيق مكان.

تشعر الكونتيسة بتوقف القارب أعلى سطح الكميات الهائلة من المياه، على الطبقات والمناطق، وتتراكم فوقها طبقات وحدود الهواء، قد يكون القارب قد توقف حقًا فى وسط النجوم، متهاديًا بين المسافات من شمس الليل إلى شمس الليل الأخرى، بالتأكيد لم يخدعها شعورها أبدًا، وليكن الأمر كما يكون، فهو يدور كله فى المكان الضيق للقارب الصغير والمسافة الهائلة للبحر، بين التهادى السلمى والإنهاك فى الاندفاع للأمام.

هل امتلكت يومًا لحمًا يكفيها للاستمتاع بملذات الجسد كما يقولون؟ هل كان لديها ما يكفى من الجَّلدَ والأعصاب الذى يساعدها - يقيدها المربع المسمى الفراش - لكى تنطلق مسرعة وهى تندفع للأمام، وبمجرد وصولها إلى هذه النقطة يتضح أنها دائرة لم تمس سوى حدودها، التى انطلقت منها إلى المركز الأكثر ارتفاعًا، من هناك مباشرة إلى عمق إرهاق مولع لا مكان به لأى التقاط للأنفاس، وبمجرد الوصول إلى حدودها يبدأ الصدام فى التو واللحظة بالعالم الخارجى المتحرك النشط الظاهر بلا كلل أو ملل، ولكن إذا ما وصلت يومًا إلى حدوده فإنك

تصطدم فى نفس اللحظة بهذا العالم الخارجى المضطرب والذى يظهر لك بلا هوادة. لكن الإشباع الجسدى، إشباع الحب كما يلقبونه، هذا الذى قد ينتهى بصرخة، تقول الكونتيسة لنفسها بفرحة وبنظرة حادة ثاقبة لم يسبق لها مثيل ـ ألن تكون النجوم بعدها أكثر سطوعًا وأكبر حجمًا وأكثر صلابة وعددا؟ لكن غيبوبة الوصول إلى الإشباع التى يصل صراخها عنان السماء (يجب عليهم أن يصفوا ذلك فى مدنهم وعلى شواطئهم كما يريدون) قد تكون.. قد تكون ـ وهذا ما تبوح به لنفسها ـ على سبيل المجاملة، وهى تعرف أنها على حق فى ظنها هذا، إنها لا تزيد عن كونها عائقا مانعاً، حفرة من المياه أو نقابًا لا يمكن رفعه أمام معرفة متدفقة جارفة، ألا تعرقل البلبلة والاضطراب الرحيم ما يسمى بهذه النشوة الهائلة، أن تعصف بالمرء ذاهبة به بهذا التيقن الماجن المتحرك إلى هذا النفق الأبيض الناصع مارًا بالظواهر المطوية مارقا إلى الأبدية؟

النجوم أصبحت أكثر بريقًا وقسوة وبرودة و أكثر ارتفاعًا، وسطح الماء المظلم يتداخل ويتلاشى فى الهواء، والكونتيسة يضم ويحتضن جذعها بقوة سور من الأفخاذ الملموسة للرجل، وأسفلها بقليل هذا السريان الجارى مع النهر ـ تنظر إلى نفسها وتراه كتحول تم تدبيره بعناية قد تأخر كثيرًا وحان وقته منذ زمن، وتنسى أنها قدماها تلك التى أصبحت متفرعة إلى ساقين، إنها تنظر إليها الآن على أنه أمر

بديهى وهو كل ما تتذكره من الإحساس المثير ولكنه غير مفهوم للزمن الذى ولّى.

لقد كان يمكن أن يداهمها أثناء جلوسها الهادئ فى أمسية ربيعية متأرجحة على سور بارد فى الحديقة فى كرسى بحر طويل تحت أعين السياحين والغطاسين وصائدى السمك والمتنزهين وآكلى الآيس كريم غير العارفين بشىء، وإن كانوا قد أدركوا القصد من ذلك كانوا سيصفونه برجفة شهوانية غامضة، فقد كان على الكونتيسة إبداء قبولها بإيماءة سكرى. لكن ما حدث حينئذ، سواء بوازع من الشمس أو بدافع من نسمة هواء مباشرة جدا كان شيئًا متراقصًا فى داخلها هى انثناء غريب، بدءًا من الأرداف تقريبًا وانحدارًا لأسفل الجسد، ألم يذوب من هذا الارتفاع تقريبا لأسفل، بيد أنه فى الوقت نفسه لم يتكون سوى من هذا الإحساس الزلق ، المبتعد فى انحناء، دون إعطاء أهمية لأى شىء آخر؟ بقيت الكونتيسة ساكنة فى مكانها بلا حراك ساعية لعدم لفت الأنظار ولم يكن بوسعها تصور ما هو أفضل من ذلك الذى يحدث الآن: الفقدان الظاهر لخطوط الأنوثة أسفل مستوى السُرَّة لصالح تقلب ودوران، واهتزاز وتأرجح كأنه مكون من قطعة واحدة نشطة، حركة تشبه حركة السوط، انطلاق خلال صفحات المياه ذات بطن فضية تتلألأ باللون الأخضر تحك نفسها وتتدافع بشهوة عبر كل موجة، أثناء ذلك بقيت مكانها دون حراك، قدماها متقاطعتان فى منطقة الكاحلين بحيث تشير أطراف القدمين مفترقة وللخارج.

وفى وقت ما، أمام الزمن الذائب فجأة كالعدم، غادرت المياه، زاحفة لزجة، لفرط المجون أو الشوق الذى لا يقهر إلى الجانب الآخر المزدحم بالمخلوقات الهشة المتحجرة، بعد ذلك وجب ارتداء جلد دائم الصلابة، من الآن فصاعدًا أصبحت معرضة للكمات القبضة وضربات البلطة، لضوء يكاد يكون غير مصفٍ، وما هو أسوأ من ذلك ـ حلول وانقضاض المشاعر الإنسانية عليها، لقد وقعت أسيرة داخل الدرع المحكم الإغلاق فى هيئة ما وإن كانت فى الواقع لم تخرج أبدا من ساعة الاستغناء عنها التى تركها فيها الطمى والأمواج المتلاطمة تلقى الجراح والجماح، ألم تكن تشعر أبدًا ـ دون أن تدرى ـ بالامتصاص والجذب الرقيق للوامس الحيات وأفواه البحر فى جسدها وأن تسمع فى اقترابها منه الصرخات المعقدة بالتحفظات والشروط للتلقيح وللعودة والغرق فى طبقات الصخور الجارية وفى الثنايا والبحر الطائش؟

لقد حان الوقت لكى تلبى النداء، لأن الجلد يكاد أن يكف عن المقاومة ، فلتعود.. فلتعود إلى ملجأها وملاذها.. الشرطى رجل القارب الصامت خلفها هو المُرسَل إليها لإعادة هذه العاصية.

لقد أصبحت دعامة، عصا عجفاء بين الناس.. أضحوكة وعمود، إنها المحاولة اليائسة: الدلالة الوحيدة الفعالة والمتغلغلة بأنها كانت غريبة، متاع ضخم مثير للاستنكار فى الأرض التى تم قياسها بدقة.

الكونتيسة هى إحدى تلك المخلوقات ذات الذيل السمكى والتى تقع من ثنية الماء، ثم تقف بطول قامتها المعقد غير المناسب لمثل هذه الإنجازات حتى تعود فى النهاية _ بقناعتها بعدم جدواها هى نفسها أو جدوى هذا العالم _ إلى القاع المعتم.

(من رواية: امرأة فى الوسائد- ١٩٩٠).

المـرج

«هذا الرجل، لم أعد أستطيع »، همست السيدة من داخل جسدها الشاسع المترامى دون أن يسألها أحد والتى كانت تجلس قبالتى فى عنبر الانتظار الصغير ـ لا يسعنى تسميته باسم آخر ـ «لا أستطيع تحمله أكثر من ذلك". إنه يتحدث منذ ساعة عن أمراضه، كل واحد منا يعانى الآلاف منها فى كل مكان، بأعلى وأسفل، فى الأمام وفى الخلف، من شعر رأسى إلى أخمص القدمين ـ انظروا إلىّ، إننى أعانى من زيادة فى الوزن، يا للعنة ـ ماذا عسانى آكل، هلا يُسمح لى بتناول أى شىء، أعانى حساسية من كل التوابل، من الملح والفلفل وجوز الطيب والخردل، ضد كل نوع من أنواع التوابل، الجلد فى المكان الذى يخرج منه كل شىء مجروح، مكوى ومحروق، هل يمكنكم تصور ذلك؟ قضاء فترة ما قبل الظهر وفترة الظهيرة هنا، أما الكارى وفلفل البابريكا والفوندور، لاشىء منها! لا أستطيع الجلوس.. لا أستطيع الجلوس، لا أستطيع الجلوس! هذه ليست دهون، إنها استعداد

طبيعى، مرض، لقد تنبأوا لى بأننى سأكون جالسة على كرسى متحرك، لن ينفعنى شىء، أربعة متخصصين لا يستطيعون مساعدتى فظهرى تالف تمامًا، إننى أتحرك أقل مما يجب، أغسل الصحون وأنا جالسة، وهذا هو السبب فى تراكم الدهون، لكن كيف لى أن أتحرك وهذه الأثقال حول عظامى تثقل حركتى؟ بالإضافة إلى هذا الرجل، سوف يصاب بالعمى لأنه يعانى من مرض السكر. إننى أعرف ذلك، أعرف ذلك عن مرضه وما عداه، أعرف كل شىء عن أسره فى الحرب، يا إلهى.. يا إلهى! لقد عاد عام ١٩٥٥ كواحد من آخر الأسرى من المراعى الروسية، منطقة جميلة ، فأنا أعرف كل شىء عن ظهر قلب، لقد كان من مشاة المدرعات، الذين حُبسوا لفترة إضافية، وماذا بعد! ما جدوى ذلك اليوم! فلنحسب الوقت الطويل الذى قد مر على ذلك! ثم عاوده المرض، هذا الرجل يصيبنى بالمرض، سيقان سمينة.. أصابع سمينة.. قفا سمين.. ومقعدة سمينة، أنسى بسهولة الأشخاص.. كل شىء، وذلك يصيبنى بالمرارة والسخط وأكرهه لكننى أستطيع وبسهولة أن أنحى كل شىء جانبًا، حتى الأصدقاء! إنه لشىء مؤسف.. مخيف! لماذا يموت الجميع بهذه السرعة، كانوا موجودين ثم تلاشوا، ما قيمة كل شىء إذًا؟ من الأفضل نسيان كل شىء !فلا مصلحة للضرائب ولا إدارة للمعاشات، ولا ورقة انتخاب ولا إسهال ولا إمساك.. أنا نفسى، وهذا كان سيكون أفضل شىء، حقيقة أود أن أكون غير مرئية، أذهب وأختفى بسهولة من الساحة، حبة لقاح صغيرة، يالها من روعة، مجرد

نفحة، يالحسن الحظ. ألا أكون هنا، ألا أعد موجودة هنا.. مختفية ومنسية، لكن ما أزال أحيا، إننى أتوق بهوس إلى مروج شهر يونيو، أعشاب مرتفعة، العيدان غير المقصوصة كما تزهر وترتجف وتتحرك وكما تتدفع ككميات هائلة من المياه، وفجأة تتحرك فى دوائر كجزر صغيرة، تتأرجح وتتمايل فى المرج فى الهواء، ذلك الشكل الضبابى والهيئة الرغوية الخفيفة، هل الشمس مسئولة عن ذلك.. الإزهار.. المطر.. لا أدرى! العشب المتشابك والعشب اللامع، العشب الصوفى والعشب المشطى وعشب المروج وفى الوقت نفسه : لاشىء يهم ، الأسماء فلا أسماء، كلها مروج، تقترب من حواف الغابات، من الأفضل أن تكون السماء معتمة، ربما. هذا أجمل شىء بالنسبة لى، أنظر إليه فينشرح قلبى أيما انشراح، وأصيرُ صغيرة، متناهية فى الصغر، نحيفة ونحيلة وخيط ثم.. ثم بعد ذلك اختفى ولاتبقى سوى المروج المتماوجة لأعلى، لأعلى كثيرًا، المتهادية المتأرجحة، سكرى، لكن لا أثر لى، لقد استولت علىّ، انتشرت وفاضت، تلبستنى من فوق رأسى وأصبحت أخيرًا من أريد أن أكون.. هل تعرفوننى؟ كيف أهذى بالسخافات وأتهامس مع أعواد من مروج الدهون ومراعى الدهون والمروج الرطبة، لكننى ألغو بالحديث وأهمس هكذا مع نفسى.. هكذا مع نفسى."

(فى: المروج، حكايات، ١٩٩٣, تم إعادة طباعتها فى: حيَل الفنانة اللامعة - ٢٠٠٤)

(١٣)

ملاحظات على طريق الكبر

نساء فيما بينهن

أفضلهن فى هيئتهن كفتيات صغيرات عندما يمرحن بنحافة وإقبال عبر الشاطئ وينبحن أصواتهن من فرط الشقاوة، وثانى حال أفضلهن عليه هو عندما يصبحن نساء مسنات وإن كن ـ للأسف لأسباب أمنية ـ لا يعارضن إجراءات مثل قانون التنصت الكبير ، وإن كن يعترضن بشدة على ائتلاف حاكم من حزب الخضر والحزب الاجتماعى الديمقراطى ـ باستثناء ذلك فهن يشبهن الفتيات الصغيرات بدرجة كبيرة، فأجسامهن عبارة عن جلد وعظم ويملن كثيرًا للدعابة ولا يسيطرن كليًا على أحبالهن الصوتية كما يتصفن بقلة التركيز.

تجلس الاثنتان فى القطار السريع ICE الذى يقطع المسافة من هامبورج إلى مانهايم ، تبلغان

التاسعة والسبعين والثالثة والثمانين من العمر، شعرهما مملوء بالهواء مشعث كالثلج، وكأن هناك مَن وضع فوق رأسيهما ملعقة كبيرة من زلال البيض المخفوق.

تتحدثان لردح من الزمن - لقد أصبحتا بعيدتين قليلا عن مجريات الأمور لذا لم تعدا قادرتين على تقدير درجة الصوت المناسبة للجلوس فى عربة القطار الكبيرة _ عن قيامهما بحساب مخزون الطعام لديهما على أدق وجه وحتى آخر لقمة كانت كافية لتناول طعام الإفطار قبل السفر ثم تنتقلان بنفس الحماس إلى طرق طهى التوفو (*) ، ثم إلى المعاشات الجيدة التى تركها لهما زوجاهما العزيزان ، كأرملتين.

إنه العالم الذى أصبح صغيرًا للسيدات المسنات الواهنات.

ولكنَّ هاتين السيدتين لستا ضعيفتين بهذه الدرجة، تأتى سيدة شقراء بصحبة طفل أسمر اللون وتسير عبر الممر، لقد أكمل الممثل الألمانى الشهير كارل هاينتس بوم السبعين من عمره، وهو متزوج فى خامس زيجة له من سيدة أثيوبية ، كما أنه فى أول حملة لجمع التبرعات من أجل إفريقيا - ياللروعة ! _ استطاع جمع مليونى مارك فورًا، تُرى هل يستطيع الإفريقى من خدمة البوفيه أن يعد لهما ليمونادة ساخنة؟

(*) التوفو هو خليط من فول الصويا الغني بالزلال.

فى الحقيقة هما مازالتا قويتى البنيان، وتريدان بأية حال القيام برحلة إلى بودابست مرة أخرى.

وعلى العموم تشعران بالفرحة للمبادرات السارية حاليًا ضد المستثمرين فى شرق ألمانيا لإنقاذ محميات طبيعية وإنشاء أخرى، ولا اعتراض على السيد جيزى (من حزب الاشتراكية الألمانية) على الإطلاق، ليس من ثمة اعتراض! ولكن عليه الاعتراف بماضيه فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة _ لكن الموقف اشتعل حقًا منذ يومين، قد يكون الرجل قد جازف بعمله، عندما عرض فيلما وثائقيا عن تأمين رعاية المُسنين، لقد تم عرض كل شئ بصراحة وبلا هوادة، عُرضت المراحل الأخيرة لحالات من المسنين الذين توضع لهم أنابيب التغذية بالمعدة، ويعانون من الهذيان التام، كيف يمكن رعايتهم مع كل إجراءات التقشف هذه! لقد جازف بعمله، نعم! لكن من ذا الذى يسعه مواساة كل هؤلاء المهمومين والحزانى!

بمناسبة ذكر الألم.. سيقومون بعرض "آلام القديس ماتيوس" فى كنيسة ميشل بهامبورج بقيادة قائد جديد للموسيقى الكنائسية وكذلك موسيقى صلاة الجنازة الألمانية "لبرامز.. لا يهم، فكورال كنيسة ميشل يستطيع غناء الاثنين بالتأكيد منذ زمن بعيد.

بالطبع ـ كانت إحداهما تتحدث بلهجة مدينة هامبورج والأخرى بلكنة مدينة كولونيا، من يريد

استثمار ماله يريد أن يرى نصيبه من الأرباح، وأن تكون خسائره قليلة على الأقل، هل يجب البحث عن محام لهذا الغرض؟ تشربان شايًا بالليمون كحل وسط وتلقيان نظرة على الجرائد التى جلبتاها معهما، أرى أمامى رواية فيكتور بيليفين حياة الحشرات، لقد اكتشفت السيدتان توًا عرضًا رائعًا لا يقاوم فى مهرجان بريجينتس الموسيقى، يالروعة الموسيقى هناك..! ياه، كم كنا سنود ... نعم.. ولما لا !

«سنلغى سيدتى الجميلة.. اتصلى بالسيدة روست، سنترك موضوع برلين هذا. فلنجعلها تلغى الحجز الخاص بحضور العرض فى قاعة فريدريخ بالاست، سنقول إننا اضطررنا إلى السفر للخارج لوجود التزامات لنا هناك» - «سأثبت جهاز السمع الخاص بى على أعلى درجة حتى يتم الموضوع هناك فى بريجنتس».

أشعر بأننى عجوز قليلا أثناء محاولتى التعمق فى آفاق الخنافس البلفينية، بالجوار يحاول البعض تسلق جبال الخمسة آلاف.. لكن يمكن اعتبار السيدة من كولون بحق ممن قد طافوا جميع أرجاء العالم، ولكنها تعترض مداعبة بأنها لم تزر أستراليا بعد.

تطلبان القهوة بعد ذلك! وقبل تقديمها لهما تبدءان فى الشعور بالتعب، وتتذكران مثقلتى الجفنين التدابير المالية لمن تسمى بروتخن أو موتخن المولودة فى عام ١٨٧٠، وبإرهاق متزايد تتحدثان عن كم زهورهما

الملونة التى تزهر بجنون، كل واحدة منها بها (٢٢) زهرة، والآن بعد مرور ساعتين على بداية الرحلة تبدءان فى طرق الموضوع ـ بعد وصولهما لأقصى درجة من درجات الإعياء ـ فى التحدث لمدة دقيقة واحدة عن (ليس موضوع أمراضهما ، فقط) أدويتهما الخاصة، لكن لننحِ ذلك جانبا . فقد جاءت القهوة!

(من: يوميات ادبية. عمود مجلة عالم الأسبوع Weltwoche، مايو ١٩٩٧ ـ إبريل ,١٩٩٨ فى: ازدواج المعانى. مقالات وقصص قصيرة- ٢٠٠٣).

مفاجأة المطربة

أرملة منذ ثماني سنوات كانت تعمل مطربة على خشبات المسارح المحلية والريفية قبل الحرب العالمية الثانية وتسكن الآن في بيت للمسنين لا تغادره إلا بصعوبة وبخوف متزايد لإنجاز بعض المهام البسيطة، تم اصطحابها قريبًا ولأول مرة منذ عهد بعيد في عيد ميلادها التاسع والسبعين من شقتها في الجانب الشرقي من هامبورج إلى محطة القطارات الرئيسية وإلى وسط المدينة.

«يجب أن أفرح»، هذا ما قالته السيدة لنفسها وهي في طريقها إلى الترام، «أن أشعر بالفرح فقط»، قالته بتعجب، وهي ترى الشمس التي أشرقت متأخرًا في فصل الشتاء على صف النوافذ العليا للمنازل وعلى الأسوار التي تبدو مرنة، لم تعد تثق بأنها تستطيع الاستغراق في متعة النظر إلى إشراقة الصباح اليومية في هذا المكان المرتفع حتى وإن كانت ـ وقد أحست بذلك ـ ملامحها قد ظلت جامدة، وهناك أمر آخر،

عنابر صناعة العدد، الورش فى الأفنية الخلفية، إنها ليست مصانع حقيقية، لقد تذكرت مثيلاتها التى كانت تعرفها سابقًا ذات ألواح النوافذ المغطاة بسواد المصانع والضوء الظاهر من خلف الزجاج شبه المعتم حتى ليخيل لك أنهم ينتجون شيئًا عظيما لأمر يتسم بالسرية التامة.

فى محطة القطارات الرئيسية نجحت حفيدتها دون المساس بهما فى شق طريقهما إلى السلم المتحرك باختراق زحام الأجساد، كلهم فى حركة متأرجحة متماوجة، وكلما فاقت هنا رأس إحدى الرءوس الأخرى لبرهة ظنت هذه السيدة أنها قد تعرفت على شخص ما أو أن شخصًا قد عرفها، لكنه كان ذهولا مقبولا ومتناهيًا فى الصغر كل مرة فى الأعلى، على الشرفة، هناك، بالمكان الذى تؤدى إليه السلالم المتحركة، كان يقف رجال شبان ذوو مؤخرات مشدودة وهم يستندون إلى القضبان، وهؤلاء الصاعدون إليهم يقدرونهم حق قدرهم. بالطبع، لقد كانت تعلم أنهم بائعو الهوى.. بائعو الهوى المدمنون من الفتيان!

لقد أحكمت قبضتها بسور الشرفة وأحست بأنها بدأت - وإن كاد يكون رغما عنها - تصدر عنها ابتسامة، وأن قسمات وجهها قد انفرجت وهو شىء نادر الحدوث، وبصوت يئن بضعف يغلب عليه شعور فياض كانت تتنفس شهيقا وزفيرا ولم تقل شيئا

لحفيدتها وإن قالت لنفسها: «آه ! إنها الحياة المفعمة»!

لقد كان يعجبها أن تراقب الناس من مكان ثابت ناظرة لأسفل إلى أرصفة المحطة وخلال صعودهم المائل على السلالم، بأعين أرهِقَت فجأة على غير عادتها وإن كان يطيب لها ويثلج صدرها، أو أن تشعر بهم من خلال طرفى عينيها، تلك الحشود السريعة الخفيفة الحركة التى كانت تمر بتدافع من جانبها باتجاه المخارج.. وتمتمت بفرح: «إنها بابل حقيقية!»، لقد كان أفضل ما بها هو سرعتها المدهشة، لقد كانوا يأتون من هنا ويذهبون إلى هناك ولم يكن عددهم ليتضاءل أبدًا.. «تُرى ما المدة التى سيلبثون فيها على قيد الحياة ! مرحى للسنوات العديدة التى سيقضونها على قيد الحياة !» قالتها بحماسة، لقد كانوا فى مجملهم مفعمين، مفعمين بالقوة وبالغرور! يكاد المرء يشم رائحتهما، لقد كانت الحشود تتحرك كمن تلقت أمرا، كأن هناك من أرسلها وأصدر لها الأوامر، لقد كان لكل واحد منهم ما يجب عليه إنجازه.

الحفيدة، التى مازالت أمامها عشرات السنوات من العمر المديد، أمسكت بذراعها بعزم أكبر وبدأتا الآن فى الانسياب معًا على أفضل وجه ممكن بين ومع الآخرين باتجاه أحد الاتجاهين إلى الأمام، هُيِّء للسيدة أن شيئا ينهمر نحوها على شكل قطرات خفيفة ولؤلؤية رقيقة من حبيبات المطر أو فى صورة

تصفيق حاد لا يهدأ، وإن كان يزيد وفى أحيان أخرى دون أن يتوقف ـ يهدأ صوته قليلا.

لكن فى موضعين أو ثلاثة لم تكن هناك حركة، بغير تأثر، واقفين على انفراد كى يبرزوا من بين المتدافعين والمهرولين، فى خلود وقد يكون فى عدم تأثر أو فى مُقاومة للأسراب وكأنهم قلعة بشرية وتمثال مزدوج متجمد فى مكانه: إنهم شهود «ياهو»(*). لقد بقوا على حالهم المعهود، لم يتغيروا ولم يتبدلوا ولا يمكن زحزحتهم عن مكانهم بأى ثمن، من الرائع أنهم لم يذهبوا فى طى النسيان وأنهم كانوا يشاركون فى الأحداث بالإمساك الرمزى بجريدتهم على مستوى صدورهم، إنهم يماثلون برجًا شاهقًا أو صخرة ثابتة بين الأمواج المتلاطمة، حتى وإن كان من المستحيل حفظ وجوههم ـ على الرغم من أنهم هم فقط دون الآخرين واقفون بلا حراك.

لم تتعرف على أحد حتى الآن ولم يشعر أحد بوجودها، ولكن ألا تستمران فى السباحة مع الجميع إلى الأمام بكثير من التوقعات على الرغم من اضطرارهما للتباطؤ؟ وقد جُرفت إلى القاعة الكبرى بمساندة قريبتها اللطيفة هذه، لقد تغير الكثير بطريقة تثير الحيرة وتبعث على البلبلة، كانت ستعانى كثيرًا لو كانت بمفردها.. لكن هكذا ؟ قالت بصوت

(*) يهوي أو ياهو هو اسم الله فى العهد القديم وهم طائفة من اليهود.. (المترجمة).

مرتفع : «الحمد لله». لكن الحفيدة لم تسألها لماذا؟ وتدفقتا عبر القاعة الشاسعة المكتظة بالبشر مع قريبتها الشابة، وتمنت الوصول سليمة وبلا إصابات إلى حيث ضوء الشمس.

من أحد الجوانب سمعت فجأة ما يشبه العزف على آلة الهارمونيكا، سمعت أغنية «الليلة الزرقاء، أيتها الليلة الزرقاء فى الميناء». أم ليست هى؟ لم تنفذ إليها سوى أجزاء منها ، لا إنها هى بالتأكيد، لقد كانت هى أغنية «الليلة الزرقاء» التى تعرفها من قديم! للترنم بالأغنية أو ربما لغنائها؟ ولكن العزف كان قد انتهى بالفعل.

أم لم تعد أذناها تعمل جيدًا؟ وهل كان الآخرون يمشون بخفة وسرعة فقط لأن ساقيها غير النافعتين جعلتاها لا تستطيع التحرك إلا بصعوبة؟ لقد نهبت السنوات صحتها وأنهت عليها فأصبحت لا تملك قوت يومها، هل كانت أغنية «الليلة الزرقاء» هى حقًا التى كانت تعزفها آلة الهارمونيكا؟ لقد فقدت بعضًا من قوة ذاكرتها ـ اضطرت لتركها، كل شهر كانت يُنهب منها جزءًا، ولكن فى هذه اللحظة كانت تُدفع خارج القاعة سواء شاءت أم أبت، لم تكن الحشود بالخارج لتنتهى، إنه سيل من البشر الجارف.

إن ما رأته الآن جعلها تُكوِّر بخفة قبضة يدها اليمنى فى جيب معطفها، رجال ذوو ذقون نابتة وإن كانوا - حسب ما استطلعته أثناء مرورها بهم برفقة

حفيدتها - يرتدون ملابس جيدة ودافئة، جالسين على الأرض ملتصقين بالجدار الخارجى لمبنى المحطة، كان أحدهم جالسًا على مرتبة والآخر قد أشعل بعض الشموع التى وضعها حوله فى فترة ماقبل الظهيرة فى مكان يقيها من الانطفاء، قالت:" أيهاالاخوة النيام، منذ زمن بعيد ! ها أنتم ها هنا!!".

كانت هذه السيدة فى عيد مولدها التاسع والسبعين - سيكون الاحتفال بعيد ميلادها الثمانين أكبر بالطبع - على وشك الحصول على هديتها وهى التجول فى المدينة بصحبة حفيدتها.

لكنها كانت تريد منح نفسها هدية ثانية، وإن لم تبح بخطتها لأحد.. إنه أمر قد يدعو للسخرية، كانت تعرف ذلك وتتوق إليه، وسوف تطيل هذا الأمر قدر استطاعتها. وقد تذكرت هذا الأمر للتو، بعد سير ودوران المشاة والمارة حولها، بينما لا تزال تضع قبضتها الضعيفة المنكمشة فى جيبها.

أما الآن فقد بدأ الطريق إلى وسط المدينة الحقيقى، على الرغم من أن السيدة التى كانت بصحبة مرافقتها كان عليها أن تخطو كل خطوة بنفسها و بجهد كبير وبموافقة إشارات المرور إلى وسط المدينة الحقيقى، فى مأمن بين الجمع الكبير وفى عزلة عنهم فى بعض الأحيان، لقد خرجت هذه السيدة العجوز ناسية نفسها بحق مع الأجساد الكثيرة، إنه سير بلا هدف، فقد تركت نفسها لهم إلى

حيث سيسيرون ويصل بها الطريق على أمل ألا تُنسَى هناك، لقد كانت موافقة على كل شيء، لو استطاعت فقط أن تلتقط أنفاسها وألا تُطرح أرضاً وأن تسير لاحقًا باتجاه العودة إلى مسكنها وظلت متفائلة بهذا الصدد على الرغم من ساقيها الشريرتين السيئتين تلك.

لقد شعرت فى جسدها ـ فى سيرها بين العربات الصاخبة بالضجيج من ناحية وبين واجهات العرض البكماء من ناحية أخرى ـ بموجة هائلة وأسراب من الجزيئات التى كانت تسيل وتعدو بانتظام دون ترتيب، لكنها لم تترنح؛ لأن الصغيرة كانت تمسك بها جيدا، لقد كانت فى الماضى مطربة، لا شيء يذكر، أوبرتات، البداية كانت فى كورال المدرسة ثم كورال الكنيسة، لقد كان كل ذلك عدوًا سريعًا خلالها، لكنها كانت تزمع القيام بشىء، أمر بسيط ليس ذا بال، وذلك منذ أسابيع، لقد كان غاية وهدفا، بل كان قصدا.

هنا جلس رجل بجانب سور من أسوار المنازل، بالقرب من الملابس الداخلية والمخبوزات، يرتدى جوارب ثقيلة فى قدميه التى كان يمكن التعثر فيهما. إنها رأس لرجل حقيقى ـ ومازالت هى تملك النظر لكل ذلك، إنه بطل على المسرح وصوت من الأصوات الأوبرالية الرئيسية.

«بشر.. آلاف من البشر» هذا ما تفوهت به السيدة العجوز أمام حفيدتها، لكن هنا، كان هناك شخص واحد ملفت للنظر وحيد ويحيط به فضاء

واسع كبير، إنها فتاة صغيرة، غاية فى الصغر ومخيفة، تقذف بذراعها فى صمت، وجه صغير ذو شعر كثيف، لكنه فى الحقيقة لم يكن شعرا كثيرا، بل تم تصفيفه بكل قوة لكى يصبح مشعثا، حتى يبدو اجمالى حجم الرأس أكبر إنها نجمة، الكل عرف وفهم ذلك حتى وإن لم تكن كاميرات التليفزيون التى تصور قد دارت بعد، تدعى " تونيا توتال"، هكذا قال أحدهم، أما المشاهدون فقد كانوا يقفون على شكل نصف دائرة مستعدين، وسرعان ما بدأت الفتاة بصوتها الصغير فى غناء شطر من أغنية شهيرة وكررتها خمس مرات، صفق لها الجمهور الحاضر على سبيل التدريب وبكثير من الحماسة بناء على إشارة أعطيت له، وقد ساد شعور بأن هذا التصفيق كان مجرد نوع من التسلية له، لكن هذه الموهبة التى رآها الجميع كانت تثير كثيرًا من التساؤلات والشكوك. وكأنها تلقت أمرًا ما، بدأت النجمة فى تحريك عينيها تحت وطأة شعرها الجامد الصلب من فرط تموجه ذى اللون الأصفر الشاحب وفتحت فمها وهى ترقص يمينا ويسارا، لقد أخذ الأمر مأخذ الجد الآن، حيث قامت طوعا بغناء أغنية صغيرة مكونة من ثلاثة مقاطع، وقد أدتها وكأن أبواب السماء قد فتحت لها بحسن الطالع، لكن لا أحد من الجمهور استطاع - رغم كل الرفق والرضا - أن يصدقها.. نعم، لقد لاحظت السيدة العجوز ذلك جيدًا وبسرعة فائقة ودون أدنى شك. هذه المسكينة لن تصبح نجمة كبيرة

فى المستقبل ، ليس بعد مائة عام، كل ما تستطيع هذه النجمة «تونيا» على القيام به هو هذا العرض الذى قدمته للتو وخسرته أيضًا، ولكنها لم تكن تعرف ذلك بعد، فلم يقل لها أحد هذه الحقيقة حتى الآن، لأسباب حرجة ولأسباب إنسانية جدًا.

قد يكون المشاهدون قد توقعوا ذلك، وقد ابتسم لها البعض بلطف وكانوا متأثرين لها بحرج، لاحظت السيدة العجوز سيدة عجوزًا أخرى واقفة أمام المطربة مباشرة مع احترام المسافة المطلوبة - وقد كانت هائمة تحمل ابتسامة ساحرة أضاءت وجهها، لقد كانت من الريف، من مدينة صغيرة ومتأثرة كأنما أصابها مس من البرق. كانت تحمل حقيبة مشتريات كبيرة فى يدها وتقف هاهنا بوجه مضىء، تقف فى ضوء الصباح الرائع الذى رأيناه منذ قليل عند السور القديم، أما الفتاة فقد انحنت الآن انحناء كبيرة وكأن الجميع يحتفى بها احتفاء شديدًا، أمام المرآة أو أمام هذه الجدة الغائبة عن هذا العالم، جدة تونيا توتال، لابد أنها قد تمرنت على هذه اللفتة التى فى غير محلها حتى أتقنتها أمام المرآة أو أمام جدتها أكثر من تمرنها على أداء أغنيتها.

قالت المطربة العجوز لنفسها آه..! وتركت عينيها تتجول ما بين المشاهدة المعجبة المنبهرة الوحيدة وحفيدتها ثم العودة إليها مرة ثانية، لقد كنت أتعجب كثيرًا فى شبابى كيف سيكون مظهرى عندما أكبر فى

السن، وها هو حالى الآن! كوّرت قبضة يدها فى جيبها من أجل الإبقاء على ثباتها الداخلى والخارجى ولكى تتذكر شيئًا، لكنها شعرت كم كانت هناك قبضة أخرى هائلة وغير مرئية تلك التى كانت تضغطها داخل بعضها البعض وتجعلها تتكمش سنة تلو الأخرى.

واستمر تدافع دوامة الأشخاص، من الصعب تصديق أنهم كلهم بحق من البشر.. وأنا، هذا ما تساءلته العجوز ذات التسعة وسبعين عامًا، ماذا أمثل أنا بالنسبة لقريبتى الشابة اليافعة بجانبى؟ عجوز شريرة قد قفزت على كتفيها لكى تضطر لحملها إلى كل مكان، هل تحس أنها مثل كريستوفيروس، الذى كان يشعر بتزايد وطأة تلميذه عليه مع كل خطوة يخطوها؟ أظن أننى أمسك بدفة القيادة فى حياتى، وأنوء تحت وطأة المضايقات، لكن فى يوم من الأيام كان الأمر مختلفًا عن الآن، لقد كان لى جمهورى المغرم المخلص المعجب بشدة وولاء، كان يمكن لأى شخص أن يدفع قدرًا كبيرًا وثروة من المال ـ إن كان يمتلكه أصلا ـ للمطرب الذى يستطيع فجأة - بعدما ظن المستمعون أن جميع الأحاسيس قد ماتت وأن الموسيقى باتت ضربًا من الغش والخداع - أن ينجح فجأة فى إثبات وجود المشاعر والسعادة، لقد كانت تتوق إلى الجمهور الدافع للتذاكر بمشاعر من نار.. نعم، هكذا كان الأمر فى تلك الأيام.

يصعب تصديق أن حشود الأجساد المتزاحمة هى بالفعل لأشخاص من البشر! كل واحد منهم.. كل فرد، من أجل إنسان واحد، من أجله فقط.

هل الموسيقى بالفعل نوع من الغش والخداع؟ وهنا تذكرت جملة «تشعر فورًا بأن فرحته عند التحية هى فى الواقع تظاهر ورياء فقط» وكأن أحدهم بدأ يدندن بلحن أغنية «الليلة الزرقاء » إنها جملة قيلت عن كلب وفى خيبة أمل مُرّة، الفرحة تظاهر ورياء فقط؟ عبث وهراء، فلم تكن ترى فى هذا الرأى المتشدد عن المشاعر الصادقة شيئًا حسنًا، بل كانت ترى أنه ينم عن عدم الفهم.

وهنا غرقت الجملة، فقد تم جرفهما من شارع مونكبرج شتراسة إلى شارع جروس بيرج شتراسة باتجاه نهر الألستر، جُرفتا.. نعم! يقال إن كل هؤلاء بشر.. بشر حقيقيون يمكن التعرف بهم.. لا، فى الحقيقة ليس لها رغبة فى أن يكون لها أية علاقة بهم، لقد كانوا ذوى قوة وغلبة، عددهم لا يحصى، ولهم السيطرة، لأنها أرادت فى أحد الأيام أن تفرض نفسها بأى ثمن على الناس بصوتها.. بغنائها، على مسرح ما كشخص مهم.

لكنه كان بالتأكيد أمرا صحيحًا أن تتذكر هذه الجملة، وأن تسير بجانب قريبتها الشابة فى وسط الاندفاع والهرولة من حولها، فلم يكن هنا توقف.

«لقد كانت أمى تستمع أيام الأحد إلى القداس وهى تضع سماعات الرأس على أذنيها بينما تُكوِّر كرات اللحم للعائلة، وكان أبى يحب جدًا تناول لحم الخيل المتبل بالخل المطهى فى الفرن، كان ذلك فى منطقة الرور، فى الحانات، هكذا كان أصحاب الحانات يأكلون أموال العمال، بينما ظل العمال فقراء، أصبح أصحاب الحانات أغنياء بعد الحرب العالمية الأولى، بفضل العمال ولحم الخيل المتبل بالخل المطهى فى الفرن»، هذا ماقالته لحفيدتها التى لم تنصت لها مطلقاً، لكن لاضرر فى ذلك، المهم أنه قد صدر عنها ذات مرة، تلك المرأة العجوز وفى هذا التدافع للأشكال والهيئات المختلفة.

وبدأت تحكى: «زوجى الذى هو جدك أصبح يلعب الشطرنج بتزايد خلال فترة زواجنا، لقد كان مختلفًا عنى» واسترسلت فى أفكارها قائلة: «لقد كان رجلا جميلا، شخصًا متميزًا لذا تزوجته، وقد استطاع وبشجاعة أن يقاوم الكثير من الإغراءات لوسامته _ ها هنا وصلنا إلى نهر الألستر ، بعد مرور كل ذلك الزمن الطويل! _ على عكسى. لقد كنت أنساق دائما لها، لكن بسبب ما كنت أبدو عليه من فتور قلما كان الآخرون يحاولون الاقتراب منى. لذلك اقترفنا - نحن الاثنين - زوجى العزيز وأنا، نفس العدد من الخيانات الزوجية تقريبًا، لكن كل واحد منا على طريقته _ لقد كان زواجنا زواجًا حسنًا وعادلا، يجب أن أؤكد ذلك».

وسوف ترى الاثنتان فورًا على يمينهما نهر الألستر الداخلى، وعلى يسارهما نهر الألستر الصغير، لقد كان يجب علينا توخى الحذر لكى يمكننا رؤية كل ذلك دون أن نترنح أو يُسقِطنا أحد المارة أو يطرحنا أرضًا أو أن نختفى ونتلاشى، يجب إسراع الخطى قدمًا إما إلى هذا أو ذلك الاتجاه ثم يجب الالتزام بالاتجاه الذى تم اختياره وإلا حدث خلل ما، توقف أو اصطدام، كم من الناس كان يتم دفعهم فى مقاعد متحركة! ولكى تعطى الإشارة بشىء مهم حركت لبرهة يدها الكائنة فى جيب معطفها وتصورت وجود شخشخة مصاحبة لهذه الحركة وصليل ما، بالنسبة للمعاقين بجميع أنواع الإعاقة فإنه لا يمكن معرفة شكل أجسامهم وإصاباتهم إلا بالتخمين والتصور، لم يعد بينهم بالتأكيد ضحايا حرب، لكن كان من بينهم أطفال أيضًا، ياترى ما العضو الذى ينقصهم!

من المثير للدهشة ألا يستطيع هذا الكم الكبير من البشر السير للأمام بمفردهم! بعضهم كانوا محاطين بحقائب الشراء الممتلئة ووُضِعَت مثلها على ركبهم حتى كادت رءوسهم أن تختفى وتلوح من بينها ويكادوا ألا يلفتوا الأنظار بأنهم ليسوا حقائب، لقد كانوا ينساقون مع الآخرين، هؤلاء الجالسين على كراسيهم المتحركة وهذه الحشود، إنه سيل لا ينقطع.

السيدة التى كانت متشبثة بذراع حفيدتها ترنحت على الجسر بالقرب من ممر الألستر المسقوف، لم

يكن بسبب الرياح فقد كان الكل يترنح فى هذه الحركة العامة وبدون تفرقة. كادت أن تضيع وتختفى فى حقل القمح هذا بين هذه الأعداد اللامتناهية من الأعواد، ولم يكن الواحد منهم ذا أهمية، لقد تم تنويم البشر ولم يعد أحدهم يفكر فى إثبات ذاته.

هنا أصابتها رجفة - كانت لا تزال تتمتع بحدة السمع - لسماعها صوت صفارة الإنذار لسيارة نقل المصابين، لقد كان الصوت يبدو فى تصاعد وانحدار متصل وانطلق بحمية وكأنه خيط نارى يخترق الحشود السائرة إلى الأمام كالحجيج، كانت صدمة صغيرة منشطة- منطقة المارتنزهورن.. الشرطة.. المطافئ.. عربة الإسعاف، جذبتها حفيدتها بحسم إلى جانبها ، هل كان ذلك للشد من أزرها؟ لقد كانت صفارة الإنذار هذه هى محاولة يائسة وإن كانت تظاهرا للإنقاذ، لتأكيد وضع فردى، هذا ما شعرت به هى، المطربة العجوز.

وفى تلك اللحظة فكرت «ياليتنى كنت الآن فى أمان بغرفتى»، لكنها شعرت بالخجل فورًا من تفكيرها على هذا النحو، وسعيدة بعدم قدرة الآخرين على قراءة فكرتها الشائكة هذه. الغرفة هى مكانى الرئيسى الذى أشعر فيه بالتأقلم والارتياح، وهكذا كانت ترى أيضًا الموتى المحبوبين لديها فى أماكنهم الخاصة، فى مطبخ أو فى غرفة مكتب أو فى مكان تبديل الملابس أو فى معمل الرسم أو فى الحديقة،

لقد كانت صورًا، محيطًا من القباب للموتى، كنائس صغيرة خاصة فى ذاكرتها أقامتها لكل واحد منهم.

فى محطة يونجفرنشتيج أقام رجل كشكًا عليه لافتات قرأتها لها حفيدتها، لقد أدت حادثة سيارة إلى تشويه وجهه وقد عرض صورًا عن كل العمليات التى أجريت له، وهو يرجو التبرع له لإجراء مزيد من الجراحات، وقد جلس فى وسط كل هذه الأشياء بجلده الفظيع ذى الألوان الزرقاء والحمراء وشفتيه وعينيه وفتحتى أنفه التى تم تثبيتها بلا دقة فى أماكنها.

كان كثير من الشباب يصعد الدرجات إلى أعلى بلا مبالاة وببداهة وبحمق كبير ودون أدنى شعور، بينما بدأت السيدة العجوز تفقد أعصابها شيئًا فشيئا، لقد كان مخزون هذه الأشباح الآدمية خفيفة الحركة القادمة من الأدوار السفلى التى تصب فى النهر الكبير لا ينقطع، ووجدت الرجل ذا الوجه الرهيب خلفهما مجددا على الرغم من تعب أقدامها مع كل خطوة.

الآن وجب عليها الاعتراف لنفسها بأنها لا تحب هذه الجموع والزمر التى لا تكف عن الحركة، لقد ضاقت ذرعًا بهم، من هذا التنافس الآلى، بل كادت تضيق ذرعًا بنفسها، لقد أصبحت غير مكترثة بنفسها لدرجة أنها أصبحت بحاجة للمواساة الآن، تمتمت بعدوانية وهى تسير قائلة: «كفانى مارأيت من

مدينتكم حتى الآن!» لقد أصبحت تحتقر كل هذا، ألم تصبح كارهة للبشر منذ فترة طويلة وتقضى البقية المتبقية من حياتها فى الصقيع؟ نعم، لقد كانت كذلك، ودون أن تشعر بها حفيدتها كورت قبضتها بارتياع.

لم تكن لتستطيع أن تساير أمورها بمفردها، كانت ستقع فاقدة الوعى على الرصيف العريض فى وسط هذا الدعس والدبيب. نعم، مرة أخرى نعم إنها تحتقرهم جميعًا، هؤلاء الذين يأتون متحدين فى مواجهتها كأنهم سيل منهمر، وهؤلاء الذين يسيرون خلفها ومعها والتى هى منهم، فلم يكونوا أفضل منها بأى حال ولو بمقدار جناح بعوضة، كانت فى الماضى تشعر دائما بالاختناق والضجر من الناس فى القطارات المكتظة، لكن ما الوسيلة للحيلولة دون هذا الشعور؟ لقد كانت ببساطة تتصور أن الراكبين نائمون وأن وجوههم أصبحت مسالمة فجأة، كان هذا كافيًا لتهدئة روعها، لكن هنا، يا إلهى..! لماذا هذه الكتائب، وهذا الذى يحيط بكوكب الأرض أصبح أسود اللون من كثرة المارة؟!

لم تحاول درء هذه الحملة الشديدة من العداوة ضد البشر، بل كانت الحالة المزاجية المناسبة لما تنوى أن تفعله، لم تكن خطتها شيئا عظيما، لا.. لا يزيد فى نهاية الأمر - مثلما كان الحال فى سنوات الطفولة - وفى نهاية رحلة تجوالية عن كونه القمة المرتقبة ككوب من العصير المثلج فى مطعم الغابة، الذى كنا نظل

نفكر فيه دومًا قبل الوصول إليه، لكن كرهها وبغضها هذا هو الذى جعلها تتحمس على الرغم من تعبها وإرهاقها المتزايد.

المتسولون فاقدو المأوى - أحيانا بصحبة كلابهم - والغجريات اللاتى يصطحبن أطفالهن الرضع الملثمين أو العرائس بحجم الأطفال الرضع كانوا على مرمى البصر وبأوضاع مختلفة فى المسافة العاصفة لليونجفرنشتيج، قد انثنوا وتلووا، كأنهم نائمون أو يصلون، لفائف من القماش بلا حياة أو متدينون غريبى الأطوار، هؤلاء ممن يلقون خطبًا بأعينهم أو بشفاههم وآخرون الذين يعرضون أطرافهم المشوهة بوضوح كنداء بتهديد، لقد قامت بدراسة كل هذا بدقة وطلبت من حفيدتها عدة مرات التوقف إذا ما قابلت نمطًا لم تستطع تحديده على الفور، ولكن لم تكن هناك تجديدات أو تغيرات جوهرية، لم يفتها شىء، لا مفاجآت لدى الأشخاص التعساء فى عداد المدينة.

لقد بدأت دقات قلبها تتزايد، تدق بصورة مسرعة، فرحة لما ستحصل عليه من مكافأة، راحة.. عبث ومزاح.. فجأة ومن حيث لاتدرى وجدت نفسها فى مأزق لأنها، وقد تعقلت، تعقلت كما لم تكن عاقلة منذ أمد بعيد، لن تستطيع إنجازه بسبب تلكئها، لقد وعدت حفيدتها التى بدأ صبرها ينفد بزيارة المقهى الكائن بأعلى الألسترهاوس والمشهور بأنه يطل على

مدى بعيد على الماء، وكانتا قد وصلتا بالفعل إلى آخر مدخل إليه، بل تعديتاه قليلا. كانت السيدة العجوز مضطرة إلى التظاهر بأنها لا تستطيع الانفكاك من الحياة الزاخرة، ولكنها كانت تبحث عن أقرب من يظهر لها، الآن كان عليها أن تقبل ذا المستوى المتوسط أوالذى لاقيمة له.

ها قد وقفت أمامه وهى تقاوم حفيدتها التى بدأت تشدها والتى لم تفهم بالطبع سبب كل هذا التردد من أجل إعطاء صدقة بسيطة ـ لقد كان شخصًا ذائبًا ومنكمشًا إلى الداخل، متصدعا وينساب من الأطراف مثل قطعة من الخبز لم تكتمل، مخفضًا رأسه تحت قبعة، كم كانت تريد النظر فى عينيه! لقد كان زملاؤها القدامى من فاقدى المأوى يملكون ـ فى قمة التآكل ـ أجمل العيون وأكثرها شعورًا بالصقيع والأكثر ولعًا وشغفًا، كم صورت لنفسها ـ بعد توددها لمن وقع عليه اختيارها ـ وهى تخرج قبضتها من جيبها وتظل للحظة معلقة فى الهواء بحيث يكتمان أنفاسهما متطلعين لما سيحدث بعد ذلك. ثم يبتسمان لأنهما تعرفا على بعض، باغتا بعضهما أو تعرفا، حتى قلبت الكيس الثقيل بالضبط فوق القبعة المفتوحة، أو العلبة، من ارتفاع كبير من أجل حلاوة الرنين والسقوط الرائع لثلاثمائة من قطع البفنك المعدنية، بفنكات جالبة للحظ وفى رغبتها الجامحة للتبذير أضافت لهم عشر قطع معدنية فئة الخمسين بفنك، فضية اللون خفيفية الوزن، ثمانية ماركات فى مجملها

أمطرت بها علبته كشلال من المياه وبحر هائج عاصف كأنها للحظة واحدة إلهة الحظ «فورتونا».

هذا الكائن هنا لن ينظر إليـهـا فى سكرته، فى نومه العميق المنحدر من آلاف الخطوات العابرة، هنا ضحكت السيدة العجوز لنفسها لفشل خطتها على هذا النحو، رفعت قبضتها عاليًا وهى ممسكة بحافظة نقودها فوق هذا الرجل المنكمش فوق نفسه غير الواضح الملامح، فوق الرأس الذى انزلق ما بين الكتفين ، لكنها أدارت الفتحة _ منعًا لتدخل حفيدتها السريع _ إلى أسفل وأغرقت بها الرجل الصامت بثلاثمائة وعشر قطع من قطع النقود المعدنية المتناثرة، مما جعله يستحم بها باللونين الفضى والذهبى، كانت الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا بجوار بيت الألسترهاوس، حتى أسفر عن وجهه - وقالت لنفسها كنت متأكدة من ذلك، نعم لقد كان بطلا مسرحيا، هذا ما فكرت فيه _ لكنه بصق ناحيتها فى طريق مستقيم بشىء أسود اللون، ربما تبغ للمضغ أو مخاط.

ملحوظة: قامت واحدة أخرى، قد باتت أرملة منذ زمن بعيد، وربة منزل لمدة أطول، وقبل ذلك العهد بوقت طويل كانت تعمل كسكرتيرة، مشت فى ـوهذا ما لم تفعله لسنوات طويلة ـ إحدى كبريات مدن ألمانيا، وقد كانت برفقة ابنتها وزوجة ابنها الموجودتين عن يمينها وعن يسارها، ولم تستطع إحداهن من

خلال تعبيرات وجه السيدة العجوز ـ التى كانت نادرة الضحك للأسف فقد اعتادت على عدم الضحك ولم تكن تبتسم إلا فى حالات استثنائية ـ معرفة ما إذا كان هذا اللقاء قد أعجبها أم لا؟ هل كانت تتصور حياة المدن الكبرى هناك أكثر توهجًا مما رأته؟ هل كان الأمر مُرهقًا لها بدرجة مفرطة؟ لم تكن لتنظر إليها جيدًا، وإن نظرت بنوع من الازدراء؟ أم لم تلاحظها أبدا، وسارت ببعض الامتعاض، كما كان يبدو إلى الأمام، حتى اكتشفت متسولا كان يستند إلى حائط، وعلى الفور توقفت وبدأت تبحث بهمة ونشاط فى حقيبتها التى كانت قد أغلقتها بحرص خوفًا من اللصوص، واتجهت يمينًا بجوار نافذة عرض أحد المحال ليتسنى لها إخراج حافظتها واختيار قطعة من النقود المعدنية ثم سارت بزاوية مائلة للناحية المقابلة إلى جدار الممر المسقوف ولمست يد المتسول. هنا ارتجف الرجل متنهدا وكاد أن يصرخ فى وجهها بأنها قد أفزعته بحق! لكن السيدة أمسكت بيده وبينما كانت تضع فيها قطعة النقود أمسكت بيده وضغطت عليها وهزتها، أم كان الرجل هو الذى يفعل ذلك، هذا الذى لم يكن يريد ترك يدها الآن وظل ممسكًا بها.
وظلت السيدتان الشابتان تراقبان الاثنين اللذين قد يكونان فى نفس العمر، بينما يضغط كل منهما على يد الآخر دون مراعاة للزمن وقد غرقت نظرات كل منهما فى الآخر كأنما كانا يعرفان بعضهما أو كأنما كانا ينفذان أوامر صدرت لهما بدقة متناهية

وموضوعية دون أخذ أى ظروف أخرى فى الاعتبار، دون أى اعتبارت، حتى انفصلا فى النهاية وابتعدا عن بعضهما البعض. لكن الابنة وزوجة الابن تابعتا كل ذلك بشعور من الألم الذى باغتهم فجأة، ولم تستطع إحداهن معرفة ما إذا شاب شعورهما الأسف والحسرة أو الشعور بالندم - مما كان غير مفهوم لهما - ولم تنسيا ذلك المنظر حتى وفاتهما فى عامى ٢٠١٠ و ٢٠١٢ .

(فى: الخلوة ورسولها. عن الناس والصور- ١٩٩٦ .)

مثل السحالى والتماسيح

لقد كان عمري ـ منذ طفولتي ـ يكبر مع مرور كل دقيقة، وهذا يحدث للآخرين أيضًا. كما كنت أتمنى دومًا ـ طريقي الخاص بانفراد وفردية ما، وإن لم يكن بالقدر الذى انتظرته فى البداية، ولكن فى وقت ما شعرت ـ كرد فعل على السؤال عن تاريخ الميلاد ـ الصادر من ذلك الشخص الغريب عنى والفضولى بطريقة مباشرة فقد كانت ترتسم على قسمات وجهه عبارات مثيرة للاهتمام تحمل فى طياتها معنى: ضبضتك! ضبضتك متلبسة! قبضت عليك وانكشف عنك القناع!! لقد أعطيت إشارة للزملاء ثقلاء الظل كأن التاريخ المذكور قد أصبح فجأة وبمثابة نقطة سوداء، والدليل الحاسم الذى لا يمكن محوه للانتماء المحرج لفئة معينة والتى قد يكون الاختلاف بينها مجرد زينة وخداع.

وهناك ملاحظة أخرى مدهشة على طريق الشيخوخة والتى يقف تهديد الشيخوخة فى نهايتها ـ

إنه وضع تتوجس الأغلبية منه خيفة وإن كان الجميع يريد الوصول إليه بأية طريقة - لتلك الحقيقة الواقعة بأن ذلك الشيء الذى كان يعرضنا للسخرية واللوم فى سن العشرين ينال فجأة إعجاب الشباب الذابل أو أن أمرا يُنظر عليه عادة بالأسف يصبح جديرا بالإعجاب ودليلا على النشاط المفرط؛ وخاصة من جانب المراهقين الذين أصبحوا لتوهم فى قمة نشاطهم. هل هو غباء اجتماعى؟ أم مبالغة شعورية أنانية مفرطة مبنية على جهل عظيم والرغبة فى نشر المسلمات ليل نهار؟ أو بالعكس التشدد فى العداء الجاهل لجميع النظريات سواء الخاصة بالحياة أو الأزياء أو الحب أو الفن أو السياسة، أى كل المتعلق بالحضارة والثقافة برمتها. .آه! ياليتنا لم نغضب، من المعوقات التى تقابلنا كشباب، وياليتنا أكثرنا من الاستمتاع بها مثلما نفعل بالشيخوخة! ياليتنا كنا أشخاصًا أخرى، وياليتنا كنا ما نحن عليه الآن وما كنا عليه فى السابق فى آن واحد !

أحيانا أندهش من العدد الكبير لكبار السن الذين كانوا يظهرون منذ البداية فى رواياتى وقصصى، لكننى أستطيع تخمين السبب بدقة كبيرة، وبغض النظر عن أن الذى قام بنصف تربيتى لظروف طارئة هو جد حبيب جدًا وسريع الغضب قليلا، فقد أثار اهتمامى من خلال كتاباتى ولفترة طويلة كيف يمكن أن يصيغ شخص من كل إدراكاته وملاحظاته والتفاصيل الدقيقة للحقيقة أحداثا صغيرة مؤثرة،

خطوات تم تشكيلها دراميًا، وينظمها فى النهاية فى منظور من المتسلسلات والمنحنيات وشبكات من الدوافع والمعانى التى قد تكون مرتبطة ببعضها البعض، ودون وعى، بأسلوب أدبى لكن فى نفس الوقت دون أى طموحات أدبية ولكنها قد تصل فى النهاية أحيانا إلى خلاصة قيّمة مثل: حياة رائعة، حياة ضاعت هباء وهكذا. الأبطال من الشباب اليافع لايكونون فى هذه المرحلة العمرية ـ وذلك يعود فى الغالب لقلة الخبرة والقاعدة المعرفية ـ قادرين على التأمل والنظر فى هذا الكم من التركيبات والأحداث القدرية، ويظلون - عندى على الأقل- معتمدين على جدة أكبر سنًا، فضلا عن ذلك كانت التجعيدات والخطوط المرسومة فى أوجه الأكبر سنًا تجلب لبى منذ طفولتى، حيث لاتختلف فى بعض الحالات كثيرًا عن جلد السحالى والتماسيح، بعد ذلك كان هناك سببان فى أن تسحرنى عملية التحول فى منطقة العينين والأذنين والأفواه والأيادى وطريقة المشى والصوت للأشخاص الذين نألفهم، وليس فقط فى إبقاء التوازن بين شحذ الملامح والوهن، فمن ناحية يصبح كل ذلك أكثر تحديدًا وتمييزًا للملامح من سنة إلى الأخرى، لكنه يخضع من ناحية أخرى بقسوة لقانون الحياة، وهى بوضوح قوالب التغيير فيما يختص بالشيخوخة.

إن التحولات التدريجية الهادئة فى أسلوب التفكير والحياة الشعورية لسيدة مسنة حتى مرحلة الوصول

النهائى بلا عودة إلى الانفصال التام عن المجتمع الواقعى الشديد الحيوية قد قامت بعرضها السيدة كاترين زيباخر ـ التى توفيت فى الثلاثين من عمرها فى روايتها الأولى والوحيدة «الصباح أو المساء» بأسلوب مؤثر يحرك العواطف على الرغم من جل موضوعيته.

لكن فلنتوقف! ما أريد قوله هو شىء آخر تمامًا، فالدعوى بأن الشيخوخة وخاصة مرحلة «الوصول إلى الشيخوخة» الحرجة هى حقيقة لا يمكن إنكارها وهى فى نفس الوقت من أكبر حالات الهلوسة الجماعية، فالقوالب الخارجية هى أبسط هذه الأمور أى تلك التى تُستخدم لإجبار الضحية المثيرة للشفقة على الاستسلام، وهذا يحدث كثيرًا بمناصبتهم العداء الممزوج بالنفاق والرياء وبالتظاهر بالرعاية والاهتمام والتصنيف العلنى حسب تدرج العمر وعن طريق المؤسسات المهذبة والإهانات الشفهية، طعام كبار السن! ويبدو محاولات أن حجب تاريخ الميلاد ومحاولات التجميل الخداعية ليست علامة من علامات «عدم القدرة على تقبل التقدم بالسن» المهينة، بقدر ما هى على الأرجح إجراء مضاد لذلك التصنيف الآلى دون النظر إلى الشخص نفسه، إن الطاعة المفترضة هنا ليست أكثر وقارًا ـ وهى فضيلة كثيرًا ما نحب أن نراها فى المسنين ـ والانصياع للقوالب من أمثال «إننى أتوق لكبر السن» ليست أقل من الاعتراف الشجاع بالنفور منه.

بالطبع ، فمن قضى حياته حتى الآن فى حماية القوالب المسبقة وفى كنف المتوارث والأوامر الخاصة بالإدراك والملاحظة، سيقوم هنا _ وهذا هو محور قوة القوالب الداخلية _ فى مواساة نفسه ولأنه لم يتعلم شيئًا آخر سواء بسبب الكسل أو الخوف بالانصياع والوقوف بانتباه ، هذا يعنى أنه بدءًا من لحظة معينة فى حياته سيُرجع كل شىء يحدث له سواء برغبته أو بدونها إلى «عامل السن».

وبلا شك لا يمكن التقليل من قيمة التمجيد المذكور للحالة الجسدية والمزاجية والذهنية السابقة، ويجب أن يتضح لنا أن هذا الميل المشئوم يمنحنا رؤى لم نعشها من قبل _ لكمال أو جموح الذات فيصبح الإنسان وكأنه القدوة المحبوبة لنفسه فى خضم الذكريات الجميلة وذلك لمدة من الزمن تدوم لبضع لحظات حالمة، وما عدا ذلك سيكون نوعًا من المبالغة والتجاوز.

لكن الخطر الحقيقى للتعثر الداخلى يكمن فى الإيهام الذاتى الأحمق بأنه بدءًا من تاريخ سحرى معين لن نعيش أحداثًا مهمة، وأنه لا وجود لأى بريق فى حياتنا، فلا مفاجآت حتى الوصول إلى تلك النقطة المنتظرة، وهى الموت، هذا سيكون بلا شك الباعث الوحيد على اليأس وقد يكون نوعًا من الموت البطىء لفترة قد تدوم عشرات السنوات.

من أجل لا شىء.. لاشىء على الإطلاق! لأن تجاربى حتى الآن مع التقدم فى السن تشير إلى

العكس من ذلك، إذا ما أمكن مقارنة مراحل العمر المختلفة مع بعضها البعض، فلا يمكن إحصاء ما يمكن أن تؤدى إليه التغيرات فى الآفاق والأحاسيس الشعورية مع التقدم فى العمر، يبدو أن على كل شخص أن يمر بذلك بطريقته الخاصة، ولأن الشخص يعرف «العالم» من زوايا رؤية متباينة فى الماضى والتى لا يمكن طيها فى حيز النسيان إلا جزئيًا فإنها يمكن الآن بعد الانتهاء من المرور بمراحل مختلفة من العمر أن تصبح أكثر وضوحًا ومن منظورات متعددة وقد تم تجميعها بأسلوب جديد- هل هذا هو الفخ الذى يجب عدم الوقوع فيه حتى وإن كان يعنى كدًا وإغراءً فى بعض الأحيان؟ إن ما يحدث للإنسان يجب ألا تهدمه الوسائل المُعيِّرة للتقدم فى السن وعدم تركه تحت مسمى وأرقام الملفات الخاطئة للتقاليد والأعراف المدعية لمعرفة ما هو أفضل لكنها يجب أن تستطيع إنجاز السهل الممتنع، إدراك ما نعايشه دون أى تدخل، والمقصود هنا كل من الممتع والمحزن والدخول فى جبهة لا وقاية منها.

منذ خمسمائة عام قام الفنان دومينيكو جيرلانداير برسم لوحته المزدوجة الشهيرة لرجل ذى أنف مشوهة وما يُعتقد بأنه حفيده وهما يراقبان بعضهما البعض وغارقان فى حب عميق، يقوم أحدهما بذلك دون مشاعر جياشة وبجدية مألوفة وثقة، ونرى هنا الخطوط والعلامات المرئية الدالة على الشيخوخة والشباب _ والتى تنفيها فى نفس

الوقت، كما نرى بينهما شيئا ثالثًا صوفيًا، وعلى نفس المسافة لكليهما نرى جبلا يطل من النافذة باللون الرمادى المحيط به الغموض ولون الملابس الأحمر يتدرج بغنى ووفرة ولكنه يشبه عرض وإحياء لقصيدة شيلر القائلة: «الطبيعة الصالحة .. لا تتغير، وترضع من نفس الصدر الأعمار المتبدلة، تحت نفس الزرقة وفوق نفس الخضرة .. ».

والشخص الذى عرفته لأطول مدة فى حياتى هو سيدة تبلغ الآن السابعة والثمانين من العمر،وتعانى ضعفًا مضطردًا فى الرؤية والسمع وثبات الخطوات والذاكرة، لكن لا يوجد ما يجعلها تسير بخطى أكثر سرعة للحظات ولا تكون أفضل سمعًا ولا تنظر بنظرات أكثر لمعانا من اللحظات التى يحدث فيها تبادل للنظرات أو التفوه بكلمات تسقط خلالها الحواجز الورقية للفوارق بين الأجيال، إنها ساعة حظ لمن معها ولنفسها بشرط أن يكون ما فهمت وتعليلى لكل ذلك صحيحًا.

(فى: ازدواج المعانى. مقالات وقصص قصيرة- ٢٠٠٣)

«هنا تأثر وجدان كل المحيطين حسرة وأسفًا واغرورقت أعينهم بالدموع عندما رأوا العروس السابقة فى شيخوختها الذابلة الضعيفة، ورأوا العريس لا يزال فى ريعان وجمال الشباب وكيف اشتعل لهيب الحب فى قلبها مرة أخرى بعد خمسين عامًا». إنها العروس الشهيرة للكاتب هيبل فى عمله لقاء غير متوقع" والتى تحكى عن عروس انتزع حادث بأحد المناجم بمدينة فالون منها خطيبها فى شبابها، وبعد مرور نصف قرن من الزمان وبينما كان العمال يجرون أعمالا فى نفق المنجم وجدوه محفوظًا فى معدن من الحديد أو النحاس وأعادوه لها سليمًا، ويقف هنا أمامنا بفن الكتابة الكبير للمؤلف ـ فالعروس الحقيقية قامت ببيع الجثمان، وهذا هو المدهش هنا بعض الشىء، لكلية الطب بجامعة أوبسالا لإجراء أبحاث علمية عليه ـ إبداع حياتى مثالى.

ولهذا ثلاثة أسباب.

فالأحداث التاريخية العظيمة المذكورة خلال تلك الحقبة الزمنية - التى تمثل مرور الحياة المتبهرجة - لم تستطع كسر الأفق الشعورى الشخصى الصادق للعروس السويدية، ولم يستطع محوها أو تفنيدها ، فتبقى على ولائها لترتيب وتدرج الأولويات فى حياتها.

ودون أن يؤثر فيها التناقض بين هيئتيهما - أى فعل الزمن - فهى قد شاخت وهو ظل شابًا مثلما كان طوال حياته - يرتجف ويرتعد ويخالج صدر السيدة العنيدة عند النظر إلى المتوفى «الفرحة السعيدة» بالحب القديم الذى لم يتأثر أبدًا بعوامل الزمن.

وفى عدم تأثرها بفقدان عريسها من جديد بعودته للأرض عن طريق دفنه، تتوق للحظة التى يعود فيها أخيرًا « النهار» ، ذلك الإنهاء المؤكد للوقت ولحركة الزمان والتى سيدخلان فيها رسميًا ومتحدين إلى ذلك البعد - وهو ما كان منذ البداية العنصر الأساسى لحبهما - إلى ما نسميه الحياة الأبدية.

كما قلت فإننى لا أجيد فن الحياة وإن كنت أود إجادته جدًا وممارسته بارتياح وثقة، نعم أود ذلك كثيرًا، إن كانت قد أُهدِيَت لى هذه الملكة، ذلك الفن الواحد فقط.

(من : على الطريقة السويدية فى: ازدواج المعانى، مقالات وقصص قصيرة - ٢٠٠٣)

(١٤)

غمزة من العالم الآخر

أثبت الأدب والشعر نفسه كنموذج ميتافيزيقي ولكن ليس بأن يفرض المبدعون آراءهم سواء بإشارات لرفع الروح المعنوية أو بدلالات الرمزية الدينية ولكن ـ كما أرى ـ لخلق عالم متحرك دون إثارة الرثاء أو الشفقة أو الدعوة بوضوح إلى سيادة روح الإنسانية والحب ودعنا نقول هنا : حسب قوانين ثنائية.

وعندما تنجح في ذلك مع الغياب المؤلم لمثل تلك البواعث تصبح قادرة على إيقاظ الشوق إليها وكأن هذه الأنظمة والدساتير السرية موجودة بالفعل، ولا نعلم إن كانت سوف تنقرض الحاجة إليها ـ وإن كنا نأمل ألا يحدث ذلك، أجل وكأن الغمزة من العالم الآخر لها وجود بالفعل، ذلك العالم الثاني.. الآخر، والتي تؤدي نظرة أو مشهد مؤثر إلى إثبات وجوده المباشر الفعلي. (...)

ويهدينا الأدب كقالب فني فكرة عن المعنى الجانبي الخفي لوجودنا ومصداقًا يحدثنا به قلبنا، ولا يزيد على ذلك بأي حال وإلا سيفقد، بعدما صار أيديولوجيًا، ازدواج المعاني المعلق الذي لم يتحدد بعد.

(من: غمزة من العالم الآخر. ازدواج المعاني الأدبية. في: ازدواج المعاني. مقالات وقصص قصيرة- ٢٠٠٢).

طائر الحسون

الجزء الأعلى من رأسه أسود اللون و«الوجه» من الجبين إلى الرقبة مزدان باللون الأحمر، وجنتاه بيضاء، بينما تبدو صيحاته المنذرة «آهى» قريبة من الآهات الأوبرالية، وقد تزامنت فترة ازدهاره مع زمن المعاناة الرئيسية لهذا الطائر الجميل المسمى بالحسون أو الدنورة، وكانت ما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر الميلادى، فقد كانت اللمسة الأخيرة المتممة لراسمى لوحات مريم العذراء بدءًا من نيكولو دى توماسو حتى برونزينو ولم يكن يمثل فقط عنصرها الملّون بل الدرامى أيضًا، فهو يقوم بدور الدمية الحية الصغيرة للمسيح الذى يجلس تارة عن يمين وتارة عن يسار مريم فى حال إن لم يكن رضيع الله هذا مشغولا بصدر أمه أو بتفاحة أو بشمار السلطة الكروى أو بزهرة من الأزهار.

وهذا بلا شك لم يكن ـ بجانب الشرف العظيم طبعاً– وجودًا سهلا ومتعة محضة لهذا الطائر وإنها

بالتأكيد لإحدى مناقبه _ ذلك العصفور الذى كثيرًا ما تصيبه أيادى الأطفال الصغيرة اللطيفة بكدمات خطيرة أو تحاول خنقه وهى مسترخية والذى يكاد يكون قد عُلِّق من رقبته _ أن يظل لمدة ثلاثة قرون لعبة وأداة ملونة دون إصدار صرخة «آهى» واحدة وأن يتحمل تلك القبضة الخانقة اللطيفة فى براءة من أجل الله والفن، ولذلك تبقى الأعين عالقة به، على حُبيبة الملح القادمة من الواقع فى التنسيق المؤنق الورع لأم المسيح وابنها!

حسنًا، تعرض مريم ذلك المعذَّب برفق لطفلها، لكن ذلك الحسون تحول إلى طائر بنى مسكين (بييرو دى كوزيمو)، وفى مرة أخرى يمسح عليه بلطف كل من المسيح ويوحنا بالتزامن، ولكنه يسمى بطريق الخطأ هنا طائر البرقش (شبيه الحسون). كذلك اهتم به فان آيك وإن خلط بينه وبين ببغاء استوائية، أما برونزينو فإنه يرسمه دائمًا بطريقة صحيحة وإن كان قد وضعه _ وهذا نوع من الإهانة - فى يد غلام بدين ولطيف من نبلاء أسرة ميديتشى والذى لا يكاد يستطيع تمالك نفسه من السعادة بهذه القبضة المتسيدة، أما كريفيلى فإنه يحوله إلى طائر صفارية مقروص وإن جعله فى لوحة أخرى الطائر الوحيد الذى يطير من يد الطفل المسيح المنبسطة ولكن على هيئة طائر الحسون !

قبل عامين وأثناء عبورى من جزيرة إلبا إلى اليابسة الإيطالية هبط هذا الطائر على ظهر راكبة

كانت بجوارى مباشرة، هل دفعته الرياح من الجزيرة إلى البحر؟ فقد كان يبحث عن ملجأ وملاذ عند البشر، وأخيرًا أمسك به ولد صغير _ تحت رقابة والدته _ لكى يحبسه من أجل سلامته، تم إنجاز المهمة، فمن اليد الإلهية لطفل صغير كما رسمها كريفيللى أصبح يرفرف أخيرًا بأجنحته السوداء الملونة بالشارات الصفراء الرائعة فى يد طفل صغير وقد خرج من لوحة مرسومة إلى عالم الواقع كمبعوث سماوى متناهى الصغر يحمل معه حاضر لوحات مريم العذراء فى عذوبتها مثل حبوب اللقاح.

فطائر الحسون آت من حيث يريد الآخرون دومًا الوصول إليه.

(فى: ازدواج المعانى. مقالات وقصص قصيرة- ٢٠٠٢).

فهرس أعمال الكاتبة

1974 Der unvermeidliche Gang der Dinge Göttingen: Ibnassus Press-Bert Schlender

1975 Die Revolution der Nachahmung Göttingen: Ibnassus- Press Bert .Schlender

1976 Vom Umgang mit der Natur Hamburg:. Dreiben

1980 Frau Mühlenbeck imGehäus Roman .Stuttgart: Klett-Cotta

1981 Die gemusterte Nacht Erzählungen.h Stuttgart: Klett-Cotta

1983 Rita Münster Roman Stuttgart: Klett-. . Cotta

1986 Berittener Bogenschütze Roman . Stuttgart: Klett-Cotta:

1987 Aufsätze zur Literatur. Stuttgart: Klett- .Cotta

1988 Enten und Knäckebrot . Sieben

Erzählungen. Stuttgrt: Klett- Cotta.
1990 Die Frau in den Kissen. Roman. Stuttgart: Klett - Cotta.
1992 Stuttgart Geschichten Schnurrer: Klett - Cotta.
1993 Literatur und schönes Blümlein Essys. Graz/Wien: Droschi.
1993 Die Wiese. Eezählungen.Stuttgart: Reclam.
1993 Hin - und herbrausende Züge. Erzählungen. Stuttgart: Klett- Cotta.
1994 Das Taschentucg. Roman. Stuttgart: Klett - Catta.
1995 Die Lerche in der Luft und im Nest. Zu Literatur und Kunst Berlin: Aufbau.
1996 Die Einöde und ihr Prophet. über Menschen und Bilder. Stuttgart: Klett - Catta.
2000 Teufelsbrücke. Roman. Stuttgart:Klett - Catta.
2002 Zweideutigkeit. Essavs and Skizzen. Stuttgart: Klett - Catta.
2004 Verlangen nach Musik und Gebirge. Roman. Stuttgart: Klett - Catta.
2004 Die Tricks der Dive. Geschichten. Stuttgart. Reclam.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١- «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ «إيتالوكالفينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريچيو».

١٢- القلعة البيضاء ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ - أين تذهب طيور المحيط ـ للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات ـ «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة ـ للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء ـ للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب ـ للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» ـ متتالية قصصية ـ «جائزة كين».

١٧ ـ شوشا ـ للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٨ ـ شارع ميجل ـ للكاتب من ترينداد ـ «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ - الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ - المستبعدون - للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٣ - الأنثى كنوع- للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» - قصص - جائزة بن مالامود.

٢٤ - ثلاثة أيام عند أمي - للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» - رواية - جائزة الجونكور.

٢٥- اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦- الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ - الذكريات الصغيرة .. جوزيه ساراماجو.. جائزة نوبل ١٩٩٨.

٢ - السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جرترود.. بريجتيه كروناور.. جائزة چورچ بوشنر الكبرى ٢٠٠٥.

٣ - عن الجمال.. زادى سميث.. جائزة الأورانج ٢٠٠٦.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg

هذه مختارات من مشروع أدبي كبير قوامه سبع روايات، وخمسة مجلدات من القصص وأربعة مجلدات من التأملات والمقالات لكاتبة ألمانية كتب عنها الناقد الألماني الكبير "بيتر همور" "أنها أكثر كاتبات اللغة الألمانية ثقافة وطموحاً وتمكناً من اللغة". وكتب عنها "يورجن بورماجن - بيجيته كروناور" "كاتبة فطرت على القوة. ظلت طوال مشوارها الأدبي مؤسسة بناء واعية قد يستغربها لهذا السبب بعض القراء الذين يبتغون على الأحرى اندماجاً وجدانياً مباشراً".





ISBN# 9789774200496
6 221149 005280

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٩ جنيهات